

تفسير الفاسي
المسكت

محاسن التأويل

تأليف علامه عظيم الشان

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه ونصحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ
[٢٩ / ص / ٣٨]

تفسير الفاسمي المسمى

مَحَاسِنُ التَّائِيلِ

تَأليفُ علامَةِ الشَّامِ

مُحَمَّدُ جَمَالُ الدِّينِ الْفَاسِمِيُّ

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الرابع

وفيه تفسير سورة آل عمران بتمامها

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خادم الكتاب والسنة)

مُحَمَّدُ زَيْدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

بَكَارُ الْحَيَاءِ الْكُنْدُ الْعَرَبِيَّةِ
عيسى البباني الجبلي وشركاه

« الطبعة الأولى »
جميع الحقوق محفوظة
[١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م]

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأمر مكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف ، رضى الله عنه

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

«هو علامة الشام، ونادرة الأيام،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين
هذى السلف ، والارتقاء المدني الذي
يقتضيه الزمن»

« وإني لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً تراح إليه ضمائرهما ، وتنعقد عليه
خناصرها ، أن لا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

وهي مدنية. مائتا آية، أو إلا آية. سميت بذلك لأن اصطفاء آل عمران، وهم عيسى ويحيى ومريم وأمه، نزل فيه منها ما لم ينزل في غيره. إذ هو بضع وثمانون آية. وقد جعل هذا الاصطفاء دليلاً على اصطفاء نبينا محمد ﷺ وجعله متبوعاً لكل محب لله ومحبوب له.

وتسمى الزهراء، لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتابين من شأن عيسى عليه السلام. والأمان، لأن من تمسك بما فيها أمن من الغلط في شأنه. والكنز، لتضمنها الأسرار العيسوية. والمجادلة، لنزول ثياف وثمانين آية منها في مجادلة رسول الله ﷺ نصارى نجران. وسورة الاستغفار، لما فيها من قوله: **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** ^(١). وطيبة، لجمعها من أصناف الطيبين في قوله: **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ** ^(٢). إلى آخره، أفاده المهايى.

والمراد بعمران هو والد مريم، أم عيسى عليهما السلام، كما يأتي التنويه به في قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ^(٣).

- (١) [٣ / آل عمران / ١٧] ونصها: **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**.
- (٢) [٣ / آل عمران / ٣٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْم)

[٢] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

[٣] (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ

وَالْإِنْجِيلَ)

« الْم » سلف الكلام على ذلك أول البقرة . « اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » سبق تأويله في آية الكرسي . « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ » أى القرآن . عبر عنه باسم الجنس إيداناً بكمال تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس ، كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه ، كما يلوح به التصريح باسمي التوراة والإنجيل « بِالْحَقِّ » أى الصدق الذى لا ريب فيه « مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من الكتب المنزلة قبله .

قال المہامی : أى معرفاً صدق الكتب السالفة . وقال أبو مسلم : المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبياً قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به ، وتنزيهه عما لا يليق به ، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التى هى صلاح كل زمان . فالقرآن مصدق لتلك الكتب فى كل ذلك . « وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ » تعين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله . تأكيذاً لما قبله ، وتمهيداً لما بعده . إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعة ونباهة ، ويزداد فى القلوب قبولاً ومهابة ، ويتفاحش حال من كفر بهما فى الشناعة ، واستتباع ماسيذكر من العذاب الشديد والانتقام . قاله أبو السعود .

والتوراة اسم عبرانى معناه (الشريعة) . والإنجيل لفظة يونانية معناها (البشرى)

أى الخبر الحسن . هذا هو الصواب كما نص عليه علماء الكتابين فى مصنفاتهم . وقد حاول بعض الأدباء تطبيقهما على أوزان لغة العرب واشتقاقهما منها . وهو خبط . بغير ضبط .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

« مِنْ قَبْلُ » متعلق بـ « أنزل » ، أى أنزلها من قبل تنزيل الكتاب . والتصريخ به مع ظهور الأمر ، للمبالغة فى البيان « هُدًى لِلنَّاسِ » أى لقوم موسى وعيسى . أو ما هو أعم . لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع « وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ » وهو الكتب السماوية التى ذكرها . لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل . أو هو القرآن . وإنما كرر ذكره بما هو نعت له ، ومدح له ، من كونه فارقاً بين الحق والباطل ، بعد ما ذكره باسم الجنس ، تعظيماً لشأنه ، وإظهاراً لفضله . قال الرازى : أو يقال إنه تعالى أعاد ذكره ليبين أنه أنزله بعد التوراة والإنجيل ، ليجمعه فرقاً بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى من الحق والباطل . وعلى هذا التقدير فلا تكرار . ثم استظهر حمل الفرقان على المعجزات التى قرنها الله تعالى بإزالة هذه الكتب الفارقة بين دعواهم ودعوى الكذابين . قال : فالفرقان هو المعجز القاهر الذى يدل على صحتها ، ويفيد الفرق بينها وبين سائر الكتب المختلفة . انتهى .

ويجوز أن يكون المراد بالفرقان (الميزان) المشار إليه فى قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ^(١) . والميزان هو العدل فى الأمور كلها ؛ واللفظ مما يشمل ذلك كله لتلاقيها فى المعنى .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ =

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ » أى جحدوا بها « لَهُمْ » بسبب كفرهم بها « عَذَابٌ شَدِيدٌ » وهذا الوعيد. جىء به إثر ما تقدم حملاً على الإذعان ، وزجراً عن العصيان « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » لا يغالب يفعل ما يشاء « ذُو انتِقَامٍ » أى معاقبة ، يقال : انتقم الله منه : عاقبه . والنقمة : المكافأة بالعقوبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى هو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن ، وهو مجازيهم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ،

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » أى يخلقكم فى الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقى وسعيد « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ

وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا

بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » واضحات الدلالة « هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ »

= لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

أَمْ الْكِتَابِ « أَى أصله المعتمد عليه فى الأحكام » وَأَخْرُ مُشَابِهَاتٌ « وهى ما استأثر الله بعلمها لعدم اتضاح حقيقتها التى أخبر عنها ، أو ما احتملت أوجهاً . وجعله كله محكماً فى قوله : (أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) ^(١) بمعنى أنه ليس فيه عيب ، وأنه كلام حق فصيح الألفاظ ، صحيح المعانى . ومتشابهاً فى قوله (كِتَابًا مُتَشَابِهًا) ^(٢) بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى الحسن ، ويصدق بعضه بعضاً « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » أى ميل عن استقامة إلى كفر وأهواء وابتداع « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ » أى طلب الإيقاع فى الشبهات واللبس « وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وحده « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » أى الثابتون المتمكنون مبتدأ خبره « يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » أى بالمتشابه على ما أراد الله تعالى « كُلُّ » من المحكم والمتشابه « مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » أى العقول الخالصة من الركون إلى الأهواء الزائفة . وهو تذييل سيق منه تعالى مدحاً للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر .

تنبيه :

للعلماء فى المحكم والمتشابه أقوال كثيرة ، ومباحث واسعة . وأبدع ما رأيت فى تحرير هذا المقام مقالة سابعة الذيل لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان . يقول فى خلاصها : المحكم فى القرآن ، تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله ، وتارة يقابل بما نسخه الله ، مما ألقاه الشيطان . ومن الناس من يجعله مقابلاً لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ، ويجعل المنسوخ ليس محكماً ، وإن كان الله أنزله أو لا اتباعاً للظاهر من قوله : فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ . فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ، ينبغى التفطن لها . وجماع ذلك أن الإحكام تارة يكون فى التنزيل . فيكون فى مقابلته ما يلقى الشيطان . فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أى فصله من الاشتباه بغيره ، وفصل منه ما ليس منه ، فإن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذى به يتحقق الشئ ويحصل إيقانه ،

(١) [١١ / هود / ١] ونصها : آلر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ

لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٣] .

ولهذا دخل فيه معنى المنع ، كما دخل في الحد بالمنع جزء معناه ، لاجميع معناه . وتارة يكون في إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذي هو رفع ما شرع ، وهو اصطلاحى . أو يقال (وهو أشبه) : السلف كانوا يسمون كل رفع نسخاً ، سواء كان رفع حكم ، أو رفع دلالة ظاهرة ، فكل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح ، كتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، فهو منسوخ في اصطلاح السلف . وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون في نفس لفظ المبلغ ، وقد يكون في مسمع المبلغ ، وقد يكون في فهمه ، كما قال : **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا^(١)** . ومعلوم أن من سمع ، سمع النص الذى قدر رفع حكمه ، أو دلالة له ، فإنه يلقى الشيطان في تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ ، فيحكم الله آياته بالناسخ الذى به رفع الحكم ، وبأن المراد . وعلى هذا التقدير ، فيصح أن يقال : التشابه المنسوخ . بهذا الاعتبار . والله أعلم .

وتارة يكون الإحكام في التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها ، حتى لا تشبه غيرها . وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا . فتكون محتملة للمعنيين ، ولم يقل في التشابه (لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله) ، وإنما قال : **« وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ »** وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضع . فإن الله أخبر أنه لا يعلم تأويله إلا هو . والوقف هنا . على ما دل عليه أدلة كثيرة ، وعليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمهور التابعين ، وجهابرة الأمة . ولكن لم ينف عنهم بمعناه وتفسيره ، بل قال : **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ^(٢)** . وهذا يعلم الآيات

(١) [١٣ / الرعد / ١٧] ونصها : **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .**

(٢) [٣٨ / ص / ٢٩] ونصها : **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .**

المحكمات والآيات المتشابهات . وما لا يعقل له معنى لا يتدبر ، وقال : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ (١) . ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره . واللهُ ورسوله إنما ذم من اتبع التشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فأما من تدبر المحكم والتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه ، فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه . يبين ذلك أن التأويل ، قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يحيى بن أخطب وغيره من طلب من حروف الهجاء التي في أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة ، كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين موافقة للصائبة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاماً . لأن ذلك هو عدد ما للحروف في حساب الجمل ، بعد إسقاط المكرر . وهذا من نوع تأويل الحوادث التي أخبر بها القرآن في اليوم الآخر . وروى أن من النصارى الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد نجران من تأويل (إنا ونحن) على أن الآلهة ثلاثة . لأن هذا ضمير جمع . وهذا تأويل في الإيمان بالله . فأولئك تأولوا في اليوم الآخر . وهؤلاء تأولوا في الله . ومعلوم أن (إنا ونحن) من التشابه . فإنه يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد الذي معه أعوانه وإن لم يكونوا من جنسه ، ويراد الواحد العظيم نفسه ، الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى . فصار هذا متشابهاً لأن اللفظ واحد ، والمعنى متنوع ، والأسماء المشتركة في اللفظ هي من التشابه ، وبعض المتواطىء أيضاً من التشابه . ويسمى أهل التفسير (الوجوه والنظائر) وصنفوا كتب الوجوه والنظائر . فالوجوه في الأسماء المشتركة ، والنظائر في الأسماء المتواطئة . وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين في ذلك أن الوجوه والنظائر جميعاً في الأسماء المشتركة ، فهي نظائر باعتبار اللفظ ، ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ما قاله ،

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .

و [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] ونصها : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا .

بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله . والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه مثل : وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ^(١) . إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ^(٢) . مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ^(٣) . وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ^(٤) . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ^(٥) . ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليقتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه ، وحرفوا الكلم عن مواضعه . وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التي أخبر عنها . وذلك أن الكلام نوعان : إنشاء فيه الأمر ، وإخبار . فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من قال من السلف : إن السنة هي تأويل الأمر . قالت عائشة رضي الله عنها ^(٦) : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي . يتأول القرآن ، تعنى قوله : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ^(٧) . وأما الإخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع .

(١) [٢ / البقرة / ١٦٣] ونصها : وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ .

(٢) [٢٠ / طه / ١٤] ونصها : إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٩١] ونصها : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ .

(٤) [٢٥ / الفرقان / ٢] ونصها : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا .

(٥) [١١٢ / الإخلاص / ٤٣] .

(٦) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ١٣٩ - باب التسبيح والدعاء في السجود .

(٧) [١١٠ / النصر / ٣] .

ليس تأويله فهم معناه ، وقد جاء اسم التأويل في القرآن في غير موضع . وهذا معناه . قال الله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ (١) فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتميزه بحيث لا يشتبه ، ثم قال : هَلْ يَنْظُرُونَ ، أى ينتظرون ، إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله . إلى آخر الآية . وإنما ذلك مجىء ما أخبر به القرآن بوقوعه من القيامة وأشراتها . كالدابة وأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ومجىء ربك والملك صفا صفا ، وما فى الآخرة من الصحف والموازن والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك . فحينئذ يقولون : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ . وهذا القدر الذى أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته إلا الله . فإن الله يقول : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (٢) . ويقول (٣) : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ، فإن الله قد أخبر أن فى الجنة خمرًا ولبنًا وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك ، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينهما تباين عظيم مع

(١) [٧ / الأعراف / ٥٢ و ٥٣] ونصهما : وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . (٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٣٥ - باب قول الله تعالى : يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ . ونصه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ، قال الله : أعددت .. الخ .

التشابه . كما في قوله : وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا^(١) على أحد القولين أى يشبه ما في الدنيا ، وليس مثله . فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه ، فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصية لاندركها في الدنيا ، ولا سبيل إلى إدراكها لنا لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه ، وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به ، وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم . فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ، ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن . ومن دخل في الإسلام ووافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضرورة لتفهيم النعيم الروحاني ، إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد . وإن كان من مناقدة الملتين القرنين بحشر الأجساد ، تأول ذلك على تفهيم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح العطرة . كل ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته . وكان في هذا أيضاً متبهماً للتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء ، والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها . فهؤلاء يتبعون هذا التشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن يكون في الجنة هذه الحقائق ، وابتغاء تأويله ليردوه إلى المهود الذي يعلمونه في الدنيا ، قال الله تعالى : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، فإن تلك الحقائق قال الله فيها : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ^(٢) ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل . وقوله : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ . إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب أو على التشابه . فإن

- (١) [٢ / البقرة / ٢٥] ونصها : وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ، تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .
- (٢) [٣٢ / السجدة / ١٧] ... جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

كان عائداً على الكتاب لقوله: منه. ومنه: فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، فهذا يصح . فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به ، لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله: وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ* هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ^(١) . فجعل التأويل الجائي الكتاب الفصل ، وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدرأً ونوعاً وحقيقة إلا الله . وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا . وكذلك قوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . وإذا كان التأويل الكتاب كله والمراد به ذلك، ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - إلى قوله - : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ^(٢) . وكذلك قوله : يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا^(٣) . فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به ، فعلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله . وهذا واضح بين ، ولا ينافي كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفسر النصوص المبينة لأحوالها . فهذا هذا .

(١) انظر الهامش رقم ١ ص ٧٥٦ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٨٧] ونصها : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَنَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيفٌ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٦٣] .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه كما يقوله كثير من الناس ، فلا ن الخبر به من الوعد والوعيد متشابه ، بخلاف الأمر والنهي . ولهذا في الآثار : العمل بحكمه والإيمان بمتشابهه . لأن المقصود في الخبر الإيمان . وذلك لأن الخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه . بخلاف الأمر والنهي فإنه متميز غير مشتبّه بغيره ، فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع . وأمور تتركها لا بد أن نتصورها .

ومما جاء من لفظ التأويل في القرآن قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ^(١) والكناية عائدة على القرآن ، أو على ما لم يحيطوا بعلمه ، وهو يعود إلى القرآن . قال تعالى : وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ^(٢) . فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله . وهذه الصيغة تدل على امتناع النفي كقوله : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرْآنَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ^(٣) لأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله . كما تحداهم وطلبهم لما قال : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٤) ، فهذا تعجيز

(١) [١٠ / يونس / ٣٩] ونصها : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

(٢) [١٠ / يونس / ٣٧-٤٠] .

(٣) [١١ / هود / ١١٧] .

(٤) [١٠ / يونس / ٣٨] .

لجميع المخلوقين . قال تعالى : وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ^(١) ، أى مصدق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب ، أى مفصل الكتاب ، فأخبر أنه مصدق الذى بين يديه ومفصل الكتاب . والكتاب اسم جنس . ولما تحدى القائلين : افترأه ، ودل على أنهم هم المفترون ، قال : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . ففرق بين الإحاطة بعلمه ، وبين إتيان تأويله .

فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معانى الكلام على التام ، وإتيان التأويل نفس وقوع الخبر به . وفرق بين معرفة الخبر وبين الخبر به . فمعرفة الخبر هى معرفة تفسير القرآن . ومعرفة الخبر به هى معرفة تأويله . وهذا هو الذى بيناه فيما تقدم .

إن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر به محكمه ومتشابهه ، وإن لم يعلم تأويله . وبين ذلك أن الله يقول عن الكفار : وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ أَنْ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا ^(٢) . فقد أخبر ، ذمًا للمشركين ، أنه إذ قرئ عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور ، وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر . فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوه بعضه لشاركوه في ذلك . وقوله : أَنْ يَفْقَهُوهُ . يعود إلى القرآن كله . فعلم أن الله يحب أن يفقه . ولهذا قال الحسن البصرى : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم في ماذا أنزلت وماذا عنى بها . وما استثنى من ذلك لامتشابهها ولا غيره . وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره مرات

(١) [١٠ / يونس / ٣٧] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ٤٥ و ٤٦] .

أقفه عند كل آية وأسأله عنها. فهذا ابن عباس حبر الأمة، وهو أحد من كان يقول: لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، يجب مجاهداً عن كل آية في القرآن. وهذا هو الذي جعل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل. لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه. فظن أن هذا هو التأويل المنفي عن غير الله. وأصل ذلك أن لفظ التأويل، وبه أشير إلى بين ما عنده الله في القرآن وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين. فبسبب الاشتراك في لفظ (التأويل) اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن.

ومجاهد إمام التفسير، قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وأما التأويل فشأن آخر. وبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله وقال: هذه من التشابه الذي لا يعلم معناه، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين: إن في القرآن آيات لا تعلم معناها ولا يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أهل العلم والإيمان جميعهم. وإنما قد ينفون علم بعض ذلك على بعض الناس، وهذا لا ريب فيه، وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام في آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك. فلقبوها، هل يجوز أن يشتمل القرآن على ما لا يعلم معناه، وما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم؟ فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية، وبأن الله يمتحن عباده بما شاء. ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التي هي تحريف الكلم عن مواضعه. والغالب على كلتا الطائفتين الخطأ. أولئك يقصرون في فهمهم القرآن بمنزلة من قيل فيه: وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ^(١). وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه. ومن المتأخرين من وضع المسألة

(١) [٢ / البقرة / ٧٨] .

بلقب شنيع فقال : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعنى به شيئاً ، خلافاً للحشوية . وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له ؛ وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه . وبين نفى المعنى عند المتكلم ، ونفى الفهم عند المخاطب ، بون عظيم . ثم احتج بما لا يجرى على أصله ، فقال : هذا عبث ، والعبث على الله محال ، وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً ، بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول العبث صفة نقص ، فهو منتف عنه ، لأن النزاع في الحروف ، وهى عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا تقل صريح ، ولا عقل صحيح .

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم أن مدعى التأويل أخطؤوا في زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل ، وفي دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذى هو تحريف الكلام عن مواضعه . فإن الأولين ، لعلمهم بالقرآن والسنن ، وصحة عقولهم ، وعلمهم بكلام السلف ، وكلام العرب ، علموا يقيناً أن التأويل الذى يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن . فإنهم حرفوا الكلام عن مواضعه ، وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون للأخبار والأوامر . وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء . وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر وفي آيات القدر ، ويتأولون آيات الصفات . وقد وافقهم بعض متأخرى الأشعرية على ما جاء في بعض الصفات ، وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الآخر . وآخرون من أصناف الأمة ، وإن كان يغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلام عن مواضعه . والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة ، وأكثر أهل الكلام والبدع ، رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معانى القرآن . ورأوا عجزاً وعبثاً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرؤونه ويتلونه وهم لا يفهمونه . وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل ، لكن أخطؤوا في معنى التأويل الذى نفاه الله ، وفي التأويل الذى أثبتوه وتسلق بذلك

مبتدعتهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من الجهل ، وصار الآخرون أكثر كلاماً وجدالاً ، ولكن بفرية على الله ، وقول عليه مالا يعلمونه ، وإلحاد في أسمائه وآياته . فهذا هذا .

ومنشأ الشبهة الاشتراك في لفظ التأويل . فإن التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثه والتصوف ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترب به ، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحد منهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول ، أو هو محمول على كذا ، قال الآخر : هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل . والتأويل عليه وظيفتان : يبان احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعاه ، ويبان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر ، وهذا هو التأويل الذى يتنازعون فيه في مسائل الصفات ، إذا صنف بعضهم في إبطال التأويل ، أو ذم التأويل ، أو قال بعضهم : آيات الصفات لا تؤول ، وقال الآخر : بل يجب تأويلها ، وقال الثالث : بل التأويل جائز بفعل عند المصلحة ، ويترك عند المصلحة ، أو يصح للعلماء دون غيرهم ، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان :

أحدهما - تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا - والله أعلم - هو الذى عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله . ومحمد بن جرير الطبرى يقول في تفسيره : القول في تأويل قوله كذا وكذا . واختلف أهل التأويل في هذه الآية . ونحو ذلك ، ومراده التفسير .

والمعنى الثانى - فى لفظ السلف وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً هو نفس المراد بالكلام . فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب . وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به . وبين هذا المعنى والذى قبله بون . فإن الذى قبله يكون التأويل

فيه من باب العلم ، والكلام كالتفسير والشرح والإيضاح . ويكون وجود التأويل في القلب واللسان، له الوجود الذهني واللفظي والرمزي . وأما هذا، فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج ، سواء كانت ماضية أو مستقبلية . فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا نفس طلوعها . وهذا الوضع والعرف . الثالث هو لغة القرآن التي نزل بها ، وقد قدمنا التبيين في ذلك . ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف: وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ^(١) . وقوله : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ* قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا لَا نَبَأُ تَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ^(٢) . وقول الملائكة: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ^(٣) . وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ^(٤) . وقول يوسف لما دخلوا عليه مصر وآوى إليه أبويه وقال : ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ^(٥) .

(١) [١٢ / يوسف / ٦] ونصها : وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

(٢) [١٢ / يوسف / ٣٦ و ٣٧] ... قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

(٣) [١٢ / يوسف / ٤٤] .

(٤) [١٢ / يوسف / ٤٥] .

(٥) [١٢ / يوسف / ٩٩] ونصها : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ
قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا^(١) .

فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تؤول إليه، كما قال يوسف :
هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ^(١) . والعالم بتأويلها الذي يخبر به ، كما قال
يوسف : لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ . أَى فِي الْمَنَامِ . إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ
يَأْتِيَكُمَا . أَى قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا التَّأْوِيلُ . وقال الله تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ
إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا^(٢)
قالوا : أحسن عاقبة ومصيراً ، فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة،
والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا ، والتأويل في الأعراف ويونس تأويل القرآن ،
وكذلك في سورة آل عمران . وقال تعالى في قصة موسى والعالم : قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا^(٣) . إلى قوله : وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ
أَمْرِي، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا^(٤) . فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٠] ... وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم
مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ،
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

(٢) [٤ / النساء / ٥٩] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ...

(٣) [١٨ / الكهف / ٧٨] .

(٤) [١٨ / الكهف / ٨٢] ونصها : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي
الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ...

من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار . فهو تأويل عمل ، لا تأويل قول ، وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلاً ، مثل حوّل تحويلاً ، وعول تعويلاً . و (أول يؤول) تعديّة (آل يؤول أولًا) ، مثل حال يحول حوّلًا ، وقولهم (آل يؤول) أى عاد إلى كذا ورجع إليه ، ومنه المآل ، وهو ما يؤول إليه الشيء . ويشاركه في الاشتقاق الموثل ، فإنه وآل ، وهذا من أول ، والموثل المرجع ، قال تعالى : وَلَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا . ومما يوافقه في اشتقاقه الأصغر الآل ، فإن آل الشخص من يؤول إليه ، ولهذا لا يستعمل إلا في عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه يصلح أن يؤول إليه الآل . كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون . بخلاف الأهل . والأول أفعل ، لأنهم قالوا في تأنيته أولى ، كما قالوا جمادى الأولى ، وفي القصص : وله الحمد في الأولى والآخرة . ومن الناس من يقول فوعل ويقول (أولة) إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب ، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل ، فإن فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف . سمي المتقدم أول - والله أعلم - لأن ما بعده يؤول إليه ويبنى عليه ، فهو أس لما بعده وقاعدة له . والصيغة صيغة تفضيل مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى لا من باب أحر وأحمر ، ولهذا يقولون : جئته أول من أمس وقال : مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ^(١) . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ^(٢) . وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ^(٣) .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٨] ونصها : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٦٣] ونصها : لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٤١] ونصها : وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ .

ومثل هذا أول هؤلاء ، فهذا الذى فضل عليهم فى الأول ، لأن كل واحد يرجع إلى ما قبله ، فيعتمد عليه ، وهذا السابق ، كلهم يؤول إليه . فإن من تقدم فى فعل ، فاستبق به من بعده ، كان السابق الذى يؤول الكل إليه . فالأول له وصف السؤدد والاتباع . ولفظ الأول مشعر بالرجوع والعود . والأول مشعر بالابتداء ، والمبتدى خلاف العائد . لأنه إنما كان أولاً لما بعده ، فإنه يقال (أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) ، و (أَوَّلُ يَوْمٍ) ، فما فيه من معنى الرجوع والعود ، هو للمضاف إليه لا للمضاف . وإذا قلنا: آل فلان فالعود فى المضاف . لأن ذلك صيغة تفضيل فى كونه مآلاً ومرجعاً لغيره . لأن كونه مفضلاً دل على أنه مآل ومرجع ، لا آيل راجع . إذ لا فضل فى كون الشيء راجعاً إلى غيره ، آيلاً إليه ، وإنما الفضل فى كونه هو الذى يرجع إليه ويؤال . فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل فى كونه مآلاً ومرجعاً ، والتفضيل المطلق فى ذلك يقتضى أن يكون هو السابق المبتدى . والله أعلم .

فتأويل الكلام مأوله إليه المتكلم أو ما يؤول إليه الكلام أو ماتأوله المتكلم . فإن التفعيل يجرى على غير فعل كقوله : وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا^(١) ، فيجوز أن يقال تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلاً ، والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل . كعدل وصوم وفطر ، وبمعنى المفعول كدبرهم ضرب الأمير ، وهذا خلق الله . فالتأويل هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه ، أو تأول هو إليه . والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول ويؤول إلى حقيقته التى هى عين المقصود به ، كما قال بعض السلف فى قوله : لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ^(٢) . قال : حقيقة . فإن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع ، بل كان كذباً . وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإلا لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلًا ، ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً

(١) [٧٣ / الزمل / ٨] ونصها : وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٧] .

فإلى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول. كما روى عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا^(١). قال: إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد .

فصل

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في التشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك هو التشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم ، وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول - من قال إن هذا من التشابه وأنه لا يفهم معناه . ما الدليل على ذلك ؟ فإنى ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة ، لا أحمد بن حنبل ولا غيره ، أنه جعل ذلك من التشابه الداخل في هذه الآية ، ونفى أن يعلم أحد معناه ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم . ولا قالوا إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه . وإنما قالوا: كلمات لها معان صحيحة . قالوا في أحاديث الصفات : تمرّ كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات الجهمية وردّها وأبطالوها . التي مضمونها تعطيل النصوص على مادلت عليه . ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على مادلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض مادلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك . وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات : تمر كما جاءت في

(١) [٦ / الأنعام / ٦٥] ... وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ .

أحاديث الوعد . مثل : من غشنا فليس منا^(١) . وأحاديث الفضائل . ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كله عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلًا ، بالعرف التأخير . فتأويل هؤلاء التأخرين عند الأئمة تحريف باطل . وكذلك نص أحمد في كتاب الرد على الزنادقة الجهمية أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن . وتكلم أحمد على ذلك المتشابه ، وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله . فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره . بل يبين ويفسر . فاتفق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه أو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب ، أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدون ، والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره . فلو قيل : إن هذا هو التأويل المذكور في الآية ، وأنه لا يعلمه إلا الله ، لكان في هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلًا يخالف دلالتها ، لكن ذلك لا يعلمه إلا الله . وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفي هذه التأويلات وردّها ، لا التوقف عنها . وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعاني . لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه ، أن نقول : لا ريب أن الله سمي نفسه في القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزیز والجبار والعليم والقدير والرؤوف ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل سورة الإخلاص وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر ، وقوله : إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، و : عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، و : إِنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، و : الْمُقْسِطِينَ ، و : الْمُحْسِنِينَ ، وأنه : يَرْضَىٰ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٦٤ ونصه : عن أبي هريرة أن

رسول الله ﷺ قال « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » .

و: لَمَّا ءَاسَفُونَا اِنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ^(١). ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ^(٢). وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ^(٣). الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى^(٤). ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ^(٥). يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ^(٦). وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ^(٧). إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ^(٨). إِنِّى مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ^(٩).

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٥] .

(٢) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٨] ونصها : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .

(٣) [٩ / التوبة / ٤٦] ونصها : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] ونصها : إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

(٦) [٥٧ / الحديد / ٤] ونصها : هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

(٧) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] .

(٨) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ .

(٩) [٢٠ / طه / ٤٦] ونصها : قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنِّى مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ^(١) . مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ^(٢) .
بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ^(٣) . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(٤) .
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ^(٥) . وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي^(٦) . إلى أمثال ذلك . فيقال لمن ادعى في هذا أنه
متشابه لا يعلم معناه : أقول هذا في جميع ما سمي الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟ فإن
قلت هذا في الجميع كان هذا عناداً ظاهراً ، وجحداً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ،
بل كفر صريح . فإننا نفهم من قوله : إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، معنى . ونفهم من قوله :

(١) [٦ / الأنعام / ٣] ... يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

(٢) [٣٨ / ص / ٧٥] ونصها : قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ
بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٣) [٥ / المائدة / ٦٤] ونصها : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ
وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُفْسِدِينَ .

(٤) [٥٥ / الرحمن / ٢٧] .

(٥) [١٨ / الكهف / ٢٨] ونصها : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا
تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا .

(٦) [٢٠ طه / ٣٩] ونصها : أَنْ أَقْدِفَ فِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفَ فِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ
الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ
عَلَى عَيْنِي .

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، معنى ليس هو الأول . ونفهم من قوله : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ^(١) . معنى . ونفهم من قوله : إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ^(٢) ، معنى . وصبيان المسلمين ، بل وكل عاقل يفهم هذا .

وقد رأيت بعض من ابتدع وجحد من أهل المغرب مع انتسابه إلى الحديث ، لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة ، من يقول : إنا نسمى الله الرحمن الرحيم العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك في قوله : وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ . يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم . وهذا الغلو في الظاهر ، من جنس غلو القرامطة في الباطن . لكن هذا أليس وذاك أ كفر .

ثم يقال لهذا المعاند : فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود ، أو على حق موجود ، أم لا؟ فإن قال : لا ، كان معطلاً محضاً . وما أعلم مسلماً يقول هذا . وإن قال : نعم قيل له : فهل فهمت منها دلالتها على نفس الرب ، ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعاني من الرحمة والعلم ، وكلاهما في الدلالة سواء؟ فلا بد أن يقول : لأن ثبوت الصفات محال في العقل ، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث . بخلاف الذات . فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثاني كما سندكره . وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض . فيقال له : ما الفرق بين ما أثبتته وبين ما نفيتة أو سكنت عن إثباته ونفيه؟ فإن الفرق إما أن يكون من جهة السمع ، لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة ، بخلاف الآخر . أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر ، وكلا الوجهين

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا يُدْعَىٰ إِلَيْكَ ، قَالَ عَدَا بِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] ونصها : فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعْدَهُ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ .

باطل في أكثر المواضع ، أما الأول فدلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير على عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص . وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته . وأما الثاني فيقال لمن أثبت شيئاً ونفى آخر : لم نفيت ، مثلاً ، حقيقة رحمته ومحبته وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة في حقنا هي رقة تمتنع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة في حقنا هي ميل يمتنع على الله . فإن قال : إرادته ليست من جنس إرادة خلقه . قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه . وكذلك محبته . وإن قال (وهو حقيقة قوله) : لم أثبت الإرادة وغيرها بالسمع ، وإنما أثبت العلم والقدرة والإرادة بالعقل . وكذلك السمع والبصر والكلام على إحدى الطريقتين . لأن الفعل دل على القدرة ، والإحكام دل على العلم . والتخصيص دل على الإرادة . قيل له : الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها - أن الإنعام والإحسان وكشف الضر دل أيضاً على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة والتقريب والإيداء . وأنواع التخصيص التي لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة ، أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة . وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص ، والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقريب خاص ، وما سلكه في مسلك الإرادة يسلك في مثل هذا .

الثاني - يقال له : هب أن العقل لا يدل على هذا ، فإنه لا ينفيه إلا بمثل ما ينفي به الإرادة ، والسمع دليل مستقل بنفسه ، بل الطمأنينة إليه في هذه المضائق أعظم ، ودلالته أتم ، فلا شيء نفيت مدلوله أو توقفت وأعدت هذه الصفات كلها إلى الإرادة ؟ مع أن النصوص تفرق . فلا يذكر حجة إلا عورض بمثلها في إثباته الإرادة زيادة على الفعل .

الثالث - يقال له : إذا قال لك الجهمي : الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه ، أو نفس الفعل والأمربه ، وزعم أن إثبات إرادة تقتضي محذوراً إن قال بقدمها ، ومحذوراً إن قال بحدوثها .

وهنا اضطربت المعتزلة . فإنهم لا يقولون بإرادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم . ولا يقولون بتجدد صفة له ، لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم . مع تناقضهم .

فصاروا حزينين :

البغداديون - وهم أشد غلوّاً في البدعة في الصفات وفي القدر ، نفوا حقيقة الإرادة . وقال الجاحظ : لا معنى لها إلا عدم الإكراه . وقال الكعبي : لا معنى لها إلا نفس الفعل ، إذا تعلق بفعله ، ونفس الأمر إذا تعلق بطاعة عباده .

البصريون - كأبي عليّ وأبي هاشم . قالوا : تحدث إرادة لافي محل ، فلا إرادة . فالتزموا حدوث حدث غير مراد وقيام صفة بغير محل ، وكلاهما عند العقل معلوم الفساد بالبديهة . كان جوابه : أن ما ادعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها ، والفعل أيضاً . فإذا أخذ الخصم ينازع في دلالة النص أو العقل ، جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود في الرحمة والمحبة ، فإن خصومه ينازعونه في دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعي .

ثم يقال لخصومه : بم أثبتتم أنه عليم قدير ؟ فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة ، وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله في العليم والقدير ، وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعاني ، وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار ، كان الجواب مقررناه في غير هذا الموضع ، فإن ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضياً حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفي به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ، ويُلزَمُون بوجود الرب الخالق المعلوم بالضرورة العقلية ، والضرورة العقلية ، واتفاق الأمم ، وغير ذلك من الدلائل . ثم يطالبون بوجود من جنس مانعهده ، أو بوجود يعلمون كيفيته ، فلا بد أن يفروا إلى إثبات ما لا تشبه حقيقته الحقائق . فالقول في سائر ما سمي ووصف به نفسه ، كالقول في نفسه سبحانه وتعالى .

ونكتة هذا الكلام أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب والسنة ، لا بد أن يثبت الشيء لقيام مقتضى ، وانتفاء المانع . وينفى الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن عنده مقتضى ولا مانع ، فيُبين له أن المقتضى فيما نفاء قائم ، كما أنه فيما أثبتته قائم . إما من كل وجه ، أو من وجه يجب به الإثبات . فإن كان المقتضى هناك حقاً ، فكذلك هنا . وإلا فدرء ذلك المقتضى من جنس درء هذا . وأما المانع فيبين أن المانع الذى تخيله فيما نفاء من جنس المانع الذى تخيله فيما أثبتته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجوداً على التقديرين لم ينج من محذوره بإثبات أحدهما ونفى الآخر ، فإنه إن كان حقاً نفاهاً ، وإن كان باطلاً لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوى بين الأمرين فى الإثبات والنفى ، ولا سبيل إلى النفى فتعين الإثبات . فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئاً . وما من أحد إلا ولا بد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته ، فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التى يدعى أنها موجبة النفى خيالات غير صحيحة ، وإن لم يعرف فسادها على التفصيل ، وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غيره مرة .

فإن قال مَنْ أثبت هذه الصفات التى هى فىنا أعراض كالْحياة والعلم والقدرة ، ولم يثبت ما هو فيها أبعاد كاليد والقدم : هذه أجزاء وأبعاد تستلزم التركيب والتجسيم . قيل له : وتلك أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلى كما استلزمت هذه عندك التركيب الحسى . فإن أثبت تلك على وجه لا تكون أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها ، قيل له : وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاداً أو تسميتها تركيباً وأبعاداً لا يمنع ثبوتها .

فإن قال : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء ، قيل له : وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض . فإن قال : العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية ، قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلك فى حق الله محال . ففارقة الصفات القديمة مستحيلة فى حق الله تعالى مطلقاً ، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

فإن قال : ذلك تجسيم والتجسيم منتف ، قيل : وهذا تجسيم والتجسيم منتف .
 فإن قال : أنا أعقل صفة ليست عرضاً بغير متحيز ، وإن لم يكن له في الشاهد نظير ،
 قيل له : فاعقل صفة هي لنا بعض لغير متحيز وإن لم يكن له في الشاهد نظير . فإن نفى عقل
 هذا نفى عقل ذاك ، وإن كان بينهما نوع فرق ، لكنه فرق غير مؤثر في موضع النزاع .
 ولهذا كانت العطفة الجهمية تنفي الجميع لكن ذاك أيضاً مستلزم لنفي الذات ، ومن أثبت هذه
 الصفات الخبرية من نظير هؤلاء ، صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا أيضاً ليس
 هو معقول النص ، ولا مدلول العقل ، وإنما الضرورة ألجأتهم إلى هذه المضايق .

وأصل ذلك أنهم أتوا بألفاظ ليست في الكتاب ولا في السنة ، وهي ألفاظ مجملة . مثل
 متحيز ومحدد وجسم ومركب ، ونحو ذلك ، ونفوا مدلولها ، وجعلوا ذلك مقدمة بينهم
 مسلمة ، ومدلولاً عليها بنوع قياس ، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلكوه في إثبات
 حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء ، فوجب
 طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل ، إذ الدليل القطعي لا يقبل الترك
 لمعارض راجح ، فأروا ذلك يعكس عليهم من جهة النصوص ومن جهة العقل من ناحية
 أخرى ، فصاروا أحزاباً ، تارة يغلبون القياس الأول ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة ، وتارة
 يغلبون القياس الثاني ويدفعون الأول كهشام بن الحكم الرافضي ، فإنه قد قيل : أول ما
 تُكلم في الجسم نفياً وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم وأبي الهذيل العلاف ، فإن أبا الهذيل
 ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس وعارضهم هشام وأثبت الجسم
 لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة ثبوته ، واعتقد هذا إحالة نفيه ، وتارة يجمعون
 بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض .

فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة
 إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ، ويوجب ما أحال نظيره ، إذ كلامهم من

عند غير الله ، وقد قال الله تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا^(١) .

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع في ذلك سبل السلف الماضين ، أهل العلم والإيمان . والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه . ولا يعرض عنها ، فيكون من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم ينخروا عليها صماً وعمياناً . ولا يترك تدبر القرآن ، فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى . فهذا أحد الوجهين . وهو منع أن تكون هذه من التشابه .

الوجه الثاني : أنه إذا قيل هذه من التشابه ، أو كان فيها ما هو من التشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمي بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال : الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله ، إما التشابه ، وإما الكتاب كله كما تقدم . ونفى علم تأويله ليس نفي علم معناه كما قدمناه

في القيامة وأمور القيامة . وهذا الوجه قوى إن ثبت حديث ابن إسحق في وفد نجران ، أنهم احتجوا على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « إنا ونحن » ونحو ذلك ، ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن في القرآن متشابهاً ، وهو ما يحتمل معنيين ، وفي مسائل الصفات ما هو من هذا الباب ، كما أن ذلك في مسائل المعاد وأولى ، فإن نفي التشابه بين الله وبين خلقه أعظم من نفي التشابه بين موعود الجنة وموجود الدنيا ، وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفي علم التأويل ليس نفيًا لعلم المعنى ، وزيده تقريراً أن الله سبحانه يقول : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ^(٢) وقال

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ

غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٢٧ و ٢٨] .

تعالى : آلَ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ^(١) فأخبر أنه أنزله ليعقلوه ، وأنه طلب تذكرهم . وقال أيضاً : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ^(٢) فحُض على تدبره وفقهه وعقله والتذكير به والتفكير فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً . بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه ، مثل قوله : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْهَالًا ^(٣) وقوله : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ^(٤) ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله ، وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر . وقال على عليه السلام ^(٥) لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا ! والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه وما في هذه الصحيفة ، فأخبر أن الفهم فيه مختلف في الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعالى : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ،

(١) [١٢ / يوسف / ٢١] .

(٢) [٥٩ / الحشر / ٢١] وأولها : لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ،

(٣) [٤٧ / محمد ﷺ / ٢٤] .

(٤) [٤ / النساء / ٨٢] .

(٥) أخرجه البخاري في : ٨٧ - كتاب الديات ، ٢٤ - باب العاقلة . ونصه :

عن أبي جُحَيْفَةَ قال : سألت علياً رضي الله عنه : هل عندكم شيء ما ليس في القرآن ؟ (وقال مرة : ليس عند الناس) فقال : والذي فلق الحب وبرأ النسمة ! ما عندنا إلا ما في القرآن ، إلا فهماً يُعْطَى رجل في كتابه . وما في الصحيفة . قلت : وما في الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر .

وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا^(١) . وقال النبي ﷺ^(٢) : رب مبلغ أوعى من سامع ، وقال^(٣) : بلغوا عني ولو آية . وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن ، آيات الصفات وغيرها . وفسروها بما يوافق دلالتها . ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن . وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم . مثل عبد الله ابن مسعود الذي كان يقول : لو أعلم أعلم بكتاب الله مني تبلغه آباط الإبل لأتيته .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧٩] ونصها : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٢٥ - كتاب الحج ، ١٣٢ - باب الخطبة أيام منى . ونصه : عن أبي بكرة رضى الله عنه قال : خطبنا النبي ﷺ يوم النحر . قال « أتدرون أى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى . قال « أى شهر هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال « أليس ذو الحجة ؟ » قلنا : بلى . قال « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال « أليست بالبلدة الحرام ؟ » قلنا : بلى . قال « فإن دماءكم وأموالكم على حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم . ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم . قال « اللهم ! اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب . فرب مبلغ أوعى من سامع . فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ونصه :

عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي ﷺ وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبي ﷺ . ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا ، وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين ، بل وثالثهما في عليّة التابعين من جنسهم أو قريب منهم جلالةً ، أصحاب زيد بن ثابت ، لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل عمر ، وابن عمر ، وابن عباس . ولو كان معاني هذه الآيات منفيّاً أو مسكوتاً عنه، لم يكن ربانيّو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاماً فيه . ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا : عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل . وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا شيئاً من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية . كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ، كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك ربعة قبله . وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول . فليس في أهل السنة من ينكره . وقد بين أن الاستواء معلوم ، كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ، ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال : كيف استوى ؟ ولم يقل مالك : الكيف معدوم ، وإنما قال : الكيف مجهول . وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، غير أن أكثرهم يقولون : لا تحظر كيفيته بيال ، ولا تجرى ماهيته في مقال . ومنهم من يقول : ليس له كيفية ولا ماهية . فإن قيل : معنى قوله (الاستواء معلوم) أن ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه ، قيل : هذا ضعيف ، فإن هذا

من باب تحصيل الحاصل ، فإن السائل قد علم أن هذا موجود في القرآن ، وقد تلا الآية ، وأيضاً فلم يقل ذكر الاستواء في القرآن ، ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال : الاستواء معلوم ، فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، لم يخبر عن الجملة . وأيضاً فإنه قال : والكيف مجهول ، ولو أراد ذلك لقال معنى الاستواء مجهول ، أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم ، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء ، لا العلم بنفس الاستواء ، وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه . لو قال في قوله : إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى^(١) ، كيف يسمع وكيف يرى ؟ قلنا : السمع والرؤية معلوم ، والكيف مجهول . ولو قال : كيف كلم موسى تكليماً ؟ قلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم . وأيضاً فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأن ذاته فوق ذات العرش ، لا ينكرون معنى الاستواء ، ولا يرون هذا من التشابه الذي لا يعلم معناه بالكلية . ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة . قال بعضهم : ارتفع على العرش : علا على العرش . وقال بعضهم عبارات أخرى . وهذه ثابتة عن السلف . وقد ذكر البخاري في صحيحه بعضها في آخره ، في (كتاب الرد على الجهمية)^(٢) .

وأما التأويلات المحرفة مثل استولى وغير ذلك ، فهي من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية . وأيضاً قد ثبت أن اتباع التشابه ليس في خصوص الصفات ، بل في صحيح البخاري^(٣)

(١) [٢٠ / طه / ٤٦] وأولها : قَالَ لَا تَخَافَا ،

(٢) كتاب الرد على الجهمية من صحيح البخاري هو : ٩٧ - كتاب التوحيد .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١ - باب مِنْهُ

ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، ونصه :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ =

أن النبي ﷺ قال لعائشة : يا عائشة ! إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابهه منه ، فأولئك الذين سمي الله ، فاحذريهم ، وهذا عام . وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا^(١) ، فإنه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن ، حتى رآه عمر ، فسأل عمر عن : الدَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا^(٢) فقال : ما اسمك ؟ قال : عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبد الله عمر ، وضربه الضرب الشديد . وكان ابن عباس إذا ألحَّ عليه رجل في مسألة من هذا الجنس يقول : ما أحوجك أن يُصنع بك كما صنع عمر بصبيغ . وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام^(٣) : إذا رأيت الذين يتبعون ماتشابهه منه . وكما قال تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، فعاقبهم على هذا القصد الفاسد ، كالذي يعارض بين آيات القرآن . وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال^(٤) : لا تضربوا كتاب الله ببعضه ببعض فإن ذلك يوقع الشك في قلوبهم

= زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ - إلى قوله : أولوا الألباب . قالت : قال رسول الله ﷺ « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذي سمي الله فاحذروهم » .

(١) انظر الحاشية رقم ٢ بالصفحة ٩٩ من الجزء الأول ، ففيها تفصيل ذلك .

(٢) [٥١ / الداريات / ١] .

(٣) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٧٨١ .

(٤) أخرجه ابن ماجة في : المقدمة ، ١٠ - باب في القدر ، حديث ٨٥ (طبعنا) ونصه :

عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر ، فكأنما يفتقأ في وجهه حب الرمان ، من الغضب . فقال « بهذا أمركم أو لهذا خلقتكم ؟ تضربون القرآن ببعضه ببعض ، بهذا هلك الأمم قبلكم » .

قال فقال عبد الله بن عمرو : ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ =

ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذى لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ، ومطلوبهم متعذراً ، مثل أغلوطات المسائل التى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها^(١) . ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن صبيغاً سأل عمر عن الذاريات وليست من الصفات . وقد تكلم الصحابة فى تفسيرها مثل على بن أبى طالب مع ابن الكواء لما سأله عنها ، كره سؤاله ، لما رآه من قصده . لكن على كان رعيته ملتوية عليه ، لم يكن مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه . والذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات فيها اشتباه ، لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس فى اللفظ ذكر الموصوف . والتأويل الذى لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر . وكذلك فى الجاريات والمقسمات ، فهذا لا يعلمه إلا الله تعالى . وكذلك فى قوله « إنا ونحن » ونحوها من أسماء الله التى فيها معنى الجمع كما اتبعته النصارى ، فإن معناه معلوم وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعانى بمنزلة الأسماء المتعددة ، مثل العليم والقدير والسميع والبصير ، فإن المسمى واحد ، ومعانى الأسماء متعددة ، فهكذا الاسم الذى لفظه الجمع . وأما التأويل الذى اختص الله به ، فحقيقة ذاته وصفاته ، كما قال مالك : والكيف مجهول فإذا قالوا : ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره؟ قيل : هذا هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله . وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله .

= ما غبطت نفسى بذلك المجلس وتخلفى عنه .

قال فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي)

ونصه :

عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : نهى رسول الله ﷺ عن الغلوطات .

قال الأوزاعي : الغلوطات شداد المسائل وصعابها .

فإن قيل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس^(١) : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل . قيل : أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل المعهود ، لم يقل تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله . وهذا كقوله : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ^(٢) وقوله : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ^(٣) فإن المراد تأويل الخبر الذي فيه عن المستقبل ، فإنه هو الذي ينتظر ويأتي ، ولما يأتهم . وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر ، وتأويل الخبر عن الله وعن مضي إن أدخل في التأويل لا ينتظر ، والله سبحانه أعلم وبه التوفيق . انتهى كلام الشيخ تقي الدين . وإنما سقته بطوله لما أن هذا البحث من المارك المهمة التي قل من حررها ونهج فيها منهج الحق كالشيخ قدس سره . مع ما في خلال البحث من القواعد الجلية في فن التفسير . نغذا ما أوتيت وكن من الشاكرين . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

(١) أخرجه ابن ماجة في : المقدمة ، ١١ - باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث ١٦٦ (طبعنا) ونصه : عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ﷺ . وقال « اللهم ! علمه الحكمة وتأويل الكتاب » .

(٢) [٧ / الأعراف / ٥٣] ونصها : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(٣) [١٠ / يونس / ٣٩] ونصها : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

وقال الإمام الجليل أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني في كتاب « إيثار الحق على الخلق »
في بحث سبب الاختلاف الشديد بين الفرق مانصه :
وأما الأصل الثاني وهو السميّ فهو اختلافهم في أمرين :
أحدهما - في معرفة الحكم والمتشابه أنفسهما والتمييز بينهما حتى يردّ التشابه إلى الحكم ،
وثانيهما - اختلافهم هل يعلمون تأويل المتشابه ، ثم اختلافهم في تأويله على تسليم أنهم
قد عرفوا المتشابه .

ولند كر سبب وقوع التشابه على العقول من حيث الحكمة والدقة في كتب الله تعالى أولاً ،
والمشهور أن سببه الابتلاء بالزيادة في مشقة التكليف لتعظيم الثواب ، وهذا أنسب بالتشابه
من حيث اللفظ . وأما أنا فوقع لي أن سببه زيادة علم الله على علم الخلق ، فإن العوائد
التجريبية ، والأدلة السمعية ، دلت على امتناع الاتفاق في تفاصيل الحكم ، وتفاصيل التحسين
والتقبيح ، ولذلك وقع الاختلاف بين أهل العصمة من الملائكة والأنبياء ، كما قال تعالى
حاكياً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله : مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ
يَخْتَصِمُونَ ^(١) وحكى الله تعالى اختلاف سليمان وداود ، وموسى وهرون ، وموسى
والخضر . وصح في الحديث ^(٢) اختلاف موسى وآدم ، واختلاف الملائكة في حكم قاتل

(١) [٣٨ / ص / ٦٩] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٣١ - باب وفاة موسى وذكره بعد ،

حديث ١٦٠٤ ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى . فقال له موسى : أنت
آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته
وبكلامه ثم تلومني على أمرٍ قدّر عليّ قبل أن أخلق ؟ » فقال رسول الله ﷺ « فحج آدم
موسى » مرتين .

المثة نفس^(١) ، إلى أمثال لذلك قد أفردتها لبيان امتناع الاتفاق في نحو ذلك ، وإن علة الاختلاف التفاصيل في العلم ، فوجب من ذلك أن يسكون في أحكام الله تعالى وحكمه ما تستقبجه عقول البشر ، لأن الله تعالى لو ماثلنا في جميع الأحكام والحكم دل على مماثلته لنا في العلم المتعلق بذلك وفي مؤداه ولطائفه وأصوله وفروعه ، ولذلك تجد الأمثال والنظراء في العلوم أقل اختلافاً ، خصوصاً من المقلدين . وإنما عظم الاختلاف بين الخضر وموسى لما خص به الخضر عليهما السلام . وهذه فائدة نفيسة جداً ، وبها يكون ورود التشابه أدل على الله تعالى وعلى صدق أنبيائه ، لأن الكذابين إنما يأتون بما يوافق الطباع ، كما هو دين القرامطة والزنادقة . وقد أشار السمع إلى ذلك بقوله تعالى : وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^(٢) . وقال في رسول الله ﷺ : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ^(٣) . وكيف يستنكر اختلاف الإنسان الظلوم الجهول وعلام الغيوب الذي جمع معارف

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٤ - باب حدثنا أبو اليمان ،

حديث ١٦٢٩ ونصه :

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً . ثم خرج يسأل . فأتى راهباً فسأله . فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا . فقتله . فجعل يسأل . فقال له رجل : أتت قرية كذا وكذا . فأدركه الموت . فناء بصدرة نحوها . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فأوحى الله إلى هذه : أن تقرّبي . وأوحى الله إلى هذه : أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما . فوجد إلى هذه أقرب بشبر . ففقر له » .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١] ونصها : وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ .

(٣) [٤٩ / الحجرات / ٧] ونصها : وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ =

العارفين في علمه مثل ما أخذ العصفور في منقاره من البحر الأعظم؟ بل كيف لا يختص هذا الرب الأعظم بمعرفة ما لا نعرفه من الحكم اللطيفة التي يستلزم تفرد بمعرفتها أن يتفرد بمعرفة حسن ما تعلقت به وتأويله ، وبهذا ينشرح صدر العارف للإيمان بالمتشابه ، والإيمان بالغيب في تأويله . ولنذكر بعد هذا كل واحد من الأمرين المقدم ذكرهما على الإيجاز .

أما الأمر الأول - وهو اختلافهم في ماهيتهما . ففهم من قال : المحكم ما لا يحتمل إلا معنى واحداً ، والمتشابه ما احتمل أكثر من معنى . فهؤلاء رجعوا بالمحكم إلى النص الجلي ، وما عداه متشابه . وعزاه الإمام يحيى إلى أكثر المتكلمين وطوائف من الحشوية . ومنهم من قال : المحكم ما كان إلى معرفته سبيل ، والمتشابه ما لا سبيل إلى معرفته بحال ، نحو قيام الساعة والحكمة في العدد المخصوص في حملة العرش ، وخزنة النار . ومنهم من قصر التشابه على آيات مخصوصة . ثم اختلفوا ، فهم من قال : هي الحروف القطعة في أوائل السور ، ومنهم من قال آيات الشقاوة والسعادة ، ومنهم من قال : المنسوخ ، ومنهم من قال : القصص والأمثال ، ومنهم عكس فقال : المحكم آيات مخصوصة ، وهي آيات الحلال والحرام وما عداها متشابه ، إلى غير ذلك - حكى الجميع الإمام يحيى في (الحاوي) - واختار أن المحكم ما علم المراد بظاهره بدليل عقلي أو نقلي ، والمتشابه به ما لم يعلم المراد منه لا على قرب ولا على بعد ، مثل قيام الساعة والأعداد المبهمة . وقد ترك الإمام والشيخ ابن تيمية وجهاً آخر من التشابه الذي يحتاج إلى التأويل مما لا يعلمه إلا الله على الصحيح ، وذلك وجه المحكم المعينة فيما لا تعرف العقول وجه حسنه ، مثل خلق أهل النار ، وترجيح عذابهم على العفو مع سبق العلم وسعة الرحمة وكمال القدرة على كل شيء ، والدليل على أن الحكمة الخفية فيه تسمى تأويلاً له ، ما ذكره الله تعالى في قصة موسى والخضر ، فإن قوله : سَأَنْبِئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا كَمْ = يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

تَسْتَطِيعُ عَلَيْهِ صَبْرًا^(١) صريح في ذلك ، وهذا مراد في الآية ، لأن الله وصف الذين في قلوبهم زيغ بابتغائهم تأويله وذمهم بذلك ، وهم لا يبتغون علم العاقبة ، عاقبة الخبر عن الوعد والوعيد ، وما يؤول إليه ، على ما فسرهُ الشيخ ، فهم لا يبتغون الجنة والنار والقيامة وذات الرب سبحانه كما يبغيها طالب العيان ، إنما يستقبحون شيئاً من الظواهر بعقولهم فيتكلفون لها معاني كثيرة يختلفون فيها ، وكل منهم يتفرد بمعنى من غير حجة صحيحة إلا بمجرد الاحتمال ، وربما خالف ذلك التأويلُ المعلوم من الشرع فتأولوه ، وربما استلزم الوقوع في أعظم مما فروا منه ، والذي وضح لي في هذا وضوحاً لا ريب فيه بحسن توفيق الله أمور :

أحدها - أن الكلام في ذات الله تعالى على جهة التصور والتفصيل أو على جهة الإحاطة على حد علم الله ، كلاهما باطل ، بل من التشابه الممنوع الذي لا يعلمه إلا الله تعالى لقوله تعالى : وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا^(٢) ولقوله تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ^(٣) وإنما تُتَصَوَّرُ المخلوقات وما هو نحوها . ولما روى من النهي عن التفكير في ذات الله ، والأمر في التفكير في آلاء الله ، ولما اشتهر عن أمير المؤمنين عليه السلام أن ذلك مذهبه ، حتى رواه عنه الخصوم . ومن أشهر ما حفظ عنه عليه السلام في ذلك قوله في امتناع معرفة الله عز وجل على العقول : امتنع منها بها ، وإليها حاكمها . ومن التفكير في الله والتحكم فيه والدعوى الباطلة على العقول والتسكف

(١) [١٨ / الكهف / ٧٦] وأولها : قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ،

(٢) [٢٠ / طه / ١١٠] ونصها : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذُرُّكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

لتعريفها مالا تعرفه ، حدثت هنا البدع المتعلقة بذات الله وصفاته وأسمائه . ومن البدع في هذا الموضع بدع المشبهة على اختلاف أنواعهم ، وبدع المعطلة على اختلافهم أيضاً ، فغلاتهم يعطلون الذات والصفات والأسماء . الجميع ، ومنهم الباطنية ، ودونهم الجهمية . ومن الناس من يوافقهم في بعض ذلك دون بعض . فالفريقان المشبهة والمعطلة إنما أتوا من تعاظم علم ما لا يعلمون . ولو أنهم سلكوا مسالك السلف في الإيمان بما ورد من غير تشبيه لسلموا . فقد أجمعوا على أن طريقة السلف أسلم ، ولكنهم ادعوا أن طريقة الخلف أعلم ، فطلبوا العلم من غير مظانه ، بل طلبوا علم مالا يعلم ، فتعارضت أنظارهم العقلية ، وعارض بعضهم بعضاً في الأدلة السمعية . فالشبهة ينسبون خصومهم إلى رد آيات الصفات ويدعون فيها ما ليس من التشبيه . والمعطلة ينسبون خصومهم وسائر أئمة الإسلام جميعاً إلى التشبيه ، ويدعون في تفسيره مالا تقوم عليه حجة . والكل حرموا طريق الجمع بين الآيات والآثار ، والاقتداء بالسلف الأخيار ، والاقتصار على جليات الأبصار ، وصاح الآثار . وقد روى الإمام أبو طالب عليه السلام في أماليه باسناده من حديث زيد بن أسلم أن رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة فقال : يا أمير المؤمنين ! هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً ؟ فغضب عليه السلام ونادى (الصلاة جامعة) فحمد الله وأثنى عليه إلى قوله : فكيف يوصف الذي عجزت الملائكة مع قربهم من كرسى كرامته ، وطول ولهم إليه ، وتعظيم جلال عزته ، وقربهم من غيب ملكوت قدرته أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم وهم من ملكوت القدس كلهم ومن معرفته على ما فطرهم عليه فقالوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ^(١) . فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته ، وتقدّمك فيه الرسل بينك وبين معرفته فأتم به واستضي بنور هدايته ، فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتها . فخذ مأوتيت وكن من الشاكرين ، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه ،

(١) [٢ / البقرة / ٣٢] .

ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا عن أئمة الهدى أثره فكل علمه إلى الله سبحانه ، فإنه منتهى حق الله عليك . وقد روى السيد في الأملى أيضاً الحديث المشهور في كتاب الترمذى عن على عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ^(١) : ستكون فتنة ! قلت : فما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وفصل ما بينكم ، فهو الفاصل بين الحق والباطل ، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله إلى قوله : من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم . ورواه في أماليه بسند آخر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ١٤ - باب ما جاء في فضل القرآن ، ونصه : عن الحارث قال : مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث . فدخلت على عليّ فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث ؟ قال : وقد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أما إنى قد سمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا إنها تكون فتنة » قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال « كتاب الله ، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . وهو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

خذها إليك يا أعور !

(قال أبو عيسى) هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي

الحارث مقال .

ورواه ابن الأثير في (الجامع) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقى بالقبول عند علماء الأصول ، ولكن المبتدعة يرون تصانيفهم أهدى منه ، لبيانهم فيها ، على زعمهم ، المحكم من التشابه . فمنهم من صرح بذلك وقال : إن كلامه أنفع من كلام الله تعالى ، وكتبه أهدى من كتب الله ، وهم الحسينية أصحاب الحسين بن القاسم العناني . وقد حملة الإمام المطهر بن يحيى على الجنون ، وقيل : لم يصح عنه . ومنهم من يلزمه ذلك وإن لم يصح به . فهذا الأمر الأول من التشابه وهو التحكم بالنظر في ذات الله تعالى . وما يؤدي إليه .

الأمر الثاني - من التشابه الواضح تشابهه والمنع منه ، هو النظر في سر القدر السابق في الشرور مع عظيم رحمة الله تعالى وقدرته على ما يشاء . وقد ثبت في كتاب الله تعالى تحير الملائكة الكرام عليهم السلام في ذلك وسؤالهم عنه بقولهم : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^(١) ثم ساق خبر آدم وتعليمه الأسماء وتفضيله في ذلك عليهم إلى قوله : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ^(٢) وفي ذلك إشارة واضحة إلى ما سيأتى بيانه من أن مراد الله بالخلق هم أهل الخير ، فالخلق كلهم كالشجرة ، وأهل الخير ثمرة تلك الشجرة ، وإليه الإشارة بقوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ^(٣) وفي حديث الخليل عليه السلام حين دعا على العصاة ، قال

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] وأولها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، ...

(٢) [٢ / البقرة / ٣٣] وأولها : قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ ...

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

الله: كفَّ عن عبادي. إن مصير عبدي مني إحدى ثلاث : إما أن يتوب فأتوب عليه ، أو يستغفرني فأغفر له ، أو أخرج من صلبه من يعبدني - رواه الطبراني - .

وقال الإمام الغزالي في كتاب العلم في (الإحياء) في أقسام العلوم الباطنة : ولا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرّاً ببعض الخلق ، كما يضر نور الشمس أبصار الخفافيش وكما يضر ريح الورد بالجعل . وكيف يبعد هذا ، وقولنا : إن كل شيء بقضاء من الله وقدر - حق في نفسه ، وقد أضر سماعه بقوم حيث أوهم ذلك عندهم دلالة على السفه ، ونقيض الحكمة ، والرضا بالقبيح والظلم . وأحد ابن الراوندي وطائفة من المخدولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى أوهم عند أكثر الخلق عجزاً ، إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل هذا الوهم عنهم . وقال في شرح (أسماء الله الحسنى) في شرح الرحمن الرحيم : والآل إن خطر لك نوع من الشر لا ترى فيه خيراً ، أو إن تحصيل ذلك الخير من غير شر أولى ، فأنهم عقلك القاصر في كلا الطرفين ، فإنك مثل أم الصبي التي ترى الحجامه شرّاً محضاً ، والغبي الذي يرى القصاص شرّاً محضاً ، لأنه ينظر إلى خصوص شخص المقتول ، وأنه في حقه شر محض ، ويذهل عن الخير العام الحاصل للناس كافة ، ولا يدري أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض ، لا ينبغي لحكيم أن يهمله . هذا أو قريب من هذا . وفي بعض كلامه نظر قد أوضحت في (العواصم) والسر في ذلك أن الله تعالى لا يريد الشر لكونه شرّاً قطعاً ، وإنما يريده وسيلة إلى الخير الراجح كما قال : **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١) ، وكما صح في الحدود والمصائب أنها كفارات ، فهذا هو سر القدر في الجملة ، وإنما الذي خفي تفصيله ومعرفته في عذاب الآخرة وشقاوة الأشقياء ، فمن الناس من كبر ذلك عليه وأداه إلى الحكم بنفي التحسين والتقبيح ، فصرحوا بنفي حكمة الله تعالى ، وهم غلاة الأشعرية ، إلا بمعنى إحكام المصنوعات في تصويرها لا سواء ، ومن الناس من أداه ذلك إلى

(١) [٢ / البقرة / ١٧٩] .

القول بالجبر ، ونفى قدرة العباد واختيارهم ، ومنهم من جمع بينهما . ومن الناس من جعل الوجه في تحسين ذلك من الله عدم قدرته سبحانه على هدايتهم ، وهم جمهور المعتزلة ، لكنهم يعتذرون عن تسميته معجزاً ، ويسمون غير مقدور . ومنهم من جعل العذر في ذلك أن الله لا يعلم الغيب ، وهم غلاة القدرية ، نفاة الأقدار . وقد تقصيت الردود الواضحة عليهم ، والبراهين الفاضحة لهم في (العواصم) ، وجمعت في ذلك ما لم أسبق إليه ولا إلى قريب منه ، في علمي . فتمت هذه المسألة في مجلد ضخيم ، وبلغت أحاديث وجوب الإيمان بالقدر اثنين وسبعين ، وأحاديث صحته مائة وخمسة وخمسين ، الجملة مائتان وسبعة وعشرون حديثاً ، من غير الآيات القرآنية ، والأدلة البرهانية . وصنف ابن تيمية في بيان الحكمة في العذاب الأخرى ، وتبعه تلميذه ابن قيّم الجوزية ، وبسط ذلك في كتابه (حادى الأرواح إلى ديار الأفراح) ، فأفردت ذلك في جزء لطيف ، وزدت عليه . ومضمون كلامهم أنه لا يجوز اعتقاد أن الله لا يريد الشر لكونه شراً ، بل لابد من خير راجح يكون ذلك الشر وسيلة إليه ، وذلك الخير هو تأويل ذلك الشر السابق له على نحو تأويل الخضر لموسى . وطرّدوا ذلك في شرو الدارين معاً . ونصر ذلك الغزالي في شرح (الرحمن الرحيم) ، ولنورد في ذلك حديثاً واحداً ، مما يدل على المنع من الخوض في تعيين الحكمة في ذلك فنقول : قال البيهقي في كتابه (الأسماء والصفات) عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس : لما بعث الله موسى وكلمه قال : اللهم! أنت رب عظيم ، ولو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت أن لا تعصى لما عصيت ، وأنت تحب أن تطاع ، وأنت في ذلك تعصى ، فكيف هذا يا رب ؟ فأوحى الله إليه أنى لا أسأل عما أفعل ، وهم يسألون . فأنتهى موسى .

ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ، وعزاه إلى الطبراني ، وزاد فيه : فلما بعث الله عزيراً سأل الله مثل ما سأل موسى ، ثلاث مرات ، فقال الله تعالى له : أتستطيع أن تصرّ صرة من الشمس ؟ قال : لا . قال : أتستطيع أن تجيء بمكيال من الريح ؟ قال : لا . قال : أتستطيع

أن تجيء بمثقال أو بقيراط من نور ؟ قال : لا . قال : فهكذا لا تقدر على الذى سألت عنه . أما أنى لا أجعل عقوبتك إلا أنى أحو اسمك من الأنبياء ، فلا تذكر فيهم . فلما بعث الله عيسى ورأى منزلته سأل عن ذلك ، كموسى . وأجيب عليه بمثل ذلك ، وقال الله تعالى : لئن لم تنته لأفعلن بك كما فعلت بصاحبك بين يديك ، فجمع عيسى من معه فقال : القدر سر الله تعالى فلا تكلفوه .

وروى الطبراني عن وهب عن ابن عباس أنه سئل عن القدر؟ فقال: وجدت أطول الناس فيه حديثاً أجهلهم به ، وأضعفهم فيه حديثاً أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر في شعاع الشمس ، كلما ازداد فيه نظراً ازداد تحيراً . قلت : ويشهد لهذه الآيات ما جاء في كتاب الله من قول الملائكة : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا^(١) . والجواب الجلى عليهم كما مر . وأما أحاديث النهي عن الخوض في القدر فمشيرة أحاديث ، رجال بعضها ثقات ، وبعضها شواهد لبعض ، كما أوضحته في (العواصم) وأقل من هذا مع شهادة القرآن والبرهان لذلك ، يكفي النصف . وما حدث بسبب الخوض من الضلالات زيادة عبرة وحيرة .

الأمر الثالث - من التشابه : الحروف المقطعة أوائل السور ، فإن الجهل بالمراد بها معلوم ، كالآلَم والصحة . والفرق بينها وبين أقيموا الصلاة ، ونحو ذلك ضرورى . ودعوى التمكن من معرفة معانيها تستلزم جواز أن ينزل الله سورة كلها كذلك أو كتاباً من كتبه الكريمة ، ويستلزم جواز أن يتخاطب العقلاء بمثل ذلك ، ويلوموا من طلب منهم بيان مقاصدهم ، ونحو ذلك . وهذا هو اختيار زيد بن علي عليه السلام ، والقاسم والهادى عليهما السلام ، وهو نص في تفسيرهما المجموع . وكذلك الإمام يحيى عليه السلام ، ذكره في (الحاوى) وقولهم :

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

إنا مخاطبون بها فيجب أن نفهمها - مقاب . وصوابه : أن لا نفهمها فيجب أن لا نكون مخاطبين بفهمها . وقد ذكرت في الحجة على أنها غير معلومة أكثر من عشرين حجة في تكميلة ترجيح أساليب القرآن .

الأمر الرابع - من التشابه : المجلد الذي لا يظهر معناه بعلم ولا ظن ، سواء كان بسبب الاشتراك في معناه ، أو لغرابته ، أو عدم صحة تفسيره في اللغة والشرع ، أو غير ذلك . فقد وقع الوهم في المجلد لنوح عليه السلام ، كيف لغيره ؟ وذلك قوله : إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ^(١) .
وأما المحكم فهو ما عدا التشابه ، وغالبه النص الجلي ، والظاهر الذي لم يعارض ، والمفهوم الصحيح الذي لم يعارض ، والخاص والمقيد وإن عارضهما العام والمطلق . ويلحق بهذا فوائد .

الأولى - الصحيح في قوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » الوقف على الله ، بدليل ذم مبتغى تأويل التشابه في الآية . وهو اختيار الإمام يحيى في (الحاوى) واحتج بأن «أما» للتفصيل على بابها ، والتقدير و «أما الراسخون» بدليل قوله تعالى « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » كما تقول : أما زيد فعالم وعمرؤ جاهل ، أى وأما عمرو فجاهل ، يوضحه أن المخالف مسلم أن هذا هو الظاهر منها ، لكنه يقول : إنه يجب تأويلها على أن المراد ذمهم بابتغاء تأويله الباطل ، فيقيد إطلاق الآية بغير حجة ، ويجعلها من التشابه ، مع أنها الفارقة بين المحكم والتشابه ، وهذا خلف .

(١) [١١ / هود / ٤٥ و ٤٦] ونصهما : وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

وقد روى الحاكم عن ابن عباس أنه قرأ « ويقول الراسخون » وقال : صحيح . ورواه الزمخشري في كشفه قراءة عن أبي وغيره ، ورواه الإمام أبو طالب في أماليه عن علي عليه السلام . ولم يتأوله ولم يطعن فيه ، وهو في (النهج) أيضاً ، وهو نص لا يمكن تأويله ، فإن لفظه عليه السلام : اعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن الاقتحام على السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق ، فيما لم يكلفهم البحث عنه ، رسوخاً . فاقصر على ذلك . انتهى بحروفه .

وأيضاً فلا يجب علم جميع المكلفين بذلك عند الخصوم ، إذ في المتكلفين الأئمة والعجمي ونحوهم . وإذا كان علم البعض يكفي ويخرج الخطاب بذلك عن العبث ، جاز أن يكون ذلك البعض هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن شاء الله من ملائكته وخواص عباده . والله سبحانه أعلم .

الفائدة الثانية - إذا تعارض العام والخاص ، فالحكم هو الخاص والبناء عليه واجب ، وفيه الجمع بينهما ، وفي العكس طرح الخاص مع رجحانه بالنصوصية . وهي قاعدة كبيرة فحفظها . ولا خلاف فيها في الاعتقاد ، لعدم القاعدة في التاريخ فيه ، ولذلك أجمعوا على إثبات الخلة للمتقين ، وتأويل نفي الخلة المطلق ، فتأمل ذلك .

الفائدة الثالثة - إذا كان التحسين العقلي مع بعض السمع فهو المحكم ، والمتشابه مخالفه ، لما وضع من تأويل الخضر بموافقة العقل ، وفي مخالفة هذه القاعدة عناد بين وضلال كبير ، فاعرفها واعتبر مواضعها ترشد . إن شاء الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ،

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

« رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » من مقال الراسخين ، أى لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمنا عليه ، ولا تجعلها كالذين فى قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم « وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » ثبت بها قلوبنا « إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » كثير النعم والإفضال ، جزيل العطايا والنوال . وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى . وعن عائشة رضى الله عنها^(١) قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قلت : يا رسول الله ! ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ! فقال : ليس من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه - وهو فى الصحيح والسنن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » وهذا

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨٩ - باب حدثنا أبو موسى الأنصارى ونصه : عن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة ، أم المؤمنين : ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالت : قلت يا رسول الله ! ما أكثر دعائك : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ! قال « يا أم سلمة ! ليس آدمى إلا وقبلة بين إصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ » فتلا معاذ (أحد رجال السند) : رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا .

من تمة كلام الراسخين في العلم، وذلك لأنهم لما طلبوا من الله تعالى أن يصونهم عن الزيف، وأن يخصهم بالهداية والرحمة ، فكأنهم قالوا : ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا ، فإنها منقضية منقرضة . وإنما الغرض الأعظم منه ، ما يتعلق بالآخرة ، فإنها المقصد والمآل . فإننا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزء في يوم القيامة ، ونعلم أن وعدك لا يكون خلفاً ، فمن زاغ قلبه بقى هناك في العذاب أبداً، ومن منحتة الرحمة والهداية بقى هناك في السعادة والكرامة أبداً. فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ، ما يتعلق بالآخرة - أفاده الرازي - ثم قال : احتج الجبائي بهذه الآية على القطع بوعيد الفساق، قال : وذلك لأن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد بدليل قوله تعالى : **أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا** ^(١). والوعد والموعود والميعاد واحد. وقد أخبر في هذه الآية أنه لا يخلف الميعاد. فكان هذا دليلاً على أنه لا يخلف في الوعيد . والجواب : لانسلم أنه تعالى يوعد الفساق مطلقاً ، بل ذلك الوعيد عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة، فكما أنكم أثبتتم ذلك الشرط بدليل منفصل، فكذا نحن أثبتنا شرط عدم العفو بدليل منفصل، سلمنا أنه يوعدهم، ولكن لانسلم أن الوعيد داخل تحت لفظ الوعد. أما قوله تعالى : **فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا** . قلنا : لم لا يجوز أن يكون ذلك ، كما في قوله : **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ^(٢).

(١) [٧ / الأعراف / ٤٤] ونصها : **وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُوا نَعَمْ ، فَاذْنِ مُؤَدِّنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** . و [٩ / التوبة / ٣٤] ونصها : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَا كُفُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ =**

وقوله : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ^(١) . وأيضاً لم لا يجوز أن يكون المراد منه أنهم كانوا يتوقعون من أولادهم أنها تشفع لهم عند الله ، فكان المراد من الوعد تلك المنافع .
وذكر الواحدى فى (البسيط) طريقة أخرى فقال : لم لا يجوز أن يحمل هذا على ميعاد الأولياء ، دون وعيد الأعداء ، لأن خلف الوعيد كرم عند العرب . قال : والدليل عليه أنهم يمدحون بذلك ، قال الشاعر :

إذا وعد السراء أنجز وعده وإن أوعد الضراء فالعفو مانعه
وروى المناظرة التى دارت بين أبى عمرو بن العلاء ، وبين عمرو بن عبيد . قال أبو عمرو ابن العلاء لعمرو بن عبيد : ما تقول فى أصحاب الكبراء ؟ قال : أقول إن الله وعدوعداً وأوعد إيعاداً ، فهو منجز إيعاده كما هو منجز وعده ، فقال أبو عمرو بن العلاء : إنك رجل أعجم ، لا أقول أعجم اللسان ، ولكن أعجم القلب . إن العرب تعدّ الرجوع عن الوعد لؤماً ، وعن الإيعاد كرمًا ، وأنشد :

وإنى وإن أوعدته أو وعدته لمكذب إيعادى ومنجز موعدى
واعلم أن المعتزلة حكوا أن أبا عمرو بن العلاء لما قال هذا الكلام ، قال له عمرو بن عبيد : يا أبا عمرو ؟ فهل يسمى الله مكذب نفسه ؟ فقال : لا ، فقال عمرو بن عبيد فقد سقطت حجتك ، قالوا : فانقطع عمرو بن العلاء .

وعندى أنه كان لأبى عمرو بن العلاء أن يجيب عن هذا السؤال فيقول : إنك قست الوعيد على الوعد ، وأنا إنما ذكرت هذا لبيان الفرق بين البايين ، وذلك لأن الوعد حق عليه ، والوعيد حق له ، ومن أسقط حق نفسه فقد أتى بالجوذ والكرم ، ومن أسقط حق غيره

= الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

و [٨٤ / الانشقاق / ٢٤] .

(١) [٤٤ / الدخان / ٤٩] .

فذلك هو اللؤم ، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد ، وبطل قياسك . وإنما ذكرت هذا الشعر لإيضاح هذا الفرق . فأما قولك : لو لم يفعل لصار كاذباً ومكذباً نفسه ، فجوابه أن هذا إنما يلزم لو كان الوعيد ثابتاً جزماً من غير شرط ، وعندى جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو ، فلا يلزم من تركه دخول الكذب في كلام الله تعالى . فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ» التي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضار «وَلَا أَوْلَادُهُمْ» الذين بهم يتناصرون في الأمور المهمة «مِنَ اللَّهِ» أى من عذابه تعالى «شَيْئًا» من الإغناء ، أى لن تدفع عنهم شيئاً من عذابه . يقال : ما أغنى فلان شيئاً ، أى لم ينفع فى مهم ، ولم يكف مؤنة . ورجل مغن أى مجزى كاف - قاله الأزهري . ونظير هذه الآية قوله تعالى : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(١) «وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» بفتح الواو أى حطبها ، وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها ، وأكثر اللغويين على أن الضم للمصدر أى التوقد ، والفتح للحطب . وقال الزجاج : المصدر مضموم ، ويجوز فيه الفتح . وهذا كقوله تعالى : «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ^(٢)» .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٨٨ و ٨٩] .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى دأب هؤلاء في الكفر كذاب آل فرعون . والدأب (بالسكون ، ويحرك) مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه ، فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله ، مجازاً . يقال : هذا دأبك أى شأنك وعملك ، قال الأزهرى عن الزجاج في هذه الآية : أى كأمر آل فرعون ، كذا قال أهل اللغة . قال الأزهرى : والقول عندى فيه - والله أعلم - أن دأبهم هنا اجتهدهم في كفرهم وتظاهرهم على النبى ﷺ ، كتظاهر آل فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام ؛ يقال : دأبت أدأب دأباً ودؤوباً إذا اجتهدت في الشيء - انتهى - قال أبو البقاء : وفي ذلك تخويف لهم لعلمهم بما حل بآل فرعون « وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة ، فالوصول في محل جر عطف على ما قبله « كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبني على السؤال المقدر « فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ » أى عاقبهم وأهلكهم بسببها . « وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى الأخذ بالذنب . فيه تهويل للمؤاخذه وزيادة تخويف للكفرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » بهذا الدين وهم اليهود (للرواية الآتية) أو نصارى نجران ، لأن السورة نزلت لإحقاق الحق معهم ، أو أعم « سَتُغْلَبُونَ » أى في الدنيا « وَتُحْشَرُونَ » أى يوم القيامة « إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » الفراش ، أى فكفركم ككفر آل فرعون بموسى ، وقد فعل بقریش لكفرهم مارأيتم ، فسيفعل بكم ما فعل بهم ،

وهو أنكم تغلبون كما غلبوا . وقد صدق الله وعده بقتل قريظة^(١) ، وإجلاء بني النضير^(٢) ، وفتح خيبر^(٣) ، وضرب الجزية على من عداهم ، وهو من أوضح شواهد النبوة . وقد روى أبو داود في سننه والبيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال : يا معشر يهود ! أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً ، فقالوا : يا محمد ! لا يفرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنت لم تلق مثلنا ، فأنزل الله « قُلْ لِلَّذِينَ ... » إلى قوله « لِأُولَى الْأَبْصَارِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ تَقَاتَلُوا، فِئَةٌ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولَى الْأَبْصَارِ)

« قَدْ كَانَ لَكُمْ » أيها الكافرون المتقدم ذكرهم « آيَةٌ » عبرة ودلالة على أنكم ستغلبون ، وعلى أن الله معزّ دينه ، وناصر رسوله ، ومُعَلِّ أمره « فِي فِئَتَيْنِ » أي فئتين « الَّذِينَ تَقَاتَلُوا » يوم بدر للقتال « فِئَةٌ تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أي طاعته ، وهم النبي وأصحابه

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٠ - باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ١٤ - باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم .

(٣) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٨ - باب غزوة خيبر .

وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. معهم فرسانٍ وست أدرع وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة « وَأُخْرَى كَافِرَةٌ » وهم مشركو قريش وكانوا قريباً من ألف « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ » أى يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين قريباً من ألفين ، أراهم الله إياهم، مع قلتهم، أضعافهم ليهابوهم، ويحببوا عن قتالهم ، وكان ذلك مدداً لهم من الله تعالى ، كما أمدهم بالملائكة . فإن قلت : فهذا مناقض لقوله فى سورة الأنفال : « وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ »^(١) قلت : قلوا أولاً فى أعينهم حتى اجترؤوا عليهم ، فلما لا قوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا ، فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين . ونظيره فى الحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ »^(٢) . وقوله تعالى : « وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ »^(٣) وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى فى أعينهم ، أبلغ فى القدرة وإظهار الآية - كذا فى الكشف - قلت : أو يجاب بأنهم كثروا أولاً فى أعينهم ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلوع ، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ليقضى الله أمراً كان مفعولاً « رَأَى الْعَيْنِ » يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ، معانة كسائر المعانيات - كذا فى الكشف - « وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ » أى يقوى « بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى التكثير والتقليل ، وغلبة التقليل ، مع عدم العدة ، على الكثير الشاكي السلاح « لَعِبْرَةٌ » أى لاعتباراً وآية وموعظة « لِلأُولَى الْأَبْصَارِ » لذوى العقول والبصائر .

(١) [٨ / الأنفال / ٤٤] ونصها : « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمَيُّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٩] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ٢٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَلِيلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ)

« زَيْنَ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها ، وتزهيد الناس فيها ، وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى ، إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها . والمراد بالناس الجنس - قاله أبو السعود - « حُبُّ الشَّهَوَاتِ » أى الشهوات ، وعبر عنها بذلك مبالغة في كونها مشتهاة مرغوباً فيها ، أو تحسيساً لها ، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ، مذموم من اتباعها ، شاهد على نفسه بالهيمية ، « مِنَ النِّسَاءِ » فى تقديمهن إشعار بعراقتهن فى معنى الشهوة إذ يحصل منهن أتم اللذات « وَالْبَنِينَ » للتكثير بهم ، وأمل قيامهم مقامهم من بعدهم ، والتفاخر والزينة « وَالْقَنَاطِيرِ » أى الأموال الكثيرة وقوله « الْمُقَنْطَرَةِ » مأخوذ منها للتوكيد كقولهم ألف مؤلفة ، وبدرة مبدرة ، وإبل مؤبلة ، ودراهم مدرهمة « مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » قال الرازى : وإنما كانا محبوبين لأنهما جعلتا من جميع الأشياء ، فالكهها كالملك لجميع الأشياء ، وصفة المالكية هى القدرة ، والقدرة صفة كمال ، والكمال محبوب لذاته ، فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذى هو محبوب لذاته وما لا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب - لا جرم كانا محبوبين « وَالْخَلِيلِ الْمُسَوَّمَةِ » أى المرسلة إلى المرعى ترى حيث شئت ، أو التى عليها السيمياء - أى العلامة - قال أبو مسلم : المراد من هذه العلامات الأوضح والغرر التى تكون فى الخيل ، وهى أن تكون الأفراس غراً محجلة « وَالْأَنْعَامِ » جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم لتحصيل الأموال النامية « وَالْحَرْثِ » أى الأرض المتخذة للغراس والزراعة « ذَلِكَ » أى المذكور « مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يتمتع به فيها ثم يفنى « وَاللَّهُ

عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ « أى المرجع وهو الجنة ، فينبغى الرغبة فيه دون غيره . وفى إشعاره ذم من يستعظم تلك الشهوات ويتهالك عليها ، ويرجح طلبها على طلب ما عند الله ، وترهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة .

تنبيه :

فى ترئين هذه الأمور المذكورات للناس إشارة لما تضمنته من الفتنة :
فأما النساء ، فى الصحيح أنه ﷺ قال ^(١) : ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء .
وأما البنون ، فى مسند أبى يعلى عن أبى سعيد مرفوعاً : الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخله محزنة ، أى يحزن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته ، ويمتنع أبوه من الإنفاق فى الطاعة خوف فقره ، ويحزن أبوه لمرضه خوف موته ، وقد قال تعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ^(٢) ، وقيل لبعض النساء : ما بالك لا تبتغى ما كتب الله لك ؟ قال : سمعاً لأمر الله . ولا مرحباً بمن إن عاش فتنى ، وإن مات أحنزنى . يريد قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ^(٣) .

وأما القناطر المقنطرة ففيها الآية قبل ، وقوله تعالى : كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ^(٤) ، وقال تعالى : وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ائْتَرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ^(٥) ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١٧ - باب ما يتق من شؤم المرأة ، حديث ٢١٠٩ ، عن أسامة بن زيد .

(٢) [٦٤/التغابن/١٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٦٤/التغابن/١٥] .

(٤) [٩٦/العلق/٧٦] .

(٥) [١٧/الإسراء/٨٣] ونصها : وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ائْتَرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا .
=

فما يورث البطر مثل الغنى . وبه تستجمع أسباب السؤدد والرئاسة والمجد والتفاخر .
وأما الخيل فقد تكون على صاحبها وزراً : إذا ربطها نحرّاً ورياءً ونواء لأهل الإسلام ،
كما في الصحيح ^(١) وفي مسند أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً : الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ،
وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان . فأما فرس الرحمن فالذى يربط في سبيل الله ، فعلفه
وروثه وبوله وذكر ما شاء الله ؛ وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليه ، وأما فرس
الإنسان فالفرس يربطها الإنسان يلتمس بطنها فهي تَسْتُرُ من فقر .

وأما الفتنة بالأنعام والحِرْث في معنى ما تقدم . والله أعلم .
ولما ذكر تعالى ما عنده من حسن المآب إجمالاً ، أشار إلى تفصيله مبالغة في الترغيب فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قُلْ أَوْبَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ)

« قُلْ أَوْبَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ » أى الشهوات المزينة لكم « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » الله
ولم ينهمكوا في شهواتهم « عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » من أنواع الأشربة
من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر ، و « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » خبر المبتدأ الذى هو « جَنَّاتٌ » و « تَجْرِي » صفة لها ،
و « عِنْدَ » إما متعلق بما تعلق به الجار من معنى الاستقرار ، وإما صفة للجنان في الأصل ،

= و [٤١ / فصلت / ٥١] ونصها : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ
وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَدَّ دُعَاءَ عَرِيضٍ .

(١) في المسند فقط رقم ٣٧٥٦ (طبعة المعارف) .

قدّم فانتصب على الحال . والعندية مفيدة لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتهما « خَالِدِينَ فِيهَا » أى ما كثين فيها أبد الآباد لا ينفون عنها حولا « وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » أى من الأرجاس والأدناس البدنية والطبيعية مما لا يخلو عنه نساء الدنيا غالباً « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ » التنوين للتفخيم أى رضوان وأى رضوان لا يقدر قدره . وهذه اللذة الروحانية تنمة ما حصل لهم من اللذات الجسمانية وأكبرها . كما قال تعالى فى آية براءة : « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ »^(١) أى أعظم ما أعطاهم من النعيم القيم . روى الشيخان^(٢) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ! فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : ياربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً . « وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » أى عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة ، وأن يزهّدوا فيما زهّد بهم فيه من أمور الدنيا . ثم وصف سبحانه الذين اتقوا ففازوا بتلك الكرامات بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

« الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » قال الحاكم : فى الآية دلالة على أنه يجوز للداعى أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى الله ، ثم يدعو . ويؤيده

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] ونصها : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥١ - باب صفة الجنة والنار ،

حديث ٢٤٥٨ .

ما في الصحيحين من حديث أصحاب الغار^(١) ، وتوسل كل منهم بصالح عمله ، ثم تفرج الباري تعالى عنهم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)

« الصَّابِرِينَ » أى على البأساء والضراء وحين البأس « وَالصَّادِقِينَ » فى إيمانهم وأقوالهم ونياتهم « وَالْقَانِتِينَ » المطيعين لله الخاضعين له « وَالْمُنْفِقِينَ » أموالهم فى سبيل الله تعالى من الأرحام والقربات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوى الحاجات « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » جمع سحر (بفتحين وفتح وسكون) وهو الوقت الذى قبيل طلوع الفجر آخر الليل . وتسحر إذا أكل فى ذلك الوقت . قال الحرالى : وفى إفهامه تهجدهم فى الليل كما قال تعالى : كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُؤْنَ * وَالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ^(٢) . وقال الرازى : واعلم أن المراد منه من يصلى بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء ، لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلى قبل ذلك . فقوله : « وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ » يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل - انتهى - وقد روى ابن أبى حاتم أن عبد الله بن عمر كان يصلى من الليل ، ثم يقول : يانافع ! هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة . وروى ابن جرير عن حاطب قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك ، وهذا السحر . فاعفروا . فنظرت فإذا هو ابن مسعود . وثبت فى الصحيحين^(٣) وغيرها من المسانيد والسنن

(١) انظر صحيح البخارى فى : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٩٨ - باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضى .

(٢) [٥١ / الذاريات / ١٧ و ١٨] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ١٩ - كتاب التهجد ، ١٤ - باب الدعاء والصلاة من آخر الليل حديث ٦٢٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ - ١٧٢ .

من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا ، تبارك وتعالى ، كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ وفي رواية لمسلم : ثم يسطر يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم ؟ وفي رواية : حتى ينفجر الفجر .

قال الحافظ ابن كثير : وقد أفرد الحافظ أبو الحسن الدارقطني في ذلك جزءاً على حدة . فرواه من طرق متعددة . وروى أن بعض الصالحين قال لابنه : يا بني ! لا يكن الديك أحسن منك ، ينادى بالأسحار وأنت نائم ، والحكمة في تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية ، والأطاف السبحانية ، وعند ذلك تكون العبادة أشقى ، والنية خالصة ، والرغبة وافرة ، مع قربته ، تعالى وتقدس ، من عباده . قال السيوطي : في الآية فضيلة الاستغفار في السحر ، وأن هذا الوقت أفضل الأوقات . وقال الرازي : واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر في قوة الإيمان ، وفي كمال العبودية .

الأول - أن وقت السحر يطلع نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل ، وبسبب طلوع نور الصبح كان الأموات يصيرون أحياء ، فهناك وقت الجود العام ، والفيض التام ، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير ، يطلع صبح العالم الصغير ، وهو ظهور نور جلال الله تعالى في القلب .

والثاني - أن وقت السحر أطيب أوقات النوم ، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة ، وأقبل على العبودية ، كانت الطاعة أكمل .

والثالث - نقل عن ابن عباس «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» يريد المصلين صلاة الصبح ، انتهى . وهذا الثالث أخرجه ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم . وعليه ، فإنما سميت الصلاة استغفاراً لأنهم طلبوا بفعالها المغفرة .

لطيفة :

قال الزمخشري : الواو المتوسطة بين الصفات ، للدلالة على كمالهم في كل واحدة منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ،

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى علم وأخبر أو قال أو بين أنه لا معبود حقيق سوى ذاته العلية . وشهد بذلك « وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ » بالإقرار ، وهذه مرتبة جليلة للعلماء ، لقرنهم في التوحيد بالملائكة المشرفين ، بعطفهم على اسم الله عز وجل « قَائِمًا بِالْقِسْطِ » أى بالعدل فى أحكامه « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » كرره تأكيداً وليبنى عليه قوله « الْعَزِيزُ » فلا يزال جنابه عظيمة « الْحَكِيمُ » فلا يصدر عنه شئ إلا على وفق الاستقامة - كذا فى جامع البيان - .

وقال فى الانتصاف : هذا التكرار لما قدمته فى نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهده ، وذلك أن الكلام مصدر بالتوحيد ، ثم أعقب التوحيد تعدد الشاهدين به ، ثم قوله « قَائِمًا بِالْقِسْطِ » وهو التنزيه . فطال الكلام بذلك فجدد التوحيد تلو التنزيه ، لئلى قوله : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ . ولولا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم . كالمقطع فى الفهم مما أريد إيصاله به . والله أعلم .

لطيفة :

قال الرازى : فإب قيل : المدعى للوحدانية هو الله ، فكيف يكون المدعى شاهداً ؟ الجواب : من وجوه : الأول : وهو أن الشاهد الحقيق ليس إلا الله ، وذلك لأنه تعالى هو الذى خلق الأشياء وجعلها دلائل على توحيده ، ولولا تلك الدلائل لما صحت الشهادة . ثم بعد نصب تلك الدلائل ، هو الذى وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل ، ولولا تلك الدلائل التى نصبها الله تعالى وهدى إليها لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة الوحدانية ، ثم بعد حصول العلم بالوحدانية ، فهو تعالى وفقهم حتى أرشدوا غيرهم إلى معرفة التوحيد . وإذا كان

الأمر كذلك ، كان الشاهد على الوحدانية ليس إلا الله وحده ، ولهذا قال : « قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ » ^(١) - ثم ساق بقية الوجوه فانظره .

وقال العارف الشعرائي ، قدس سره ، في كتاب (الجواهر والدرر) : سألت أخى أفضل الدين : لم شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال رضى الله عنه : لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له ، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه . فقلت له : فلم عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلًا من النظر في الأدلة كالبشر ، وإنما كان علمهم بذلك حاصلًا من التجلي الإلهي ، وذلك أقوى العلوم وأصدقها ، فلذلك قدموا في الذكر على أولى العلم . وأيضاً فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله ، فناسب ذكرهم في الوسط ، فاعلم ذلك ، انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » جملة مستأنفة مؤكدة للأولى ، أى لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام الذى هو التوحيد والتدريج بالشرعية الشريفة - قاله أبو السعود - وفي الآية الأخرى : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٢) . « وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » مطلقاً ، أو اليهود ، فى دين

(١) [٦ / الأنعام / ١٩] ونصها : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللَّهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَتُنْكُمُ لِلشَّهَادَةِ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (٢) [٣ / آل عمران / ٨٥] .

الإسلام « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » أى إلا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه . ولم يكن اختلافهم شبهة عندهم بل « بَغْيًا بَيْنَهُمْ » أى حسداً كائناً بينهم ، وطلباً للرئاسة . وهذا تشنيع عليهم إثر تشنيع « وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ » المنزلة « فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » قائم مقام جواب الشرط . علة له . أى : فإنه تعالى يجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب . فإنه سريع الحساب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ ، فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

« فَإِنْ حَاجُّوكَ » فى الدين وحادوك فيه بعد إقامة تلك الآيات « فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » أى اتقدت لآياته المنزلة ، وأخلصت نفسى وعبادتى له ، لا أشرك فيها غيره . قال أبو السعود : وإنما عبر عن النفس بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ، ومجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة ، وبه يحصل التوجه إلى كل شىء « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » عطف على الضمير المتصل .

لطيفة :

هل قوله تعالى : قل أسلمت وجهى لله ، إعراض عن الحاجة ، أو هو محاجة وإظهار للدليل ؟ فمن قائل بالأول ، وذلك لأنه ﷺ كان قد أظهر لهم الحجة على صدقه قبل نزول هذه الآية مراراً وأطواراً ، فإن هذه السورة مدنية ، وكان قد أظهر لهم المعجزات الالهة بالقرآن وغيره ، فبعد هذا قال : فإن حاجوك فقل أسلمت الخ . يعنى إننا بالغنا فى تقرير الدلائل وإيضاح البينات ، فإن تركتم الأنف والحسد وتمسكنم بها كنتم مهتدين . وإن أعرضتم ، فإن الله

تعالى من وراء مجازاتكم . وهذا التأويل طريق معتاد في الكلام . فإن الحق إذا ابتلى بالمبطل اللجوج ، وأورد عليه الحجة حالاً بعد حال ، فقد يقول في آخر الأمر : أما أنا ومن اتبعني فمنقادون للحق مستسلمون له ، مقبلون على عبودية الله تعالى ، فإن وافقتم واتبعتم الحق الذي أنا عليه بعد هذه الدلائل التي ذكرتها فقد اهتديتم ، وإن أعرضتم فإن الله بالمرصاد . فهذا طريق قد يذكره المحتجّ المحقّ مع المبطل المصّرّ في آخر كلامه . ومن قائل بالثنائي ، أعنى أنه محاجة ، وفي كيفية الاستدلال منها ما ذكره أبو مسلم الأصفهانيّ ، وهو أن اليهود والنصارى وعبداء الأوثان كانوا مقرّين بتعظيم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، والإقرار بأنه كان محقّاً في قوله ، صادقاً في دينه . فأمر الله تعالى محمداً ﷺ بأن يتبع ملته فقال : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(١) ، ثم إنه تعالى أمر محمداً ﷺ في هذا الموضع أن يقول كقول إبراهيم ﷺ حيث قال : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(٢) ، فقول محمد ﷺ : أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ . كقول إبراهيم عليه السلام : وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ، أى أعرضت عن كل معبود سوى الله تعالى ، وقصدته بالعبادة ، وأخلصت له . فتقدير الآية كأنه تعالى قال : فإن نازعوك يا محمد في هذه التفاصيل فقل أنا مستمسك بطريقة إبراهيم وأنتم معترفون بأن طريقته حقة ، بعيدة عن كل شبهة وتهمة . فكان هذا من باب التمسك بالإلزامات ، وداخلاً تحت قوله : وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ^(٣) - نقله الرازي - « وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ » أى الذين

(١) [١٦ / النحل / ١٢٣] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٧٩] .

(٣) [١٦ / النحل / ١٢٥] ونصها : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

لا كتاب لهم كشركي العرب «أَأَسْلَمْتُمْ» لهذه الآيات كما أسلمت ، أم أنتم بعدُ على الكفر . قال الزخشرى : يعنى أنه قد أناكم من البينات ما يوجب الإسلام ، ويقتضى حصوله لاحالة ، فهل أسلمتم ، أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ، ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته : هل فهمتها ؟ ومنه قوله عز وعلا : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ^(١) . بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر . وفي هذا الاستفهام استقصار وتعير بالمعاند وقلة الإنصاف ، لأن النصف إذا تجأت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق ، وللمعاند بعد تجلى الحجة ما يضرب أسداً بينه وبين الإذعان . وكذلك في (هل فهمتها) توبيخ بالبلادة وكلة القرينة ، وفي (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعطى المنهى عنه . انتهى . « فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا » أى خرجوا من الضلال فنفعوا أنفسهم « وَإِنْ تَوَلَّوْا » عن هداك وهديك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى تبليغ آيات الله ، لا الإكراه إذا عاندوك ، إذ ليس عليك هداهم « وَاللَّهُ بِصِيرِ بِالْعِبَادِ » وعد ووعد . قال ابن كثير : وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث . فمن ذلك قوله تعالى : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً^(٢) ، وقال تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا^(٣) . وفي

(١) [٥ / المائدة / ٩١] ونصها : إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٨] ونصها : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ١] .

الصحيحين^(١) وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق ، وطوائف بني آدم ، من عربهم وعجمهم ، كتابيهم وأميرهم ، امتثالاً لأمر الله بذلك .

(١) انظر ، في ذلك ، ما يأتي :

البخاريّ في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٠١ - باب دعوة اليهوديّ والنصرانيّ ، وعلى ما يقاتلون عليه ، وما كتب النبيّ ﷺ إلى كسرى وقيصر ، والدعوة قبل القتال . وفيه كتابه إلى كسرى .

والبخاريّ في : ١ - كتاب بدء الوحي ، ٦ - باب حدثنا أبو اليان ، وفيه كتابه إلى قيصر . وأبوداود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والنفى ، ٢١ - باب ماجاء في سهم الصفيّ ، حديث ٢٩٩٩ . وفيه كتابه إلى بني زهير .

وأبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والنفى ، ٢٧ - باب ماجاء في حكم أرض اليمن ، حديث ٣٠٣٧ . وفيه كتابه إلى بعض رؤساء اليمن .

وفي طبقات ابن سعد ، الجزء الأول ، القسم الثاني ، بالصفحة ١٧ و ٢٠ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث وجيلة وأمرأ غسان .

وبالصفحة ١٩ و ٢٧ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل هَجَرَ .

وبالصفحة ٢١ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أساقفة نجران .

وبالجزء الأول ، بالقسم الأول بالصفحة ٣٥ كتابه إلى أهل نجران .

وبالجزء الأول ، القسم الثاني بالصفحة ٢١ و ٣٣ كتابه إلى أفيال حضرموت .

وبالصفحة ١٥ كتابه إلى النجاشي .

وبالصفحة ١٦ كتابه إلى المقوقس .

وبالصفحة ٢٥ كتابه إلى مسيلة .

وبالصفحة ٢٨ و ٣٨ كتابه إلى يهود مَقْنَا ... الخ الخ .

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ^(١) : والذي نفسى بيده ! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به ، إلا كان من أهل النار . رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم ^(٢) : بعثت إلى الأحمر والأسود . وقال ^(٣) : كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

(١) أخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤٠ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣ (طبعنا) .
ونصه : عن جابر بن عبد الله الأنصارى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى . كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أمة وأسود . وأحللت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى . وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا . فأيا رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان . ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر . وأعطيت الشفاعة » .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٧ - كتاب التيمم ، ١ - باب قوله : فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا .

حديث ٢٣١ . ونصه :

عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبل . نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيا رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحللت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ » وهم اليهود. قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، وقتلوا حزقيال عليه السلام ، قتله قاض يهودى لما نهاه عن منكر فعله ، وزعموا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليهما السلام. ولما كان المخاطبون راضين بصنيع أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم. وقوله تعالى: بِغَيْرِ حَقٍّ، إشارة إلى أن قتلهم للأنبياء كان بغير حق، في اعتقادهم أيضاً، فهو أبلغ في التشنيع عليهم « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات فى الدارين ، أما الدنيا فإبدال المدح بالذم ، والثناء باللعن والخزى، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبى وأخذ الأموال منهم غنيمَةً ، والاسترقاق لهم ، إلى غير ذلك من النذل والصغار الظاهر فيهم . وأما حبوطها فى الآخرة ، فإبدال الثواب بالعذاب الأليم . « وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » ينصرونهم من عذاب الله . وقد دلت الآية على عظم حال مَنْ يأمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله ، لأنه قرّن ذلك بالكفر بالله تعالى ، وقتل الأنبياء .

قال الحاكم : وتدل على صحة ما قيل ، أنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه . وأن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين. وفي الحديث^(١): أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

(١) أخرجه أبوداود فى: ٣٦ - كتاب الملاحم ، ١٧ - باب الأمر والنهى ، حديث ٤٣٤٤.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ » التوراة . والمراد بهم أحنبار اليهود « يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ » وهو القرآن « لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ » استبعاد لتوليهم بعد علمهم أن الرجوع إلى كتاب الله واجب ، إذ قامت عليهم الحجج الدالة على تنزيله « وَهُمْ مُّعْرِضُونَ » حال من فريق ، أى معرضون عن قبول حكمه . أو اعتراض ، أى وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل . ومن المفسرين من حمل قوله « يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ » على التوراة ، وأن الآية إشارة إلى قصة^(١) تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم اثنان ، فحكم عليهما بالرجم ، فأبوا وقالوا: لا نجد فى كتابنا إلا التحميم ، فجاء بالتوراة فوجد فيها الرجم ، فرجما ، فغضبوا فشنع عليهم بهذه الآية . والله أعلم .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٦ - باب قُلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . ونصه :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم « كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ » قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال « لا تجدون فى التوراة الرجم ؟ » فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتهم . فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم . فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها . ولا يقرأ آية الرجم . فنزع يده عن آية الرجم . فقال : ماهذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هى آية الرجم . فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد .

فرايت صاحبها يحنا عليها ، يقيمها الحجارة .

قال بعض المفسرين : ولآية ثمرتان :

الأولى - أن من دعى إلى كتاب الله وإلى ما فيه من شرع وجب عليه الإجابة . وقد قال العلماء رضى الله عنهم : يستحب أن يقول سمعاً وطاعة ، لقوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(١) .

الثمرّة الثانية - أن الإسلام ليس بشرط فى الإحصان ، لأنه صلى الله عليه وسلم رجم اليهوديين ، ونزلت الآية مقررة له . انتهى - أى على القول بذلك ، والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى التولى والإعراض « بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ » أى بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم « وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » من قولهم ذلك . وفى التعبير بالغرور والافتراء إعلام بأن ماحدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون . ثم رد قولهم المذكور ، وأبطل ما غرهم باستعظام ما أعدّ لهم ، وتهويله ، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم فى دفعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« فَكَيْفَ » يصنعون ، وكيف تكون حالتهم « إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ لَيَوْمٍ » أى فى يوم

« لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لا شك ، وهو يوم القيامة « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ » أى جزاء ما عملت من خير أو شر « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » الضمير لكل نفس على المعنى . لأنه فى معنى كل إنسان . أى لا يظلمون بزيادة عذاب ، أو بنقص ثواب . ثم علم تعالى نبيه ﷺ كيف يدعوهم ويمجدهم بقوله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَنْ تَشَاءُ ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ » أى مالك جنس الملك على الإطلاق ملكاً حقيقياً بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء . إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة . وتعذيباً وإثابة . من غير مشارك ولا ممانع « تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك ، وتحقيق لا اختصاصها به تعالى حقيقة ، وكون مالكية غيره بطريق المجاز ، كما ينبىء عنه إيثار (الإيتاء) الذى هو مجرد الإعطاء على (التمليك) المؤذن بثبوت المالك حقيقة - أفاده أبو السعود - وفى التعبير : (مَنْ) العامة للعقلاء إشعار بمنال الملك من لم يكن من أهله ، وأخص الناس بالبعد منه العرب ، ففيه إشعار بأن الله ينزل ملك فارس والروم العرب ، كما وقع منه ماوقع ، وينتهى منه ما بقى ، إلى من نال الملك بسببها وعن الاستناد إليها ، من سائر الأمم الذين دخلوا فى هذه الأمة من قبائل الأعاجم ، وصنوف أهل الأفطار ، حتى ينتهى الأمر إلى أن يسلب الله الملك جميع أهل الأرض بظهور ملك يوم الدين - كذا فى البقاعى - « وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَنْ تَشَاءُ بِبَيْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

«تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ» أى تدخل أحدهما في الآخر، إما بالتعقيب أو بالزيادة والنقص «وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» كالحیوان من النطف والنطف منه ، والبيض من الطير وعكسه . وقيل : إخراج المؤمن من الكافر وبالعكس . قال القفال : والكلمة محتملة للكل ، أما الكفر والإيمان فقال تعالى : أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ^(١) . يريد كان كافراً فهديناه ، فجعل الموت كفراً والحياة إيماناً ، وسعى إخراج النبات من الأرض إحياء ، وجعلها قبل ذلك ميتة ، فقال : يُخْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٢) . وقال : فَسَقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^(٣) . وقال : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٤) . «وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» أى رزقاً واسماً غير محدود .

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٢] ونصها : أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(٢) [٣٠ / الروم / ٥٠] ونصها : فَانْظُرْ إِلَىٰ ءِثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٣) [٣٥ / فاطر / ٩] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ » جمع وليّ ، ومعانيه كثيرة. منها المحب والصديق والنصير . قال الزمخشريّ : نهوا أن يوالوا الكافرين لقراءة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يُتصادق بها ويُتعاشر . وقد كرر ذلك في القرآن : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ^(١) . لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ^(٢) . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . الآية^(٣) - والمحبة في الله ، والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان. وقوله تعالى « مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » حال. أى متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالاً أو اشتراكاً ، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ » أى ومن يوال الكفرة فليس من

(١) [٥ / المائدة / ٥١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

(٢) [٥٨ / المجادلة / ٢٢] ونصها : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيَدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية ، يعني أنه منسلخ من ولاية الله رأساً . وهذا أمر معقول ، فإن موالة الولي وموالة عدوه متنافيان ، قال :

تود عدوى ثم تزعم أنني صديقك . ليس النوك عنك بعازب
- أفاده الزمخشري - « إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » أي تخافوا منهم مخذوراً ، فأظهروا معهم الموالة باللسان دون القلب لدفعه ، كما قال البخاري عن أبي الدرداء أنه قال ^(١) : إنا لنكثير في وجوه أقوام وقلوبنا تلغهم . وأصل « تقاة » وقية ، ثم أبدلت الواو تاء ، كتخمة وتهمة وقلت الياء ألفاً . وفي المحكم : تقاة يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون جمعاً ، والمصدر أجود ، لأن في القراءة الأخرى : تقية .

تنبيه :

قال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية الكريمة تحريم موالة الكفار ، لأن الله تعالى نهى عنها بقوله : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ » ^(٢) ثم استثنى تعالى (التقية) فرخص في موالاتهم لأجلها . فتجوز معاشرة ظاهرة ، والقلب مطمئن بالعداوة لهم والبغضاء وانتظار زوال المانع . وقد قال الحاكم : في الآية دلالة على جواز إظهار تعظيم الظلمة ، اتقاء لشرهم . قال : وإنما يحسن بالمعاريض التي ليست بكذب . وقال الصادق : التقية واجبة ، وإنني لأسمع الرجل في المسجد يشتمني فأستتر عنه بالسارية لئلا يراني . وعن الحسن : تقية باللسان ، والقلب مطمئن بالإيمان .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٨٢ - باب المداراة مع الناس ونصه :

ويذكر عن أبي الدرداء : إنا لنكثير في وجوه قوم ، وإن قلوبنا تلغهم .

(٢) [٣ / آل عمران / ٢٨] ونصها : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ،

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

واعلم أن الموالاة ، التي هي المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار ، لا تجوز . فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة ، وفي ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخفاف ، فجواب ذلك : أن المراد موالاتهم في أمر الدين ، وفيما فيه تعظيم لهم . فإن قيل . في سبب نزول الآية أنه ﷺ منع عبادة بن الصامت عن الاستعانة باليهود على قريش ، وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش ، وفي هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم ، وقد ذكر الراضى بالله أنه يجوز الاستعانة بالفساق على حرب المبطلين ، قال : وقد حالف رسول الله ﷺ اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب . وحدّ ﷺ الحلف بينه وبين خزاعة . قال الراضى بالله : وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام ، وقد استعان علىّ عليه السلام بقتلة عثمان . ولعل الجواب - والله أعلم - أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها . ويحمل على هذا استعانة الرسول ﷺ لليهود . ومنعوه مع عدم الحاجة ، أو خشية مضرة منهم . وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت . فصارت الموالاة المحظورة تكون بالمعاداة بالقلب للؤمنين والمودة للكفار على كفرهم ، ولا لبس في تحريم ذلك ، ولا يدخله استثناء . والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخاللة والمصادقة بإظهار الأسرار ونحو ذلك ، فلا لبس في تحريم ذلك ولا يدخله استثناء . والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخاللة والمشاورة فيما لا يضر المسلمين ، فظاهر كلام الرخشريّ أنه لا يجوز إلا للتقية . فحصل من هذا أن الموالاة للكافر والفساق عاصٍ ، ولكن أين تبلغ معصيته ؟ يحتاج إلى تفصيل : إن كانت الموالاة بمعنى المودة ، وهي أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية . وإن كانت الموالاة كفراً . كفر . وإن كانت فسقاً ، فسق . وإن كانت لا توجب كفراً ولا فسقاً ، لم يكفر ولم يفسق . وإن كانت الموالاة بمعنى المخالفة والمناصرة ، فإن كانت مخالفة على أمر مباح أو واجب ، كأن يدفع المؤمنون عن أهل الذمة من يتعرض لهم ، ويخالفونهم على ذلك ، فهذا لا حرج فيه بل هو واجب . وإن كانت على أمر محظور كأن يخالفوهم على أخذ أموال المسلمين والتحكّم عليهم ، فهذه معصية

بلا إشكال ، وكذلك إذا كانت بمعنى أنه يظهر سر المسلمين ويحبّ سلامة الكافرين لا لكفرهم بل ليدلّهم عليه أو لقراءة أو نحو ذلك ، فهذا معصية بلا إشكال . لكن لا تبلغ حدها الكفر لأنه لم يُروَ أن رسول الله ﷺ حكم بكفر حاطب بن أبي بلتعة (١) .

(١) هذه هي حادثة حاطب بن أبي بلتعة يرويها الإمام البخاري في صحيحه في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٤١ - باب الجاسوس وقول الله تعالى : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ . عن عبيد الله بن أبي رافع قال : سمعت عليا رضي الله عنه يقول : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود ، قال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها .

فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : مامى من كتاب . قلنا : لتُخرجي الكتاب ، أو لنُلقيَنَّ الثياب . فأخرجته من عقاصها .

فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ « يا حاطب : ما هذا ؟ » .

قال : يا رسول الله ! لا تعجل عليّ . إني كنت امرأة ملصقا في قريش - ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم . فأحببت ، إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن آخذ عندهم يداً يحمون بها قرايتي . وما فعلت كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ « لقد صدقكم » .

قال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق .

قال « إنه شهيد بدار . وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقال الراضى بالله : إن مناصرة الكفار على المسلمين توجب الكفر . لأنه ﷺ قال للعباس : ظاهرنا علينا . وقد اعتذر بأنه خرج مكرهاً . وأما مجرد الإحسان إلى الكافر فجائز لا يستعين به على المسلمين ، ولا لإيناسه . وكذلك أن يضيق لضيقه فى قضية معينة لأمر مباح فجائز ، كما كان من ضيق المسلمين من غلب فارس الروم . فصار تحقيق المذهب أن الذى يوجب الكفر من الموالاة أن يحصل من الموالى الرضا بالكفر . والذى يوجب الفسق أن يحصل الرضا بالفسق . إن قيل : فما حكم من يجند مع الظلمة ليستعينوا به على الجبايات وأنواع الظلم ؟ قلنا : عاص بلا إشكال ، وفاسق بلا إشكال لأنه صار من جملتهم . وفسقهم معلوم . فإن قيل : فإن تجند معهم لحرب إمام المسلمين ؟ قلنا : صار باغياً ، وحصل فسقه من جهة البغى والظلم . فإن قيل : حكى عن المهديّ على بن محمد عليه والسلام أنه كفر من تجند مع سلطان اليمى وقضى برده ، قلنا : هذا يحتاج إلى بيان وجه التفكير بدليل قطعى ، وإن ساغ أن تقول ذلك اصطلاحاً لأمر الإمام كما رد الهادى عليه السلام شهادة من امتنع من بيعة الإمام كان ذلك محتملاً - انتهى كلامه رحمه الله .

ومن هذه الآية استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف ، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليمانى فى كتابه (إثبات الحق على الخلق) فقال ما نصه :
وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران :

أحدهما - خوف العارفين ، مع قتلهم ، من علماء السوء وسلاطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، ولا برج الحق عدواً لأكثر الخلق . وقد صح عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال فى ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١) وعائنه فأما أحدهما فبثنته فى الناس ، وأما الآخر فلو بثنته لقطع هذا البلعوم . وما زال الأمر فى ذلك

(١) أخرجه البخارى فى : ٣ - كتاب العلم ، ٤٢ - باب حفظ العلم ، حديث ١٠٣ .

يتفاحش . وقد صرح الغزاليّ بذلك في خطبة (المقصد الأسنى) ولوّح بمخالفته أصحابه فيها كما صرح بذلك في شرح (الرحمن الرحيم) فأثبت حكمة الله ورحمته ، وجوّد الكلام في ذلك ، وظن أنهم لا يفهمون المخالفة ، لأن شرح هذين الاسمين ليس هو موضع هذه المسألة ، ولذلك طوى ذلك ، وأضرب عنه في موضعه ، وهو اسم الضار كما يعرف ذلك أذكىاء النظار .
وأشار إلى النقية الجوينيّ في مقدمات (البرهان) في مسألة قدم القرآن . والرازيّ في كتابه المسمى (بالأربعين في أصول الدين) - إلى آخر ما ساقه المرتضى فانظره .
« وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » أى ذاته المقدسة ، فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه ، وموالاته أعدائه ، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي النهي في القبح . وذكر النفس ، ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى ، فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة « وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ » أى القلب والمرجع ليجازى كل عامل بعمله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ إِنْ تَخْضَعُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْذُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« قُلْ إِنْ تَخْضَعُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْذُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » هذا توعّد . وأراد إخفاء مودة الكفار وموالاتهم وإظهارها . أو تكذيب النبيّ صلى الله عليه وآله ، أو الكفر . وفي هذه الآية تنبيه منه تعالى لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه ، فإنه عالم بجميع أمورهم وقادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يعمل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال بعد هذا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » بصور تناسبه ، أو في صف الملائكة ، أو المعنى جزاء ما عملت « وَ » تجد « مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ » أى عملها السوء « أَمَدًا بَعِيدًا » أى غاية بعيدة لا يصل أحدهما إلى الآخر ، و (تود) في موضع الحال. والتقدير : وتجد ما عملت من سوء محضراً ، وادّة ذلك « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ » كرره ليكون على بالٍ منهم لا يفتلون عنه - كذا في الكشف - .

وقال أبو السعود : تكرير لما سبق وإعادة له ، لكن لالتأكيد فقط ، بل لإفادة ما يفيد قوله عز وجل « وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ، ورحمته الواسعة ، أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه ، وأن تحذيره ليس مبنياً على تناسي صفة الرأفة ، بل هو متحقق مع تحققها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ « قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب في دعواه تلك ، حتى يتبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت في الصحيح ^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد .

(١) أخرجه البخاري في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٠ - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ، لقول النبي ﷺ . . .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)
« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا » أَعْرَضُوا عَنِ الطَّاعَةِ « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)
« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ » أى اختار بالنبوة « آدَمَ » تخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ،
وعلمه أسماء كل شىء ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له فى ذلك من الحكمة « وَ » اصطفى
« نُوحًا » فجعله أول رسول إلى أهل الأرض ، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم
ينزل به سلطاناً ونجى من اتبعه فى السفينة وأغرق من عصاه « وَ » اصطفى « آلَ إِبْرَاهِيمَ »
أى عشيرته وذوى قرباه ، وهم إسماعيل وإسحق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبى ﷺ ،
وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفاؤهم بطريق الأولوية . وعدم التصريح
به للإيدان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى الخلقة ، وكونه إمام الأنبياء وقدوة الرسل عليهم
الصلاة والسلام ، وكون اصطفاء آلِهِ بدعوته بقوله : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ^(١)
- الآية - ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : أنا دعوة أبى إبراهيم « وَ » اصطفى « آلَ عِمْرَانَ »
إذ جعل فيهم عيسى عليه الصلاة والسلام الذى أوتى البينات وأيد بروح القدس ، والمراد
بعمران هذا والد مريم أم عيسى عليهما السلام « عَلَى الْعَالَمِينَ » أى على زمانهم . أى

(١) [٢ / البقرة / ١٢٩] ونصها : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه . قال السيوطي في (الإكليل) : يستدل بهذه الآية على تفضيل الأنبياء على الملائكة لدخولهم في العالمين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« ذُرِّيَّةٌ » أى نسلاً . نصب على البدلية من الآلئ ، أو على الحالية منهما .

لطيفة :

الذرية مثلثة ، ولم تسمع إلا غير مهموزة . اسم لنسل الثقلين . وقد تطلق على الآباء والأصول أيضاً . قال الله تعالى : وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . (١) قال الصاغاني : وفي اشتقاقها وجهان : أحدهما أنها من الذرء ووزنها فعولة أو فعيلة . والثاني : أنها من الذر بمعنى التفريق لأن الله ذرهم في الأرض ووزنها فعيلة أو فعولة أيضاً . وأصلها ضرورة قلبت الراء الثالثة ياء كما في تقضت العقاب . كذا في القاموس وشرحه (٢) .

(١) [٣٦ / يس / ٤١] .

(٢) جاء في اللسان . مادة ذراً ما يأتي :

قال ابن برى : جعل الجوهرى الذرية أصلها ذُرِّيَّةٌ بالهمز . تخففت همزتها . وألزم التخفيف .

قال : ووزن الذرية ، على ما ذكره ، فُعَيْلةٌ ، من ذراً الله الخلق . وتكون بمنزلة مُرَبِّقةٍ وهى الواحدة من العصف .

وغير الجوهرى يجعل الذرية فُعَلِيَّةً من الذررى . وفُعْلولة ، فيكون الأصل ذُرْوَرَةٌ . ثم قلبت الراء الأخيرة ياء لتقارب الأمثال . ثم قلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء ، وكسر ما قبل الياء ، فصارت ذُرِّيَّةً .

« بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » في محل النصب على أنه صفة لذرية . أى اصطفى الآلئ حال كونهم ذرية متسلسلة البعض من البعض في وراثة الاصطفاء « وَاللَّهُ سَمِيعٌ » لأقوال العباد « عَلِيمٌ » بضائرهم وأفعالهم . وإنما يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلًا . ونظيره قوله تعالى : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ^(١) . وقوله : إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ^(٢) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ » في حيز النصب على المفعولية ، بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران ، وبيان كيفيته . أى اذ كر لهم وقت قولها الخ . وامرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام .
فائدة :

قال العلامة النورى في (غيث النفع) : (امراة عمران) رسمت بالنساء ، وكل ما في كتاب الله جل ذكره من لفظ (امرأة) فبالهاء . إلا سبع مواضع ، هذا الأول ، والثانى والثالث بيوسف (امراة العزيز تراود) (امراة العزيز الآن) والرابع بالقصص (امراة

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٤] ونصها : وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ .

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] ونصها : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

فرعون) ، الخامس والسادس والسابع بالتحريم (امرأت نوح وامرأت لوط وامرأت فرعون) فلو وقف عليها ، فالمكيّ والنحويان يقفون بالهاء ، والباقون بالتاء - انتهى (١) .
« رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا » أى مخلصاً للعبادة (عن الشعبي)
أو خادماً يخدم فى متعبداتك . حرره جعله نذيراً فى خدمة المعبد ما عاش ، لا يسهه تركه فى دينه (عن الزجاج) . وفى الآية دلالة على صحة نذر الأم بولدها ، وأن للأم الانتفاع بالولد الصغير لمنافع نفسها ، لذلك جعلته للغير . والمعنى : نذرته وفقاً على طاعتك ، لا أشغله بشيء من أموري . قال أبو منصور فى (التأويلات) : جعلت ما فى بطنها لله خالصاً لم تطلب منه

(١) هذا بيان المواضع الستة التى كتبت فيها (امرأت) بالتاء .

١ - [١٢ / يوسف / ٣٠] ونصها : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

٢ - [١٢ / يوسف / ٥١] ونصها : قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنِ حُشِّنَا اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ .

٣ - [٢٨ / القصص / ٩] ونصها : وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

٤ ، ٥ - [٦٦ / التحريم / ١٠] ونصها : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ .

٦ - [٦٦ / التحريم / ١١] ونصها : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

الاستثناس به ولا ما يطمع الناس من أولادهم ، وذلك من الصفوة التي ذكر عز وجل . وهكذا
الواجب على كل أحد إذا طلب ولداً أن يطلب للوجه الذي طلبت امرأة عمران وزكريا حيث
قال « رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » ^(١) وما سأل إبراهيم « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » ^(٢)
وكقوله : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا » ^(٣) هكذا الواجب أن يطلب الولد ، لا ما يطلبون من الاستثناس والاستنصار
والاستعانة بأمر المعاش بهم - انتهى - . « فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »
أى تقبل منى قربانى وما جعلت لك خالصاً ، والتقبل أخذ الشئ على وجه الرضا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ
الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ)

« فَلَمَّا وَضَعَتْهَا » الضمير لما فى بطنى ، وإنما أنت على المعنى ، لأن ما فى بطنها كان
أنثى فى علم الله ، أو على تأويل النفس أو النسيئة « قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » أى وكنت
رجوت أن يكون ذكراً ، وإنما تحسرت أو اعتذرت إذ جهلت قدرها « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
وَضَعْتَ » قرئ فى السبع بسكون التاء وضمها ، فعلى القراءة الأولى تكون الجملة المعترضة
من كلامه تعالى ، إما لدفع ما يتراءى من أن قولها « رَبِّ وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ » قصدت بها إعلام

(١) [٣ / آل عمران / ٣٨] ونصها : هُنَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي
مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

(٢) [٣٧ / الصافات / ١٠٠] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٧٤] .

الله تعالى عن أن يحتاج إلى إعلامها ، فأزيلت الشبهة بقوله « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ » هذا ما يترأى لى . وإما لما ذكره من أن الاعتراض تعظيم من جهته تعالى لموضوعها ، وتفخيم لشأنه ، وتجهيل لها بقدره ، أى والله أعلم بالنفس التى وضعتها ، وما علق بها من عظام الأمور ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، وهى غافلة عن ذلك . وعلى القراءة الثانية أعنى ضم التاء ، فالاعتراض من كلامها . إما للوجه الأول من الوجهين السابقين كما استظهرته ، أو لما ذكره من قصد الاعتذار إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته ، أو تسليمة نفسها على معنى : لعل الله تعالى فيه سرًا وحكمة ، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر « وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى » جملة معترضة أيضاً ، إما من كلامه تعالى قصد به معذرتها فى التحسر والتحزن ببيان فضل الذكر على الأنثى ، ولذا جبلت النفوس على الرغبة فيه دونها ، سيما فى هذا المقام أعنى مقام قصد إخلاص النذير للعبادة . فإن الذكر يفضلها من وجوه منها : أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ولا يصح ذلك فى الأنثى لمكان الحيض فيه وسائر عوارض النسوان . ومنها : أن الذكر يصلح لقوته وشدة للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة . ومنها : أن الذكر لا يلحقه عيب فى الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى . ومنها : أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى . فهذه الوجوه تقتضى فضل الذكر على الأنثى فى هذا المقام . واللام فى (الذكر والأنثى) على هذا الملحظ ، للجنس - كذا ظهر لى - وعلى قولهم اللام للعهد فهما أى ليس الذكر الذى طلبته وتخلت فيه كالألا ، قصاره أن يكون كواحد من الأخبار ، كالأنثى التى وهبت لها . فإن دائرة علمها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور . هذا ، وإما أن تكون هذه الجملة من كلامها ، والقصد حينئذ تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالأنثى فى الفضيلة والمزية ، وصلاحيه خدمة المتعبدات ، فإنهن بمعزل عن ذلك ، فاللام للجنس .

لطيفة :

قيل : قياس كونه من قولها أن يكون « وليست الأنثى كالذكر » فإن مقصودها تنقيص

الأنثى بالنسبة إلى الذكر . والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل ، لا العكس . قال الناصر في (الانتصاف) وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت عين ما قيل . ألا ترى إلى قوله تعالى : لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ^(١) ، فنفى عن الكامل شبه الناقص ، مع أن الكامل لأزواج النبي ﷺ ثابت بالنسبة إلى عموم النساء ، وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران ، والله أعلم . ومنه أيضاً : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٢) . انتهى . « وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ » قال المفسرون : هي في لغتهم بمعنى العابدة ، ستمها بذلك رجاءً وتفاؤلاً أن يكون فعلها مطابقاً لاسمها . لكن رأيت في تأويل الأسماء الموجودة في التوراة والإنجيل أن مريم معناه مرارة أو مر البحر . فلينظر . قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية دليل على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة وأنه لا يتعين يوم السابع ، لأنها إنما قالت هذا بأثر الوضع ، كما فيها مشروعية التسمية للأُم ، وأنها لا تختص بالأب . ثم طلبت عصمتها فقالت : « وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ » أي أُجيرُها بحفظك « وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أي المطرود لمخالفتك ، فلا تجعل عليها وعلى ذريتها له سلطاناً يكون سبباً لطردها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ » أي قبلها أو تكفل بها ، ولم يقل (بِتَقَبُّلٍ) ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] ونصها : يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ،
إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

(٢) [١٦ / النحل / ١٧] .

للجمع بين الأمرين : التقبل الذى هو الترقى فى القبول، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة. قال المهايى : بقبول حسن يجعلها فوق كثير من الأولياء « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا » يجعل ذريتها من كبار الأنبياء - انتهى - وقال الزمخشري : نباتها مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها ، أى كالصلاح والسداد والعفة والطاعة « وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا » أى ضمها إليه ، وقرئ بالتشديد. ونصب زكريا ممدود أو مقصوراً والفاعل الله . أى جعله كافلاً لها وضامناً لمصلحتها ، وقائماً بتدبير أمورها . وقد روى أن أمها أخذتها وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار وقالت : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها إذ كانت بنت إمامهم ، وصاحب قربانهم ، وأحب كل أن يحظى بتربيتها، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها . عندى خالتها ، فأبوا إلا القرعة ، وانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم . على أن من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها ، فطفأ قلم زكريا ، ورسبت أقلامهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالى فى آية أخرى : إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ (١) . فأخذها زكريا ورباها فى حجر خالتها، حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء ، انزوت فى محرابها تتعبد فيه وصارت بحيث « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . فى الآية مسائل :

الأولى - فى معنى المحراب : فى القاموس وشرحه ما نصه : والمحراب : الغرفة والموضع العالى ، نقله الهروى فى غريبه عن الأصمعى ، قال وضاح اليمى :
ربة محراب إذا جئها لم ألقها أو أرتقى سلماً
وقال أبو عبيدة : المحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها . قال : وكذلك هو من المساجد .

(١) [٣ / آل عمران / ٤٤] ونصها : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

وعن الأصمعيّ : العرب تسمى القصر محراباً لشرفه . وقال الأزهريّ : المحراب عند العامة الذي يفهمه الناس مقام الإمام من المسجد . قال ابن الأنباريّ : سمي محراب المسجد لانفراد الإمام فيه ، وبعده من القوم . ومنه يقال : فلان حرب لفلان إذا كان بينهما بعد وتباغض . وفي المصباح : ويقال هو مأخوذ من المحاربة لأن المصلي يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه ، ثم قال : ومحارب بني إسرائيل هي مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها . انتهى .

الثانية - في الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى ، كما وجد ، عند خبيب^(١) ابن عديّ الأنصاريّ رضي الله عنه المستشهد بمكة ، قطفُ عنب . كما في البخاريّ . وفي الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة . ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعرائيّ في (اليواقيت) عن العارف أبي الحسن الشاذليّ قدس سره أنه قال : إن مريم عليها السلام كان يتعرف إليها في بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لإيمانها وتكميلاً ليقينها ، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . فلما قوى إيمانها ويقينها ردت إلى السبب لعدم وقوفها معه ، فقليل لها : وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، انتهى .

الثالثة - قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ » الخ تعليل لكونه من عند الله . إما من تمام كلامها فيكون في محل نصب . وإما من كلامه عز وجل فهو مستأنف . ومعنى (بغير حساب) أي بغير تقدير لكثيرته . وإما بغير استحقاق تفضلاً منه تعالى .

الرابعة - زكريا المنوه به هنا هو والد يحيى عليهما السلام . ومعنى زكريا تذكّار الرب . كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل .

(١) انظر في صحيح البخاريّ في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٧٠ - باب هل يستأسر الرجل ، ومن لم يستأسر ، ومن ركع ركعتين عند القتل ، تجد فيه قصة خبيب ومقتله مسرودة بتفصيل واف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » كلام مستأنف ، وقصة مستقلة ، سقت في تضاعيف حكاية مريم ، لما بينهما من قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك ، مع ما في إيرادها من تقرير ما سقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران . فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين . و « هنا » ظرف مكان ، أى في ذلك المكان ، حيث هو عند مريم في المحراب ، أو ظرف زمان أى في ذلك الوقت ، إذ يستعار (هنا و تمت و حيث) للزمان ، دعا زكريا ربه لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب في أن يكون له من زوجته ولد مثل ولد أختها في النجاة والكرامة على الله تعالى . وإن كانت عاقراً عجوزاً - كذا في أبي السعود - والذرية هنا الولد ، قال الزمخشري : تقع على الواحد والجمع ، وقد سبق الكلام عليها قريباً عند قوله تعالى « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » وقوله « طَيِّبَةً » بمعنى مطيبة لك ، لأن ذلك طلبه أهل الخصوص كما سبق إيضاحه في آية « رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ... » الخ. وقوله تعالى « إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » أى مجيبه ، وقد أجابه الحق تعالى ، فأرسل إليه الملائكة بمبشرة كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ

« فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ » أى على ألسنتنا « بِيَحْيَى » وقد قرئ في السبع بكسر « إن » وفتحها ، ولفظ (يحيى) معرب عن (يوحنا)

اسمه في العبرانية . ومعنى يوحنا نعمة الرب . كما في تأويل أسماء التوراة والانجيل « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةِ مَنْ اللَّهِ » أى بنى خلق بكامة (كن) من غير أب . يرسله الله إلى عباده فيصدقته هو . وذلك عيسى عليه السلام « وَسَيِّدًا » أى يسود قومه ويفوقهم « وَحَصُورًا » أى لا يقرب النساء حصراً لنفسه أى منعاً لها عن الشهوات عفة وزهداً واجتهاداً في الطاعة « وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » أى ناشئاً منهم لأنه من أصلابهم . أو كائناً من جملتهم . كقوله : وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ^(١) . ولما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ،

قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)

« قَالَ رَبِّ أَنَّى » أى كيف أو من أين « يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ » أى أدركنى الكبر الكامل المانع من الولادة فأضعفنى « وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ » أى ذات عقر ، فهو على النسب ، وهو فى المعنى مفعول أى معقورة ، ولذلك لم يلحق تاء التأنيث « قَالَ كَذَلِكَ » يكون لك الولد على الحال التى أنت وزوجتك عليها لأن الله تعالى لا يحتاج إلى سبب بل « اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر . وفى إعراب « كذلك » أوجه . منها : أنه خبر لمحدوف أى الأمر كذلك . وقوله تعالى « اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » بيان له . ومنها أن الكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف . أى الله يفعل ما يشاء فعلاً من ذلك الصنع العجيب الذى هو خلق الولد من شيخ فإن وعجوز عاقر .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٠] ونصها : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشَى وَالْإِبْكَارِ)

« قَالَ » زكريا « رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً » أى علامة أعرف بها حصول الحمل . وإنما سألها لكون العلوق أمراً خفياً لا يوقف عليه . فأراد أن يعلمه الله به من أوله ليتلقى تلك النعمة بالشكر من أولها ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهوراً معتاداً « قَالَ » الله تعالى « آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ » أى أن لا تقدر على تكليمهم « ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » أى إشارة بييد أو رأس . وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكره تعالى شكراً على ما أنعم به عليه . وقيل : كان ذلك عقوبة منه تعالى بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه - حكاه القرطبي عن أكثر المفسرين - « وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا » أى ذكراً كثيراً « وَسَبِّحْ » أى وسبحه « بِالْعُشَى » وهو آخر النهار . ويقع العشى أيضاً على ما بين الزوال والغروب « وَالْإِبْكَارِ » وهو الغدوة أو من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس . قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية الحث على ذكر الله تعالى وهو من شعب الإيمان . قال محمد بن كعب : لو رخص الله لأحد في ترك الذكر لرخص لزيكريا لأنه منعه من الكلام وأمره بالذكر - أخرجه ابن أبي حاتم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ » شروع في تنمة فضائل آل عمران . قال المهايي : فيه إشارة إلى جواز تكليم الملائكة الولي ، ويفارق النبي في دعوى النبوة « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ » بالتقريب والمحبة « وَطَهَّرَكِ » عن الرذائل ليدوم انجذابك إليه « وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ »

بالتفضيل وبما أظهره من قدرته العظيمة حيث خلق منك ولداً من غير أب ، ولم يكن ذلك لأحد من النساء . وفي (الإكليل) : استدل بهذه الآية من قال بنبوة مريم . كما استدل بها من فضلها على بنات النبي ﷺ وأزواجه . وجوابه : أن المراد على زمانها - قاله السدي - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)

« يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ » أى اعبديه شكراً على اصطفائه « وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » أى لترددي بكثرة السجود والصلاة قرباً . قال البقاعي : الظاهر أن المراد بالسجود هنا ظاهره ، وبالركوع الصلاة نفسها ، فكأنه قيل : واسجدي مصلية ، ولتكن صلاتك مع المصلين ، أى فى جماعة ، فإنك فى عداد الرجال لما خصصت به من الكمال . ثم قال : وإنما قلت هذا لأنى تبعت التوراة فلم أره ذكر فيها الركوع فى صلاة إبراهيم ولا من بعده من الأنبياء عليهم السلام ، ولا أتباعهم إلا فى موضع واحد ، لا يحسن جعله فيه على ظاهره . ورأيت ذكر الصلاة فيها على ثلاثة أنحاء : الأول - إطلاق لفظها من غير بيان كيفية ، والثانى - إطلاق لفظ السجود مجزئاً ، والثالث - إطلاقه مقروناً بركوع أو جبو أو خرو أو على الوجه . ونحو ذلك . ثم ساق البقاعي ما وقع من النصوص فى ذلك . وقال بعد : فالذى فهمته من هذه الأماكن وغيرها أن الصلاة عندهم تطلق على الدعاء وعلى فعلٍ هو مجرد السجود ، فإن ذكر معه ما يدل على وضع الوجه على الأرض فذاك ، وحينئذ يسمى صلاة . وإلا كان المراد به مطلق الانحناء للتعظيم . وذلك موافق للغة ، قال فى القاموس : سجد خضع ، والخضوع التظامن ، وأما المكان الذى ذكر فيه الركوع فالظاهر أن معناه فعل الشعب كله ساجداً لله ، لأن الركوع يطلق فى اللغة على معان ، منها الصلاة يقال : ركع أى صلى ، وركع إذا انحنى كثيراً ، ولا يصح حمل الركوع على ظاهره لأنه لا يمكن فى حال السجود ، وإن ارتكب فيه تأويل لم يكن تأويل مما ذكرته

في الركوع - والله أعلم - واحتججت باللغة لأن مترجم نسخة التوراة ، التي وقعت لي ، في عداد البلغاء ، يعرف ذلك من تأمل مواقع ترجمته لها . على أني سألت عن صلاة اليهود الآن فأخبرت أنه ليس فيها ركوع ، ثم رأيت البنويّ صرح في قوله تعالى . وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ^(١) . بأن صلاتهم لا ركوع فيها ، وكذا ابن عطية وغيرها . انتهى كلام البقاعي .
لطيفة :

قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية دليل على أن الجماعة مطلوبة في الصلاة ، وعلى أن المرأة تندب لها الجماعة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ماسبق « مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ » أي من الأنباء المغيبة عنك « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » مطابقاً لما في كتابهم . وتذكير الضمير في « نُوحِيهِ » يجعل مرجعه ذلك « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » أي وما كنت معاً لفعلمهم وما جرى من أمرهم في شأن مريم إذ يلقون أقلامهم أي سهامهم التي جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم على جهة القرعة « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » بسببها تنافساً في كفالتها . وقد روى عن قتادة وغيره أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم . فأيهم ثبت في جرية الماء فهو كافلها . فألقوا أقلامهم ، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا ، فإنه ثبت ، ويقال إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء - والله أعلم - قال أبو مسلم : معنى يلقون

(١) [٢ / البقرة / ٤٣] ونصها : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

أفلامهم ، مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم ، فمن خرج له السهم سلم له الأمر ، وقد قال الله تعالى : فَسَاهِمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ^(١) ، وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور . وإنما سميت هذه السهام أقلاماً لأنها تقلم وتبرى ، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قامت ، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلاماً . وقال السيوطي في (الإكليل) : هذه الآية أصل في استعمال القرعة عند التنازع . وقال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أنه يجوز التخاضع لطلب الفضل حتى يتميز واحد بمزية ، ودلت على أن التمييز يحصل بالقرعة في الأمر الملبس .

لطيفة :

قال الزحشرى : فإن قلت : لم نفيت المشاهدة ، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ، وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها ، وهو موهوم ؟ قلت : كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة ، وكانوا منكرين للوحى ، فلم يبق إلا المشاهدة ، وهى فى غاية الاستبعاد والاستحالة ، فنفيت على سبيل التهم بالمنكرين للوحى ، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة . ونحوه : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ^(٢) ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ^(٣) ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ^(٤) - انتهى - وبالجملة ، فالنفي تقرير وتحقيق لكون تلك الأنباء حياً على طريقة التهم بمنكره .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤١] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

(٣) [٢٨ / القصص / ٤٦] ونصها : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

(٤) [١٢ / يوسف / ١٠٢] ونصها : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

« إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » شروع في قصة عيسى عليه السلام « يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ » أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب « اسْمُهُ » ذكر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر . أى اسمه الذى يميزه لقباً « الْمَسِيحُ » وعلماً « عِيسَى » معرب يسوع بالسين المهملة كلمة يونانية معناها (مخلص) ويرادفها (يشوع) بالمعجمة ، إلا أنها عبرانية كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل . وفيها أن المسيح بمعنى الممسوح أو المدهون . قال البقاعي : وأصل هذا الوصف أنه كان في شريعتهم من مسحه الإمام بدهن القدس كان طاهراً متأهلاً للملك والعلم والولايات الفاضلة مباركاً ، فدل سبحانه على أن عيسى عليه السلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يمسخ . انتهى . وإنما قال « ابْنُ مَرْيَمَ » مع كون الخطاب لها ، تنبيهاً على أنه يولد من غير أب ، فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت على نساء العالمين « وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى سيداً ومعظماً فيهما « وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » أى من الله عز وجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ)

« وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ » في محل النصب على الحال « وَكَهْلًا » عطف عليه بمعنى ويكلم الناس ، حال كونه طفلاً وكهلاً ، كلام الأنبياء من غير تفاوت بين الحالتين ، وذلك لاشك أنه غاية في المعجز . وفي ذلك بشارة ببقائه إلى أن يصير كهلاً . والمهد الموضع الذى يهيا للصبي ويوطأ لينام فيه . والكهل من وخطه الشيب ، أو من جاوز الثلاثين إلى

الأربعين أو الخمسين . قال ابن الأعرابي : يقال للسلام مراهق ، ثم محتلم ، ثم يقال : تخرج وجهه ، ثم اتصلت لحيته ، ثم مجتمع ، ثم كهل ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . قال الأزهري : وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكال قوته . وقوله تعالى « وَمِنَ الصَّالِحِينَ » قال ابن جرير : يعني من عدادهم وأوليائهم . لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« قَالَتْ » مخاطبة لله الذي بعث إليها الملائكة « رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ » أي لست بذات زوج « قَالَ كَذَلِكَ » أي على الحالة التي أنت عليها من عدم مس البشر « اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولا يحتاج إلى سبب ، ولا يعجزه شيء . وصرح ههنا بقوله « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » ولم يقل (يَفْعَلُ) كما في قصة زكريا ، لما أن الخلق النبي عن الأحداث للمكُون أنسب بهذا المقام لثلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكّد ذلك بقوله : « إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا » من الأمور أي أراد شيئاً كما في قوله تعالى : إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ^(١) . « فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب كقوله : وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ^(٢) . أي إنما نأمر مرة واحدة لا ثنية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلع البصر . وتقدم الكلام على هذه الآية في سورة البقرة .

(١) [٣٦ / بس / ٨٢] ونصها : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

(٢) [٥٤ / القمر / ٥٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ)

« وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ » أى الكتابة أو جنس الكتب الإلهية « وَالْحِكْمَةَ » أى تهذيب الأخلاق « وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ » إفرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة، لزيادة فضلها وإنافتهما على غيرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَابْرِئِ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ » منصوب بمضمر يقود إليه المعنى ، معطوف على (يعلمه) أى ويجعله رسولاً إلى جميع الإسرائيليين . وقيل : معطوف على الأحوال السابقة « أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ » معمول لـ (رسولاً) لما فيه من معنى النطق . أى رسولاً ناطقاً بأننى قد جئتكم « بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » التنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها ، والجار متعلق بمحذوف وقع حالاً أى متلبساً ومحتجاً بآية « أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ » الضمير للكاف أى فى ذلك الشيء المماثل لحياة الطير « فَيَكُونُ طَيْرًا » حقيقةً ذا حياة « بِإِذْنِ اللَّهِ » أى أمره ، لا باستقلال منى « وَابْرِئِ الْأَكْمَةَ » الذى ولد أعمى « وَالْأَبْرَصَ » المبتلى بالبرص وهو بياض يظهر فى البشرة لفساد مزاج . وفى (الإكليل) : هذه الآية أصل لما يقوله الأطباء : إن الأكمة الذى ولد أعمى ، والأبرص لا يمكن برؤهما كإحياء الموتى « وَأُخِي الْمَوْتَىٰ » بِإِذْنِ اللَّهِ لا باستقلال منى . نفياً لتوهم

الألوهية ، فهذه معجزات قاهرة فعلية « وَأُنَبِّئُكُمْ » أى أخبركم « بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَاتَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » مما لم أعينه « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى دلالة « لَكُمْ » على صدق فى دعوى الرسالة « إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » مصدقين بآيات الله . وقد ذكر فى الإنجيل أنه عليه السلام ردّ بصر أعمى فى كفرناحوم ، وأعمى فى بيت صيدا ، ورجل ولد أعمى فى أو رشلیم ، وشفى عشرة مصابين بالبرص فى السامرة ، وأبرأ أبرص فى كفرناحوم ، وأقام ابن الأرملة من الموت فى بلدة نايين ، وأحيا ابنة جيروس فى كفرناحوم ، والعاذر فى بيت عينا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

« وَمُصَدِّقًا » حال معطوفة على قوله (بآية) أى جئتكم بآية ومصدقًا « لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ » أى مقررًا لها ومثبتًا « وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ » قال ابن كثير: فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين . ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، وانكشف لهم عن الغطاء فى ذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : « وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ » ^(١) . والله أعلم - انتهى - أقول : من البعض الذى أحله عيسى عليه السلام لهم فعل الخير فى السبت ، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت ، ولذا لما اجتاز عليه السلام بالإسرائيليين مرة أبصر مريضاً فسأله : هل يحل أن يشفى فى السبت ؟ فقال لهم عليه السلام : أى إنسان منكم يكون له خروف ، فيسقط فى حفرة يوم السبت

(١) [٤٣ / الزخرف / ٦٣] ونصها : وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

ولا يمسه ويرفعه ؟ والإنسان كم يفضل الحروف ؟ فإذا نحل فعل الخير في السبوت ، ثم أقرأ ذلك المريض - كذا في الأصحاح الثاني عشر . من الفقرة التاسعة إلى الثالثة عشرة من إنجيل متى - وفيه في الأصحاح الخامس الفقرة السابعة عشر قول المسيح عليه السلام : لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل - انتهى - وقد اتفقوا على أن المسيح عليه السلام أقام شرائع التوراة كلها ، ثم جاء بولس ومن بعده من الرهبان فادعوا أن المسيح عليه السلام فعل ذلك كله ورفع عنهم ، إذا أكله وأتمه بفعله إياه . وكفاهم مؤونة العمل بشيء منه ، وأغناهم بشريعته الروحانية ، فنقضوا الناموس الذي جاء لإكماله المسيح . فما نقضوه إباحة كثير من الحيوانات المحرمة في الناموس الموسوي ، فنسخت حرمتها في الشريعة العيسوية ، وثبتت الإباحة العامة بفتوى بولس ، إذ قال لهم : لاشئ نجس العين . كما في رسالته إلى أهل رومية . ومما نقضوه تعظيم السبت ، فقد كان حكماً أبدياً في الشريعة الموسوية ، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل ، وكان من عمل فيه عملاً واجب القتل . ومنه أحكام الأعياد المشروعة في التوراة ، ومنه حكم الختان الذي كان أبدياً في شريعة إبراهيم عليه السلام وأولاده إلى شريعة موسى ، وقد ختن عيسى عليه السلام ، فنسخ حكمه الرهبان بعده ، كما نسخوا جميع الأحكام العملية للتوراة ، إلا الزنى ، كما بين في (إظهار الحق) ، في الباب الثالث في إثبات النسخ . وقد أسلفنا جملة جلييلة في هذا الشأن في سورة البقرة عند قوله تعالى : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا^(١) . فانظرها . « وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » كرهه تأكيذاً وليبني عليه قوله « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٥] ونصها : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

« إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا » أى ما أمركم به « صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ

نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ » أى من بنى إسرائيل « الْكُفْرَ » أى علمه ووجده منهم « قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ » جمع نصير . والجار متعلق بمحذوف وقع حالا . أى من أنصارى متوجهاً إلى الله ملتجئاً إليه « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ » وهم طائفة من بنى إسرائيل انتدبت للإيمان بالمسيح عليه السلام فوازره ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه - جمع حواري - وهو الناصر أو المبالغ فى النصرة والوزير والخليل والخالص كما فى (التوشيح) « نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ » أى أنصار دينه ورسوله « ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أى منقادون لرسالتك . ولما أشهدوه عليه السلام أشهدوا الله تعالى الأمر بما أنزل من الإيمان به وبأوامره فقالوا :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

« رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ » فأشهدناك على ما نحن عليه من تصديقنا دعواه « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى جزاء على إشهدانا إياك « مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى مع الذين يشهدون بيوحدانيتك . وهم المتقدمون فى آية (شهد الله) أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم .

لطيفة :

جاء في إنجيل متى في الأصحاح العاشر ما يأتي :

(١) ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف .

(٢) وأما أسماء الاثني عشر رسولا فهي هذه . الأول سمعان الذي يقال له بطرس وأندراوس أخوه . يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه .

(٣) فيلبس وبرثولماوس . توما ومتى العشائر . يعقوب بن حلفى ولبارس الملقب تداؤس .

(٤) سمعان القانوني ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه .

وكانوا يسمون رسل عيسى عليه السلام . لأنه بعثهم إلى الإسرائيليين الضالين يدعونهم إلى الحق الذي جاء به ، فبذلوا الجهد في بثه وانتشاره وإقامته ، إلى أن جاء بولس فسلمهم ، بخداعه ، دين المسيح الصحيح ، فلم يسمعوا له بعد من خبر ، ولا وقفوا له على أثر ، وطمس لهم رسوم التوراة ، وحلل لهم كل محرم ، كما بين ذلك في غير هذا الموضع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

« وَمَكْرُؤًا » أي الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر بأن هوا بالفتك به وإرادته بالسوء ، حيث تماثلوا عليه ووشوا به إلى ملكهم « وَمَكْرَ اللَّهِ » أي بهم بعد ذلك فانقم منهم وأورثهم ذلة مستمرة وأباد ملكهم « وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » أي أقواهم مكرًا ، وأنفذهم كيدًا ، وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب . وقال البقاعي كغيره في قوله تعالى (وَمَكْرَ اللَّهِ) : أي بأن رفعه إليه . وشبه ذلك عليهم حتى ظنوا أنهم صابوه ، وإنما صابوا أحدهم ، ويقال إنه الذي دلهم ، وأما هو عليه السلام ، فصانه عنده بعد رفعه

إلى محل أوليائه وموطن قدسه ، لينزله فى آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضربت عليهم
الذلة بعد قصدهم له بالأذى الذى طلبوا به العز إلى آخر الدهر ، فكان تدميرهم فى تدبيرهم ،
ثم أخبر تعالى ببشارته بالعصمة من مكرهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَحْتُ لَكَ الْقُرْآنَ وَرَأَيْتُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَى
مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَتَحْتُ لَكَ الْقُرْآنَ وَرَأَيْتُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَى
مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى مستوفى مدة إقامتك بين قومك . والتوفى ، كما
يطلق على الإماتة ، كذلك يطلق على استيفاء الشيء . كفى كتب اللغة . ولو ادعى أن التوفى حقيقة
فى الأول ، والأصل فى الإطلاق الحقيقة فنقول : لا مانع من تشبيه سلب تصرفه عليه السلام باتباعه
وانتهاء مدته المقدرة بينهم بسلب الحياة . وهذا الوجه ظاهر جدا ، وله نظائر فى الكتاب
العزيز ، قال تعالى : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ^(١) . قال
الزحشرى : يريد ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، أى يتوفاها حين تنام تشبيهاً
للنائمين بالموتى . ومنه قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ^(٢) . حيث لا يميزون ولا

(١) [٣٩ / الزمر / ٤٢] ونصها : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ
فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٠] ونصها : وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم
بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

يتصرفون ، كما أن الموتى كذلك - انتهى كلامه - ثم بين سبحانه في بشارته بالرفعة إلى محل كرامته وموطن ملائكته ومعدن الزاهية عن الأدناس فقال : « وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى من مكرهم وخبت صحبتهم ؛ وقد دلت هذه الآية بظاهرها على أن الله تعالى فوق سمواته كقوله تعالى : بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ^(١) . وقوله تعالى : يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ^(٢) . وقوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ^(٣) . وقوله تعالى : ءَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ^(٤) . وهو مذهب السلف قاطبة كما نقله الإمام الذهبي في كتاب (الملو) . قال أبو الوليد بن رشد في (مناهج الأدلة) : لم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتون لله سبحانه وتعالى جهة (الفوق) حتى نفى عنها المعتزلة ، ثم تبعهم على نفى متأخرو الأشاعرة كأبي المعالى ومن اقتدى بقوله - إلى أن قال : والشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء ، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين ، وأن من السموات نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ . وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء ، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك بالمعقول . وبين بطلان الشبهة التي لأجلها نفى الجهمية ومن وافقهم - إلى أن قال : فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل . وأن إبطاله إبطال الشرائع . قال الدارمي : وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سمواته . وقد بسط نصوص السلف الحافظ الذهبي في كتاب (الملو) فانظره ،

(١) [٤ / النساء / ١٥٨] .

(٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ٥] ونصها : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ .

(٤) [٦٧ / الملك / ١٦] .

هذا ، ولما كان لدوى الهمم العوال ، أشد التفات إلى ما يكون عليه خلفاؤهم من بعدهم من الأحوال ، بشره تعالى في ذلك بما بشره فقال « وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وكذا كان لم يزل من انتحل النصرانية فوق اليهود ، ولا يزالون كذلك إلى أن يعدموا فلا يبق منهم أحد « ثُمَّ إِلَىٰ مَرِّ جَعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » ثم فسر الحكم الواقع بين الفريقين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ

مِنْ نَّاصِرِينَ)

« فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ »
أى يبيغضهم ، فإن هذه الكناية فاشية في جميع اللغات ، جارية مجرى الحقيقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وهو مبتدأ وخبره « تَتْلُوهُ عَلَيْكَ » أى من غير أن يكون لك اطلاع سابق عليه . وقوله تعالى « مِنَ الْآيَاتِ » حال

من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر « وَالَّذِي كَرَّمَ الْحَكِيمِ » أى المشتغل على الحكم، أو المحكم المعصوم من تطرق الخلل إليه، والمراد به القرآن .

تنبیه :

فى قوله : إِنْنى مُتَوَفِّيكَ . وجوه فى التأويل كثيرة ، إلا أن الذى فتح المولى به مما أسلفناه هو أرجح التأويلات والله أعلم ، وبه يسقط زعم النصارى أن هذه الآية حجة علينا ، لإفادتها وفاته عليه السلام ، أى بالصلب ، ثم رفعه إلى السماء أعنى قيامه حياً بعد وفاته على زعمهم من أنه مات بجسده ، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة ، ثم أنزل ودفن فى أول ساعة من ليلة السبت ، وأقام فى القبر إلى صبيحة الأحد ، ثم انبعث حياً وترأى للنسوة اللاتى جئن إلى قبره زائرات . وقد استندوا فى هذا الزعم إلى شهادة أناجيلهم الأربع ، وشهادة تلاميذه الشفاهية فى العالم ، ثم أتباعهم وكذا شهادة اليهود بوقوع الصلب على المسيح ذاتياً . ووجه سقوط زعمهم الفاسد المذكور ما بيناه فى معنى الآية مما لا يبق معه أدنى ارتياب . وقد بين علماءنا بطلان معتقدهم هذا فى تأليف وتحارير فانظره فى (حواشى تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب) تأليف الشيخ عبد الله بك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنْ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« إِنْ مَثَلَ عِيسَى » أى شأنه العجيب فى إنشائه بالقدرة من غير أب « عِنْدَ اللَّهِ » أى فى تقديره وحكمه « كَمَثَلِ آدَمَ » أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مراتب « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » جملة مفسرة للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما . وحسم لمادة شبه الخصوم ، فإن إنكار خلق عيسى عليه السلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه السلام بغير أب وأم ، مما لا يكاد يصح - قاله أبو السعود - وقوله (خَلَقَهُ) أى صور

جسد آدم من تراب ثم قال له (كن) أى بشراً كاملاً روحاً وجسداً فإن أمره تعالى يفيد قوة التكون . قال البقاعي : وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء في (فيكون) دون الماضي ، وإن كان التبادر إلى الذهن أن المعنى عليه حكاية للحال وتصويراً لها إشارة إلى أنه كان الأمر من غير تخلف ، وتنبيهاً على أن هذا هو الشأن دائماً يتجدد مع كل مراد ، لا يتخلف عن مراد الأمر أصلاً كما تقدم التصريح به في آية : إِذَا قُضِيَ أَمْرًا .

لطيفة :

قال الرازي : الحكماء قالوا : إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه :
الأول - ليكون متواضعاً ، الثاني - ليكون ستاراً ، الثالث - ليكون أشد التصاقاً بالأرض . وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض . قال تعالى : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً^(١) . الرابع - أراد الحق إظهار القدرة خلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة ، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية ، الخامس - خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب - انتهى ملخصاً -

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

« الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » خبر مبتدأ محذوف ، أى الذى قصصنا عليك من نبأ عيسى الحق ، وقيل : الحق مبتدأ ، والظرف خبر ، أى الحق المذكور . وقيل : الحق فاعل لمضمر ، أى جاءك الحق . وفي (الحق) تأويلان : الأول - قال أبو مسلم : المراد أن هذا الذى أنزلت

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] ونصها : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

عليك هو الحق من خبر عيسى عليه السلام لما قالت النصارى واليهود . فالنصارى قالوا إن مريم ولدت إلهًا ، واليهود رموا مريم عليها السلام بالإفك ونسبوها إلى يوسف النجار ، فאלله تعالى بين أن هذا الذى أنزل فى القرآن هو الحق . ثم نهى عن الشك فيه .

والقول الثانى - أن المراد أن الحق فى بيان هذه المسألة ما ذكرناه من المثل ، وهو قصة

آدم عليه السلام ، فإنه لا بيان أقوى منها . والله أعلم .

« فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُفْتَرِينَ » خطاب إماللنبى صلى الله عليه وسلم على طريقة التهيج

لزيادة الثبات ، أو لكل سامع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

« فَمَنْ حَاجَّكَ » أى جادلَكَ من النصارى بإيراد حجة « فِيهِ » أى فى شأن عيسى زعمًا منهم أنه ليس على الشأن المتلو « مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ » أى الذى أنزلناه إليك ، وقصصناه عليك فى أمره . وللفاضل المهايى فى هذه الآية أسلوب لطيف فى التأويل حيث قال (الْحَقُّ) أى الثابت الذى لا يقبل التأويل جاء (مِنْ رَبِّكَ) الذى ربك بالاطلاع على الحقائق (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُفْتَرِينَ) بما ورد فى الإنجيل من إطلاق لفظ الأب على الله فإنه إطلاق مجازى لأنه لماحدث منه كان كأييه . وإذا ظهر لك الحق من ربك بالبيان التام (فَمَنْ حَاجَّكَ) أى جادلَكَ (فِيهِ) لإثبات ابنيته بظواهر الإنجيل (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) القطعى الموجب لتأويله . « فَقُلْ » لم يبق بيننا وبينكم مناظرة ، ولكن نرفع عنادكم بطريق المباهلة « تَعَالَوْا » أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يُعرف فيه علو الحق وسفول

الباطل « نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ » أى يدع كل منكم نفسه ، وأعزة أهله ، وأصقهم بقلبه ، ممن يخاطر الرجل بنفسه لهم ويحارب دونهم ، ويحملهم على المباهلة « ثُمَّ نَبْتَهِّلُ » أى نتضرع إلى الله تعالى ونجتهد في دعاء اللعنة « فَتَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ » أى إبعاده وطرده « عَلَى الْكَافِرِينَ » منا ومنكم ليهلكهم الله وينجى الصادقين ، فلا يبق العناد الباقي عليكم بعد اتفاق الدلائل العقلية والنقلية .

تنبيهات :

الأول - قال القاشانى : إن لمباهلة الأنبياء تأثيراً عظيماً سببه اتصال نفوسهم بروح القدس وتأيد الله إياهم به ، وهو المؤثر بإذن الله في العالم العنصرى ، فيكون انفعال العالم العنصرى منه كانفعال بدننا من روحنا بالهيئات الواردة عليه ، كالغضب والحزن والفكر في أحوال العشوق ، وغير ذلك من تحرك الأعضاء عند حدوث الإرادات والعزائم . وانفعال النفوس البشرية منه كانفعال حواسنا وسائر قوانا من هيات أرواحنا ، فإذا اتصل نفس قدسى به كان تأثيرها في العالم عند التوجه الاتصالى تأثير ما يتصل به ، فتتفاعل أجرام العناصر والنفوس الناقصة الإنسانية منه بما أراد . ألم تركب ان فعلت نفوس النصارى من نفسه عليه السلام بالخوف ، وأحجمت عن المباهلة ، وطلبت المودعة بقبول الجزية؟

الثانى - قال ابن كثير : وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نصارى نجران لما قدموا المدينة ، فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة ردّاً عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحق وغيره ، وكانوا ستين راكباً ، منهم ثلاثة نفر ، إليهم يؤول أمرهم : العاقب أمير القوم واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم : ، وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم . وفي القصة أن النبي ﷺ لما أتاه الخبر من الله عز وجل ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى المباهلة فقالوا : يا أبا القاسم !

دعنا ننظر في أمرنا ، ثم تأتيت بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يامعشر النصارى ! لقد عرفتم إن محمداً نبيٌّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لآعن قوم نبياً قط ، فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ! قد رأينا أن لا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، ورجع على ديننا ، فلم يلاعنهم ﷺ ، وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن الشعبي عن جابر قال : قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعة فواعدها على أن يلاعنا الغداة ، قال : ففدا رسول الله ﷺ ، فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج ، قال : فقال رسول الله ﷺ : والذي بعثني بالحق ، لو قالوا : لا ، لأمطر عليهم الوادي ناراً . قال جابر : وفيهم نزلت : ندعُ أبنَاءَنَا ... الآية - قال جابر : أنفسنا وأنفسكم : رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب ، وأبنائنا : الحسن والحسين ، ونسائنا : فاطمة ، وهكذا - رواه الحاكم في مستدركه بمعناه ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . هكذا قال .

وقد رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مراسلاً ، وهذا أصح . وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك .

وروى البخاري^(١) عن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد ، صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالوا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابتعث معنا

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٧٢ - باب قصة أهل نجران .

رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال : لأبعثن معكم رجلاً أميناً، حق أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح . فلما قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمة . ورواه مسلم والنسائي أيضاً وغيرهم .

وروى الإمام أحمد^(١) عن ابن عباس قال : قال أبو جهل - قبحه الله - : إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ، قال : فقال : لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لما تواروا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مალًا ولا أهلاً .

قال ابن كثير : وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي . وقد ساق قصة وفد نجران الإمام ابن القيم عليه الرحمة في (زاد المعاد) وأعقبها بفصل مهم في فقها . فليراجع .

الثالث - قال الزمخشري : فإن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختص به وعن يكاذبه ، فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟ قلت : ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه ، حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك . ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة . وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن تمت كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لتمتعهم من الهرب . ويسمون الذادة؛ عنها بأرواحهم حماة الحقائق . وقدّمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدّمون على الأنفس مُفَدَّوْنَ بها . وفيه دليل ، لا شيء أقوى منه ، على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام . وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ . لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، حديث ٢٢٢٥ (طبعة المعارف) .

الرابع - استنبط من الآية جواز المحاجة في أمر الدين ، وأن من جادل وأنكر شيئاً من الشريعة جازت مباهلتة اقتداء بما أمر به ﷺ . والمباهلة الملاعة .

قال الكازروني في تفسيره : وقع البحث عند شيخنا العلامة الدواني قدس الله سره في جواز المباهلة بعد النبي ﷺ ، فكتب رسالة في شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار ، وكلام الأئمة ، وحاصل كلامه فيها أنها لا تجوز إلا في أمر مهم شرعاً ، وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة ، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة والسعي في إزالة الشبهة وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة إليها .

قال الإمام صديق خان في تفسيره : وقد دعا الحافظ ابن القيم ، رحمه الله ، من خلفه في مسألة صفات الرب تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ، إلى المباهلة بين الركن والمقام فلم يجبه إلى ذلك وخاف سوء العاقبة . وتام هذه القصة مذكور في أول كتابه المعروف بـ (النونية) - انتهى - وقد ذكر في (زاد المعاد) في فصل فقه قصة وفد نجران ما نصه : ومنها أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعواهم إلى المباهلة ، وقد أمر الله ، سبحانه ، بذلك رسوله ، ولم يقل إن ذلك ليس لأمتك من بعدك . ودعا إليه ابن عمه عبدالله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع ، ولم ينكر عليه الصحابة ، ودعا إليه الأوزاعي سفيان الثوري في مسألة رفع اليدين ولم ينكر عليه ذلك ، وهذا من تمام الحجة - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« إِنْ هَذَا » أى المتقدم من شأن عيسى عليه السلام « لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ » الذى

لا معدل عنه ، دون أقاصيص النصارى . والقصص تتبع الوقائع بالإخبار عنها شيئاً بعد شيء على ترتيبها . في معنى قصّ الأثر ، وهو اتباعه ، حتى ينتهي إلى محل ذى الأثر - أفاده الحراتي - . قال البقاعي : ولما بدأ سبحانه القصة أول السورة بالإخبار بوحداثيته مستدلاً على ذلك بأنه الحى القيوم صريحاً ، ختم ذلك إشارة وتلويحاً فقال ، عاطفاً على ما أنتجه ما تقدم من أن عيسى عبد الله ورسوله ، مُعَمِّماً للحكم : « وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ » فصرح فيه بـ (من) الاستغراقية ، تأكيداً للرد على النصارى في تثليثهم « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » فلا يشاركه أحد في العزة والحكمة ، ليشاركة في الألوهية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن قبول الحق الذى قص عليك بعدما عاينوا تلك الحجج النيرة « فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » أى بهم فيجازيهم على إفسادهم . والتعبير عنهم بذلك إشارة إلى أنهم ، مفسدون اعتقادهم واعتقاد غيرهم في الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » أى إلى قول معتدل لا يميل إلى التعطيل ولا إلى الشرك ، متفق عليها لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى « أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » أى لا نرى غيره مستحقاً للعبادة فنشركه معه ، بل نفرد العبادة لله وحده ، لا شريك له . وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ^(١) .
وقال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ^(٢) .
« وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا » أى كعزير والمسيح والأخبار والرهبان الذين كانوا يحلون لهم ويحرمون ، كما روى الترمذى ^(٣) عن عدى بن حاتم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . قال : إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

قال الكيا المراسى : فيه رد على من قال بالاستحسان المجرد الذى لا يستند إلى دليل شرعى ، وعلى من قال : يجب قبول قول الإمام فى التحليل والتحریم ولو دون إبانة مستند شرعى .
قال البقاعى : ولما كان الرب قد يطلق على المعلم والمرتبى بنوع تربية ، به على أن المحذور إنما هو اعتقاد الاستبداد والاجترأ على ما يختص به الله فقال : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » الذى اختص بالكمال « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى عن هذه الكلمة السواء المتفق عليها « قَقُولُوا » أى تبعاً لأبيكم إبراهيم عليه السلام إذ قال : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وامتنالاً لوصيته إذ قال : وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . « أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » أى لزمتمكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بأننا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال أو صراع أو غيرها : اعترف بأنى أنا الغالب ، وسلم لى الغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ، ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره - كذا فى الكشف - .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] ونصها : . . . ، فَنَهَمُ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا الحسن

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ » أى تجادلون فيه فيدعيه كل من فريقكم « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ » أى المقرر كل منهما لأصل دين منتحلة منكم « إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدل المحال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

« هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ » أى الأشخاص الحق « حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر محمد ﷺ إذله ذكر فى كتابكم فأمكنكم تغييره لفظاً ومعنى ، أو من أمر موسى وعيسى عليهما السلام ، أو مما نطق به التوراة والإنجيل « فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » من أمر إبراهيم لكونه لم يذكر فى كتابكم بما حاججتم ، فلا يمكنكم فيه التغيير « وَاللَّهُ يَعْلَمُ » فيبينه لنبينه « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا » أى كما ادعى اليهود « وَلَا نَصْرَانِيًّا » كما ادعى النصارى « وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا » سبق معنى الحنيف عند قوله تعالى : بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا . فى البقرة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بأنهم مشركون بقولهم : عزيز ابن الله والمسيح ابن الله ، وردُّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ،
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ » أى أخصهم به وأقربهم منه . من (الْوَلِي) وهو القرب
« لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ » أى فى دينه من أمته وغيرهم « وَهَذَا النَّبِيُّ » يعنى خاتم الأنبياء محمدًا ﷺ
« وَالَّذِينَ آمَنُوا » به فعملوا بشريعته الموافقة لشريعة إبراهيم « وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ »
بالنصر والمعونة والحجة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ)

« وَدَّتْ » أى تمت « طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ » بالرجوع إلى دينهم
حسدًا وبنفياً « وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ » أى وما يتخطاهم الإضلال ، ولا يعود وباله إلا عليهم ،
إذ يضاعف به عذابهم « وَمَا يَشْعُرُونَ » أى أن وزره خاص بهم . ونظير هذه الآية قوله تعالى :
وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِهِمْ^(١) . وقوله : وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً^(٢) .

(١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ
مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا
وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) [٤ / النساء / ٨٩] ونصها : وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ =

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ)
« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » أى المنزلة على محمد ﷺ « وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ » أى تعلمون حقيتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » أى تسترون الحق المنزل بتمويهاتكم الباطلة « وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ » أى الذى لا يقبل تمويهاً ولا تحريفاً « وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى عالين بما تكتُمونه من حقيقته وقد كانوا يعلمون ما فى التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ﷺ ونبوته، ويلبسون على الناس فى ذلك ، كدأبهم فى غيره . وفى الآية دلالة على قبح كتمان الحق ، فيدخل فى ذلك أصول الدين وفروعه والفتيا والشهادة ؛ وعلى قبح التلبس . فيجب حل الشبهة وإبطالها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ » أى أوله « وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » هذه الآية حكاية لنوع آخر = سَوَاءٌ ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

من تلبسوا بهم . وهى مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من المؤمنين أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم . فيظن الضعفاء أنه لاغرض لهم إلا الحق ، وأنه ما ردهم عن الدين بعد اتباعهم له وترك العناد ، وهم أولو علم وأهل كتاب، إلا ظهور بطلانه لهم ، ولهذا قال : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الإسلام كما رجعتهم .

لطيفة :

قال الرازى : الفائدة فى إخبار الله تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من وجوه :
الأول - أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم وما أطلعوا عليها أحدا من الأجانب ، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجزاً .
الثانى - أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت فى قلب بعض من فى إيمانه ضعف .
الثالث - أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتليس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ الْهُدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ أَنْ يُوْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

« وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ » من تمتة كلامهم أى ولا تصدقوا إلا نبياً تابعا لشريعتكم ، لا من جاء بغيرها ، أو ولا تؤمنوا ذلك الإيمان المتقدم ، وهو إيمانهم وجه النهار ، إلا لأجل حفظ أتباعكم وأشياعكم وبقائهم على دينكم « قُلْ إِنْ الْهُدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ » أى الذى هو

الإسلام وقد جئكم به ، وما عداه ضلال فلا ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف ولا تقدرون على إضلال أحد منا بعد أن هدانا الله . ثم وصل به تقرعهم فقال « أَنْ » بمد الألف على الاستفهام، في قراءة ابن كثير . وتقديرها في قراءة غيره . أى دعاكم الحسد والبغى حتى قلم ما قلمم ودبرتموه ألأن « يُوْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » من الشرائع والعلم والكتاب ، « أَوْ » كراهة أن « يُحَاجُّوكُمْ » أى الذين أوتوا مثل ما أوتيتم « عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى بالشهادة عليكم يوم القيامة أنهم آمنوا وكفرتهم بعد البيان الواضح فيفضحكم « قُلْ إِنْ أَلْفُ الْقُصْلِ » أى يأنزال الآيات وغيرها « بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » فلا يمكنكم منعه « وَاللَّهُ وَاسِعٌ » كثير العطاء « عَلِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » فيزيده فضلا عليكم « وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ

إِنْ تَأْمَنَّهُ بدينارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا

لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ

بدينارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا » بالمطالبة والترافع وإقامة البينة ، فلا يبعد

منه الخيانة مع الله بكمأن ما أمر بإظهاره طمعاً في إبقاء الرئاسة والرشا عليه . ثم استأنف علة

الخيانة بقوله « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » أى ذلك الاستحلال

والخيانة هو بسبب أنهم يقولون ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب عقاب ومؤاخذه

فهم يخونون الخلق « وَيَقُولُونَ » أى فى الاعتذار عنه « عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » بادعائهم ذلك وغيره فيخونونه أيضا « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنه كذب محض وافتراء لتحريم الغدر عليهم . كما هو فى التوراة . وقد مضى نقله فى البقرة فى آية : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا^(١) . فارجع إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » اعلم أن (بلى) إما لإثبات مانفوه من السبيل عليهم فى الأميين ، أى بلى عليهم سبيل ، فالوقف حينئذ على (بلى) وقف التمام ، وقوله « مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ » جملة مقررّة للجملة التى سدت (بلى) مسدّها ؛ وإما لابتداء جملة بلا ملاحظة كونها جواباً للنفى السابق ، فإن كلمة (بلى) قد تذكر ابتداء لكلام آخر يذكر بعدها - كما نقله الرازى - وهذا هو الذى أرتضيه . وإن اقتصر الكشف ومقلدوه على الأول . وقد ذكروا فى (نعم) أنها تأتى للتوكيد إذا وقعت صدرا . نحو : نعم هذه أطلالهم ، فلتكن (بلى) كذلك ، فإنهما أخوان ، وإن تخالفا فى صور ، وعلى هذا فلا يحسن الوقف على (بلى) . والضمير فى « بِعَهْدِهِ » إما لاسم (الله) فى قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » على معنى إن كل من أوفى بعهد الله واتقاه فى ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه . وإما لـ « مَنْ أَوْفَىٰ » على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقاه فإنه يحبه .

قال الزخشري : فإن قلت فهذا عام . يخيل أنه ولو وفى أهل الكتاب بمهودهم وتركوا

(١) [٢ / البقرة / ٦٢] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت : أجل. لأنهم إذا وفوا بالعهود، وفوا أول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسولٍ مصدق لما معهم ، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لانتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كله - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ » أى يستبدلون « بِعَهْدِ اللَّهِ » أى بما أخذهم عليه في كتابه. أو بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم « وَأَيْمَانِهِمْ » أى التى عقدوها بالتزام متابعة الحق على السنة الرسل « ثَمَنًا قَلِيلًا » من الدنيا الزائلة الحقيرة التى لا نسبة لجميعها إلى أدنى ما فوتوه « أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ » أى لا نصيب ثواب « لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وذلك لحجبهم عن مقامات قربه كما قال تعالى : كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . « وَلَا يُزَكِّيهِمْ » أى ولا يثنى عليهم كما يثنى على أوليائه ، أو لا يطهرهم من دنس ذنوبهم بالمغفرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى بالنار. واعلم أن فى هذه الآية مسائل :

الأولى - قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة الآية أن أمن نقض عهداً لله لغرض دنيوى ، أو حلف كاذباً ، فإنه قد ارتكب كبيرة .

الثانية - فى الجمع بين قوله تعالى هنا : وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ . وقوله : فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ^(١) . قال القفال: المقصود من هذه الآية بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره

كلامه فإنما ذلك بسخطٍ عليه ، وإذا سخط إنسان على آخر قال له : لا أكلك . وقد يأمر بحجبه عنه ، ويقول : لأرى وجه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل ، فثبت أن الآية كناية عن شدة الغضب ، نعوذ بالله منه . ومنهم من قال : لا يبعد أن يكون إسماع الله جل جلاله أولياءه كلامه بغير سفير تشریفاً عالياً يختص به أوليائه ، ولا يكلم هؤلاء الكفرة والفساق ، وتكون المحاسبة معهم بكلام الملائكة . ومنهم من قال : معنى الآية لا يكلمهم بكلام يسرهم وينفعهم ، والكل حسن .

الثالثة - روى الشيخان^(١) عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان . قال عبدالله : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عز وجل : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... إلى آخر الآية . وفي رواية قال : من حلف على يمين صبر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان ، فأنزل الله تصديق ذلك : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... الآية . فدخل الأشعث بن قيس الكندي فقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ قلنا : كذا وكذا ، فقال : صدق ، في نزلت ، كان بيني وبين رجل خصومة في بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : شاهداك أو يمينه ، قلت : إنه إذا يحلف ولا يبالي ، فقال رسول الله ﷺ : من حلف على يمين صبر يقطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان ، ونزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... إلى آخر الآية .

وأخرجه الترمذي وأبو داود وقالوا : إن الحكومة كانت بين الأشعث وبين رجل يهودي .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٣ - باب
إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... الخ .
ومسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٢٠ و ٢٢١ (طبعنا) .

وروى البخارى^(١) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رجلاً أقام سلعة وهو فى السوق. خلف بالله لقد أعطى بها ما لم يُعْطَهُ، ليوثق فيها رجلاً من المسلمين ، فنزلت : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... إلى آخر الآية . وقدمنا فى مقدمة التفسير، فى بحث سبب النزول ، وفى سورة البقرة أيضاً عند آية : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ^(٢)، ما يعلم به الجمع بين مثل هذه الروايات، وأنه لا تنافى . فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُوءُونَ آلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُوءُونَ آلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » قال الإمام ابن كثير : يخبر تعالى عن اليهود ، عليهم لعائن الله ، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد به ليوهموا الجبهة أنه فى كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافترؤا فى ذلك كله ، ولهذا قال تعالى : وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وقال مجاهد والشعبيّ والحسن وقتادة والربيع بن أنس : يَلُوءُونَ آلْسِنَتَهُمْ

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٣ - باب

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا . . . الخ

(٢) [٢ / البقرة / ٩٧] ونصها : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٣) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ =

بِالْكِتَابِ . يحرفونه . وهكذا روى البخارى عن ابن عباس^(١) أنهم يحرفون : ويزيلون . وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ، ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله . وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلها الله تعالى لم يغير منها حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله . فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول . رواه ابن أبي حاتم . قال ابن كثير : فإن عني وهب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان ووهم فاحش . وهو من باب تفسير المعرب المعبر ، وفهم كثير منهم فاسد ؛ وأما إن عني كتب الله التي هي كتبه من عنده ، فذلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء - انتهى - وقد قدمنا الكلام على ذلك في مقدمة التفسير عند الكلام على الإسرائيليات ، وفي سورة البقرة أيضاً عند قوله تعالى^(٢) : أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللَّهِ .. الآية فليراجع . ولما بين تعالى كذبهم عليه - جل ذكره - بين افتراءهم على رسله إذ زعموا أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يتخذوه رباً ، فردّ سبحانه عليهم بقوله :

= يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(١) أخرجه البخارى في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٥٥ - باب قوله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ

(٢) [٢ / البقرة / ٧٥] ونصها : أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (مَا كَانَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)

« مَا كَانَ لِلْبَشَرِ » أى ماصح ولا استقام . وفى التعبير بـ « بشر » إشعار بعلّة الحكم ، فإن البشرية منافية لما اقروه عليهم « أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ » أى الفهم والعلم أو الحكمة « وَالنُّبُوَّةَ » وهى الخبر منه تعالى ليدعو الناس إلى الله بترك الأنداد « ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ » أى الذين بعثه الله إليهم ليدعوهم إلى عبادته وحده « كُونُوا عِبَادًا لِي » أى اتخذونى ربًّا « مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ » يقول لهم « كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » أى منسوبين إلى الرب لاستيلاء الربوبية عليهم وطمس البشرية بسبب كونهم عالمين عاملين معلمين تالين لكتب الله . أى كونوا عابدين مرئضين بالعلم والعمل والمواظبة على الطاعات ، حتى تصيروا ربانيين بغلبة النور على الظلمة - أفاده القاشانى - « بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ » أى بسبب مثابرتكم على تعليم الناس الكتاب ودراسته ، أى قراءته . فإن ذلك يجركم إلى الله تعالى بالإخلاص فى عبادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ » أى بالعود إليه وقد بعث لحو الشرك « بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى بعد استقراركم على الإسلام .

تنبيهات :

الأول - إذا كان ما ذكر في الآية لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فَلَا نَ لا يصلح لأحد من الناس غيرهم، بطريق الأولى والأخرى . ولهذا قال الحسن البصري : لا ينبغي هذا المؤمن ، أن يأمر الناس بعبادته ، قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعنى أهل الكتاب - كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم ، كما قال الله تعالى : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ... الآية^(١) - وفي جامع الترمذى^(٢) - كما سيأتى - أن عدى بن حاتم قال : يارسول الله ما عبدوهم . قال : بلى ، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم . فالجبهة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ . بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلغتهم إياه الرسل الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغته إياه رسله الكرام - قاله ابن كثير -

الثانى - فى هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل ، وأن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه . والدراسة مذاكرة العلم والفقه . فدلّت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً، فمن اشتغل بها، لاهذا المقصود، فقد ضاع سعيه وخاب عمله ، وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء موققة بمنظرها، ولا منفعة بثمرها ، ولهذا قال ﷺ^(٣) : نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع - كذا فى فتح البيان والرازى .

(١) [٩ / التوبة / ٣١] ونصها : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا الحسين بن مرثد .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٧٣ =

الثالث - قرئ في السبع « وَلَا يَأْمُرُكُمْ » بالرفع على الاستثناف أى ولا يأمركم الله أو النبي ، وبالنصب عطفاً على ثم يقول . و (لا) مزيدة لتأكيد معنى النفي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا) وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا) وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ . قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعنادهم . ومن جلتها ما ذكره الله تعالى في هذه الآية . وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم ، وإن كان ناسخاً لبعض أحكامهم بما دلت

= (طبعتنا) ونصه :

عن زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول . كان يقول « اللهم ! إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر . اللهم ! آت نفسي تقواها . وزكها أنت خير من زكاها . أنت وليها ومولاها . اللهم ! إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

الحكمة على اقتضاء الزمان ذلك ، آمنوا به ونصروه أيضاً ، مبالغة في تشهير أمره . ولا يمنعهم ما هم فيه من العلم والنبوة من اتباع شرعه ونصره . وأخبر أنهم قبلوا ذلك ، وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين . وقد قرئ في السبع بفتح اللام من : لِمَاءَ اتَيْتُكُمْ . وكسرهما ، فعلى الأول هي موطئة القسم ، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف ، و«مَا» حينئذ تحتل الشرطية ، و«لَتُؤْمِنُنَّ» ساد مسد جواب القسم والشرط . وتحتل الموصولة بمعنى «لَلَّذِي اتَيْتُكُمْوهُ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» وعلى الثاني ، أعنى كسر اللام و«مَا» إمامصدرية أى لأجل إيتائى إياكم الكتاب ثم لحى رسول مصدق لكم غير مخالف أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه . وإما موصولة والمعنى أخذه للذى آتيتكموه ، وجاءكم رسول مصدق له ، وقوله تعالى : فَاشْهَدُوا . أى يا أنبياء ، بعضكم على بعض ، بالإقرار . وفى قوله تعالى : وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ : تأكيد عليهم . ومن أضمن في نهج الآية علم أن هذا الميثاق قد بولغ في شأنه غاية المبالغة ، وإذا كان هذا الإيجاب مع الأنبياء ، فعلى أهمهم أولى . وقد روى عن عليّ بن أبي طالب وابن عباس رضى الله عنهما : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً ، وهو حي ، ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . قال ابن كثير : وهذا لا يضاد ما قاله طاوس والحسن وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، بل يستلزمه ويقتضيه ، ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول عليّ وابن عباس - انتهى -

ومن أثر عليّ عليه السلام هذا ، فهم بعض العلماء اختصاص هذا الميثاق بنبيينا ﷺ كما نقل القاضى عياض فى (الشفاء) عن أبى الحسن القاسمى قال : استخص الله تعالى محمداً بفضلٍ لم يؤته غيره أبانه به . وهو ما ذكره فى هذه الآية - انتهى - وقد علمت المراد . بقى أن الإمام أبامسلم الأصفهانيّ ذهب إلى أن فى قوله تعالى : مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ . حذف مضاف ، أى أهمهم ، وعبارته : ظاهر الآية يدل على أن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب

عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه ، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكونون عند مبعث محمد ﷺ من زمرة الأموات ، والميت لا يكون مكلفاً ، فلما كان الذين أخذ عليهم الميثاق يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام عند مبعثه ، ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمد عليه السلام ، علمنا أن الذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيين ، بل هم أمم النبيين . قال : ومما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق ، أنهم لو تولوا لكانوا فاسقين ، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما يليق بالأمم . أجب القفال رحمه الله فقال : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى : لئن أشركت ليحبطن عملك^(١) ، وقد علم الله تعالى أنه لا يشرك قط ، ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض ، فكذا هنا . وقال : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلَ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^(٢) وقال في صفة الملائكة : وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(٣) مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم : لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ^(٤) وبأنهم : يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ^(٥) . فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير ، فكذا ههنا .

ونقول إنه سماهم فاسقين على تقدير التولي ، فإن اسم الفسق ليس أقبح من اسم الشرك ،

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٥] ونصها : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(٢) [٦٩ / الحاقة / ٤٤-٤٦] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٢٩] .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٢٧] .

(٥) [١٦ / النحل / ٥٠] .

وقد ذكر تعالى على سبيل الفرض والتقدير في قوله : لَنْ أَشْرَكَ كَتَّ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ فكذا ههنا - نقله الرازي - .

ولما بين تعالى أن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم شرع شرعه وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأمم، لزم أن كل من كره ذلك فإنه يكون طالباً ديناً غير دين الله .
فلهذا قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا »
أى استسلم له من فيهما بالخضوع والانقياد لمراده والجرى تحت قضائه ، كما قال تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١) . وقال تعالى : أُولَئِكَ يَرْوُوا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّوْظَلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٢) . وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٣) . فالؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم له كرها . فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لا يخالف ولا يمانع - أفاده ابن كثير « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » يوم القيامة فيجزى كلا بعمله ، والجملة سبقت للتهديد والوعيد .

(١) [١٣ / الرعد / ١٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .

(٣) [١٦ / النحل / ٤٩] .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٨٤] (قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

« قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » أى أولاد يعقوب « وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض ، كدأب اليهود والنصارى « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » أى متقادون فلا نتخذ أرباباً من دونه .

لطيفة :

نكتة الجمع في قوله « ءَامَنَّا » بعد الأفراد في « قُلْ » كون الأمر عامًّا ، والأفراد لتشريفه عليه الصلاة والسلام ، والإيدان بأنه أصل في ذلك . أو الأمر خاص بالإخبار عن نفسه الزكية خاصة . والجمع لإظهار جلالة قدره ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك .

ثانية :

عدى (أُنزل) هنا بحرف الاستعلاء ، وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين . إذ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر ، وقال صاحب (اللباب) : الخطاب في البقرة للأمة لقوله : قولوا . فلم يصح إلا (إلى) لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً . وهنا قال (قل) ، وهو خطاب للنبي ﷺ دون أمته ، فكان اللائق به (على) لأن الكتب منزلة عليه لاشركة للأمة فيها .

وفيه نظر ، لقوله تعالى : ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا^(١) - أفاده النسق - .

(١) [٣ / آل عمران / ٧٢] ونصها : وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا =

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَمَنْ يَتَّبِعْ » أى يطلب « غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا » أى غير التوحيد والالتقاء لحكم الله تعالى . كدأب المشركين صريحاً . والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين . « فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » لأنه لم ينقد لأمر الله . وفي الحديث الصحيح ^(١) : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ « وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » لضلالة وجوه الهداية في الدنيا .

قال العلامة أبو السعود : والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع ، واقع في الخسران ، يبطل الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها . وفي ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الإسلام واطمأن بذلك أفضع وأقبح - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ

وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » استبعاد لأن يرشدهم الله للصواب ويوفقهم . فإن الحائذ عن الحق ، بعد ماوضح له ، منهمك في الضلال ، بعيد عن الرشاد . وقيل : نفي وإنكار له ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

= بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

(١) أخرجه البخاري في ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٠ - باب إذا أخطأ العامل أو الحاكم .

طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ . والمعنى بهذه الآية إما أهل الكتاب والمراد كفرهم بالرسول ﷺ حين جاءهم ، بعد إيمانهم به قبل مجيئه ، إذ رأوه في كتبهم وكانوا يستفتحون به على المشركين . وبعد شهادتهم بحقية رسالته لكونهم عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، وجاءهم البينات على صدقه التي آمنوا مثلها ولما دونها بموسى وعيسى عليهما السلام . فظلموا بحقه الثابت بيناته وتصديقه الكتب السماوية . وإما المعنى بالآية من ارتدّ بعد إيمانه . على ما روى في ذلك كما سند كره . ثم بين تعالى الوعيد على كلِّ بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) «أُولَئِكَ» أى الموصوفون بما تقدم «جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ» أى طرده وغضبه «وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» المراد بالناس إما المؤمنين أو العموم ، فإن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق والمرتد عنه ، فقد لعن نفسه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) «خَالِدِينَ فِيهَا» أى فى اللعنة أو العقوبة أو النار ، وإن لم يجر ذكرها لدلالة الكلام عليهما . والتخليد فى اللعنة على الأول بمعنى أنهم يوم القيامة لا يزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم فى النار ، فلا يخلو شئ من أحوالهم من أن يلعنهم لاعتن من هؤلاء ، أو بمعنى الخلود فى أثر اللعن ، لأن اللعن يوجب العقاب ، فعبّر عن خلود أثر اللعن بخلود اللعن ، ونظيره قوله تعالى : مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ ^(١) ، أفاده الرازى - «لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ» أى لا يمهلون ، أو لا ينتظرون ليعتدروا ، أو لا ينظر نظر رحمة إليهم .

(١) [٢٠ / طه / ١٠٠ و ١٠١] ... وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى الكفر بعد الإيمان « وَأَصْلَحُوا » أى وضموا إلى التوبة الأعمال الصالحة . وفيه أن التوبة وحدها لا تكفى حتى يضاف إليها العمل الصالح « فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيقبل توبتهم وبتفضل عليهم . وهذا من لطفه وبره ورأفته وعائده على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه . وقد روى ابن جرير^(١) عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ، ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لى من توبة ؟ فنزلت : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله : فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فأرسل إليه قومه فأسلم . وهكذا رواه النسائي والحاكم وابن حبان . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وروى عبد الرزاق عن مجاهد قال^(٢) : جاء الحرث بن سويد فأسلم مع النبي ﷺ ، ثم كفر الحرث فرجع إلى قومه فأنزله الله فيه : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى قوله غَفُورٌ رَحِيمٌ . قال فحملها إليه رجل من قومه ، فقرأها عليه ، فقال الحرث : إنك والله ، ما علمت ، لصدوق ، وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة . قال : فرجع الحرث فأسلم فحسن إسلامه .

قال ابن سلامة : فصارت فيه توبة ، وفي كل نادم إلى يوم القيامة .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية . ثمرة الآية جواز لعن الكفار ، وسواء كان الكافر معيناً

(١) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٠

والنسائي في : ٣٧ - كتاب تحريم الدم ، ١٥ - باب توبة المرتد .

(٢) ابن جرير ، الأثر : ٧٣٦٣

أوغير معيّن ، على ظاهر الأدلة . وقد قال النووي : ظاهر الأحاديث أنه ليس بحرام . وأشار الغزاليّ إلى تحريمه إلا في حق من أعلمنا الله أنه مات على الكفر . كأيّ لُهب وأبي جهل وفرعون وهامان وأشباههم . قال : لأنه لا يدرى بما يحتم له . وأما الذين لعنهم رسول الله ﷺ بأعيانهم يجوز أنه ﷺ علم موتهم على الكفر . وأما ما ورد في الترمذيّ^(١) عنه ﷺ : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي . فقيل : اللعان مثل الضراب للمبالغة ، والمعنى لا يعتاد اللعن حتى يكثر منه . ومن ثمرات الآية صحة التوبة من الكافر والعاصي بالردة وغيرها ، وذلك إجماع . إلا توبة المرتد ففيها خلاف شاذ . فعند أكثر العلماء أن توبته مقبولة لهذه الآية وغيرها . وعند ابن حنبل لا تقبل توبته - رواه عنه في (شرح الإبانة) قيل وهو غلط . لهذه الآية ولقوله تعالى في سورة النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا^(٢) . فأثبت إيماناً بعد كفر تقدمه إيمان . ولو تكررت منه الردة صحت توبته أيضاً عند جمهور العلماء ، لقوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآذٍ سَلَفَ^(٣) . وقال إسحق بن راهويه : إذا ارتد في الدفعة الثالثة لم تقبل توبته بعد ذلك . أي لظاهر آية النساء - انتهى - قلت : وفي (زاد المستقنع) و (شرحه) : من فقه الحنابلة ما نصه : ولا تقبل توبة من تكررت رده بل يقتل . لأن ذلك يدل على فساد عقيدته وقلة مبالاته بالإسلام - انتهى - وهو قريب من مذهب إسحق . وحكى في (فتح الباري) مثله عن الليث وعن أبي إسحق المروزيّ من أئمة الشافعية .

(١) الترمذيّ في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٤٨ - باب ما جاء في اللعنة .

(٢) [٤ / النساء / ١٣٧] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ

كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا .

(٣) [٨ / الأنفال / ٣٨] ... وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الضَّالُّونَ » أى الذين ضلوا سبيل الحق وأخطأوا منهاجه . وقد أشكل على كثير قوله تعالى
« لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ » مع أن التوبة عند الجمهور مقبولة كما فى الآية قبلها ، وقوله سبحانه :
وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ^(١) . وغير ذلك . فأجابوا : بأن المراد عند حضور الموت .
قال الواحدى ^(٢) فى (الوجيز) : لن تقبل توبتهم لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت ، وتلك التوبة
لا تقبل - انتهى - ، أى كما قال تعالى : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا
خَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ ^(٣) الآية . وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أى لا يتوبون .
كقوله : أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ^(٤) . وإنما كنى بذلك تغليظاً فى شأنهم
وإبرازاً لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة ، وقيل : لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً
لارتدادهم وازديادهم كفراً . وبقي للمفسرين وجوه أخرى ، هى فى التأويل أبعد مما ذكر .

(١) [٤٢/الشورى/ ٢٥] ... وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

(٢) [٤/النساء/ ١٨] ... قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٣) [٢/البقرة/ ٦] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

و [٣٦/يس/ ١٠] ونصها : وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ .

ولأرى هذه الآية إلا كآية النساء : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا^(١) الخ. وكلاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت رده لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحق وأحد كما قدمنا ، وذلك لرسوخه في الكفر . وقد أشار القاشاني إلى أن هذه الآية مع التي قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان في باب العناد ، وعبارته عند قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا : أنكر تعالى هدايته لقوم قد هدامم أولاً بالنور الاستعدادي إلى الإيمان ثم بالنور الإيماني إلى أن عاينوا حقية الرسول وأيقنوا بحيث لم يبق لهم (كذا) . وانضم إليه الاستدلال العقلي بالبينات ، ثم ظهرت نفوسهم بعد هذه الشواهد كلها بالعناد واللجاج وحجبت أنوار قلوبهم وعقولهم وأرواحهم الشاهدة ثلاثها بالحق للحق ، لشؤم ظلمهم وقوة استيلاء نفوسهم الأماره عليهم الذي هو غاية الظلم فقال : وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، لغلظ حجابهم وتعمقهم في البعد عن الحق وقبول النور . وهم قسمان : قسم رسخت هيئة استيلاء النفوس الأماره على قلوبهم فيهم وتمكنت ، وتناهوا في النفي والاستثناء ، وتمادوا في البعد والعناد ، حتى صار ذلك ملكة لا تزول ؛ وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصر على قلوبهم ريناً ، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا ويستحيوا بحكم غريز العقول . فأشار إلى القسم الأول بقوله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ . إلى آخره ، وإلى الثاني بقوله : إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ، بالمواظبة على الأعمال والرياضات ، ما أفسدوا - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ)
« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا »

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٨٨٣ .

وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ « هذه الآية نظير قوله تعالى في سورة المائدة : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(١) . وقد روى الإمام أحمد والشيخان ^(٢) عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أ كنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك ! وفي رواية للإمام أحمد ^(٣) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب ! خير منزل ، فيقول : سل وتمنّ ، فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات - لما يرى من فضل الشهادة - ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم ! كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب ! شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أى رب ! نعم . فيقول : كذبت ! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل . فيردّ إلى النار . ولهذا قال « أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » أى من منقذ من عذاب الله ولا مجير من أليم عقابه .

لطيفة :

في قوله تعالى « وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ » قال صاحب الانتصاف : إن هذه الواو المصاحبة للشرط

(١) [٥ / المائدة / ٣٦] .

(٢) أخرجه ، في قريب من هذا اللفظ ، البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥١ - باب

صفة الجنة والنار .

ومسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٥١ (طبعنا) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، بالجزء الثالث ، صفحة ٢٠٨ (طبعة الحلبي) .

تستدعى شرطاً آخر، يعطف عليه الشرط المقترنة به ضرورة. والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبهاً على المسكوت عنه بطريق الأولى. مثاله : قولك أكرم زيداً ولو أساء، فهذه الواو عطف المذكور على محذوف تقديره : أكرم زيداً لو أحسن ولو أساء، إلا أنك نهيت بإيجاب إكرامه وإن أساء على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى. ومنه : كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ^(١). معناه - والله أعلم - لو كان الحق على غيركم ولو كان عليكم، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم فأوجبه تنبيهاً على ما هو أسهل وأولى بالوجوب، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً. لان قوله : وَلَوْ افْتَدَى بِهِ. يقتضى شرطاً آخر محذوفاً يكون هذا المذكور منبهاً عليه بطريق الأولى. وهذه الحال المذكورة، وهي حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً، هي حالة أجدر الحالات بقبول الفدية، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها، فلذلك قدر الزمخشري الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً هو أولى بالقبول منها، فإذا اتفقت حيث كان أولى فلا ن يتفنى فيما عدا هذه الحالة أولى؛ فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور. وأما تنزيل الآية عليه فمفسر جداً، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله. فنقول : قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً يكون على أحوال :

منها - أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول .

(١) [٤ / النساء / ١٣٥] . . . أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

ومنها - أن يقول المفتدى في التقدير : أفدى نفسى بكذا - وقد لا يفعل -
ومنها - أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذى يفدى به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً ،
وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول فديته .

وإذا تعددت الأحوال فالمراد في الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفتدى
بملء الأرض ذهباً اقتداءً محققاً ، بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختياراً ،
ومع ذلك لا يقبل منه . فجرد قوله : أبذل المال وأقدر عليه ، أو ما يجرى هذا المجرى بطريق
الأولى ، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها تنبيهاً على أن ثمَّ أحوالاً آخر لا ينفع فيها
القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة . وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى :
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(١) - والله أعلم - وهذا كله تسجيل بأنه
لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد ، وإلا فن المعلوم أنهم أعجز عن الفلاس في ذلك اليوم .
ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها
إلى في يدي هذه . فتأمل هذا النظر فإنه من السهل الممتنع والله ولى التوفيق - انتهى - .

وتمت وجه ثان وهو أن المراد ولو افتدى بمثله معه كما صرح به في تلك الآية ، فالمعنى
لا يقبل ملء الأرض فدية ، ولو زيد عليه مثله ، والمثل يحذف كثيراً في كلامهم ، كقولك :
ضربته ضرب زيد ، زيد مثل ضربه . وأبو يوسف أبو حنيفة : تريد مثله . وقضية ولا
أبا حسن لها ، أى ولا مثل أبى حسن . كما أنه يراد في نحو قولهم : مثلك لا يفعل كذا ،
تريد : أنت . وذلك أن المثليين يسد أحدهما مسد الآخر ، فكانا في حكم شيء واحد ، وعلى هذا
الوجه يجرى الكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلى ملء الأرض ذهباً على عدم
قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى .

(١) [٥ / المائة / ٣٦] .

ووجه ثالث : وهو أن لا يحمل (ملء الأرض) أولاً على الافتداء بل على التصديق ، ولا يكون الشرط المذكور من قبيل ما يقصد به تأكيد الحكم السابق ، بل يكون شرطاً محذوف الجواب ، ويكون المعنى : لا يقبل منه ملء الأرض ذهباً تصدق به ، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه . وضمير « به » للمال من غير اعتبار وصف التصديق .

ووجه رابع : وهو أن الواو زيدت لتأكيد النفي . فتبصر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ

فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » استئناف خطاب للمؤمنين سيق لبيان ما ينفعهم ويقبل منهم ، إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم ، أى لن تبلغوا حقيقة البر ، وتلحقوا بزمرة الأبرار . بناءً على أن تعريف البر للجنس . أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى وهو ثوابه وجنته ، إذا كان للعهد ، حتى تنفقوا في سبيل الله تعالى مما تحبون ، أى تهوونه ويمجّبكم من كرائم أموالكم ، كما في قوله تعالى : أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ^(١) ؛ وقد روى الشيخان^(٢) عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلية المسجد ، وكان رسول الله ﷺ

(١) [٢ / البقرة / ٢٦٧] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤٤ - باب الزكاة على الأقارب ،

حديث ٧٧٦ .

ومسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٤٣ (طبعتنا) .

يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما أنزلت هذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وإن أحب أموالى إلى يبرحاء، وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله . فضمها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله ﷺ : بخ بخ . ذلك مال راجح ، ذلك مال راجح ، وقد سمعت ماقلت . وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين ، قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبني عمه - (ويبرحاروى بكسر الباء وفتحها وفتح الراء وضمها والمذ والقصر ، وهو اسم حديقة بالمدينة - وفى الفائق : إنها فيعلَى من البراح ، وهو الأرض الظاهرة . وبخ بخ كلمة استحسان ومدح كررت للتأكيد ، وراجح بالموحدة أى ذو ربح ، وبالمثناة التحتية أى يروح عليك نفعه وثوابه) .

وفى الصحيحين^(١) أن عمر قال : يا رسول الله ! لم أصب مالا قط هو أنفس عندى من سهمى الذى هو بخير ، فأتأمرنى به ؟ قال : حبس الأصل وسبل الثمرة .

وروى الحافظ أبو بكر البزار أن عبد الله بن عمر قال : حضرتنى هذه الآية « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » فذكرت ما أعطانى الله ، فلم أجد شيئا أحب إلى من جارية لى رومية ، فقلت : هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله ، لنكحتها . يعنى تزوجتها .

تنبيه :

قال القاشانى ، فى هذه الآية : كل فعل يقرب صاحبه من الله فهو بر ، ولا يمكن التقرب إليه إلا بالتبرؤ عما سواه ، فمن أحب شيئا فقد حجب عن الله تعالى به ، وأشرك شركا خفيا ، لتعلق محبته بغير الله ، كما قال تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ

(١) أخرجه فى المسند حديث ٥١٧٩ (طبعة المعارف) .

كَحَبِّ اللَّهِ^(١) وآثر نفسه به على الله ، فقد بعد من الله بثلاثة أوجه . وهى محبة غير الحق ، والشرك ، وإيثار النفس على الحق ؛ فإن آثر الله به على نفسه وتصدق به وأخرجه من يده فقد زال البعد ، وحصل القرب ، وإلا بق محجوباً ، وإن أنفق من غيره أضعافه ، فما نال برّاً لعلمه تعالى بما ينفق وباحتجابه بغيره .

« وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى فجازيكم عليه ، قليلاً كان أو كثيراً ، جيداً أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ)
« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ » قال الزمخشري : المعنى أن الطاعم كلها لم تزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة ، وتحريم ما حرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم ، لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير الطعوم الواحد الذى حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه ، فتبعوه على تحريمه .

تنبيهات :

الأول - روى ، فيما حرمه إسرائيل على نفسه ، أنه لحوم الإبل والبانها ، رواه الإمام أحمد فى قصة ، والترمذى وقال : حسن غريب . وروى عن ابن عباس والضحاك والسدى وغيرهم موقوفاً عليهم أنه العروق . قالوا : كان يعتريه عرق النساء بالليل فيزعجه ، فنذر لئن عوفى لا يأكل عرقاً ، ولا يأكل ولد ماله عرق ، فاتبعه بنوه فى إخراج العروق من اللحم

(١) [٢ / البقرة / ١٦٥] . . . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

استثنائه ، واقتداء بطريقه . قال الرازي : ونقل القفال رحمه الله عن ترجمة التوراة أن يعقوب لما خرج من حران إلى كنعان بعث بُرْدًا إلى أخيه عيسو إلى أرض ساعير ، فانصرف الرسول إليه وقال : إن عيسو هو ذا يتلقاتك ومعه أربعمائة رجل ، فذعر يعقوب وحزن جداً ، فصلى ودعا ، وقدم هدايا لأخيه ، وذكر القصة ، إلى أن ذكر الملك الذي لقيه في صورة رجل ، فدنا ذلك الرجل ، ووضع إصبعه على موضع عرق النسا ، فغدرت تلك العصبة وجفت ، فن أجل هذا لا يأت كل بنو إسرائيل العروق - انتهى - قلت : والقصة مسوقة في سفر التكوين من التوراة في الأصحاح الثاني والثلاثين .

الثاني : التحريم المذكور ، على الرواية الأولى ، أعني لحوم الإبل وألبانها ، فكان تبرراً وتعبداً وترهداً وقهراً للنفس ، طلباً لمرضاة الحق تعالى . وعلى الثانية فيما وفاء بالنذر وإما تداوياً وإما لكونه يمجّد نفسه تعافه - والله أعلم - بالتحريم بمعنى الامتناع .

الثالث : قال الزمخشري : الآية رد على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى : **فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ** . إلى قوله تعالى : **عَذَابًا أَلِيمًا** ^(١) وفي قوله : **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا** ، إلى قوله : **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ** ^(٢) . وجحود ما غاظهم واشتأزوا منه ، وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيتهم وظلمهم . فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرمة

(١) [٤ / النساء / ١٦٠ و ١٦١] . . . **وَبَصَدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نَهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** .

(٢) [٦ / الأنعام / ١٤٦] . . . **إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** .

على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا. إلى أن انتهى التحريم إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبنى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساوئهم - انتهى - .

« قُلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى دعواكم أنه تحريم قديم . وفى أمره ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم وبيكتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم حادث لا قديم ، كما يدعونه - أعظم برهان على صدقه وكذبهم إذ لم يجسروا على إخراج التوراة . فبهتوا وانقلبوا صاغرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (فَمَنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« فَمَنْ افْتَرَىٰ » أى تعمد « عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » أى فى أمر المطاعم وغيرها « مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » لتعرضهم إلى أن يهتكهم تعالى ويعذبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ صَدَقَ اللَّهُ » تعريض بكذبهم ، أى ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون « فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » أى ملة الإسلام التى عليها محمد ﷺ . ومن آمن معه والتى هى فى الأصل ملة إبراهيم عليه السلام حتى تتخلصوا من اليهودية التى ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم وأزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله لإبراهيم ولن تبعه « حَنِيفًا » أى مائلاً عن الأديان الزائغة « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض بما فى اليهودية والنصرانية من شرك إثبات الولد أو إلهية عيسى ، فكيف يزعمون أنهم على ملته ، وما كان يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وهو الذى بُعِثَ به محمد ﷺ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)
 « إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » أى لنسكهم وعباداتهم « لَلَّذِي بِبَكَّةَ » أى
 للبيت الذى ببكة، أى فيها . وفى ترك الموصوف من التفضيم مالا يخفى . وبكة لغة فى مكة ،
 فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم (ضَرْبَةٌ لَازِبٌ وَلَازِمٌ) و (النَّمِيطُ
 وَالنَّبِيطُ) فى اسم موضع بالدهناء ، وقولهم (أَمْرٌ رَاتِبٌ وَرَاتِمٌ) و (أَغْبَطْتُ
 الْحُمَى وَأَغْطَمْتُ) . وقيل : مكة البلد ، وبكة موضع المسجد ، سميت بذلك لدقها أعناق
 الجبابرة ، فلم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى ، أو لازدحام الناس بها من « بَكَّةُ » إذا
 فرقه ووضعه وإذا زاحمه ، كأن مكة من « مَكَّةُ » أهلكته ونقصه . لأنها تهلك من ظلم فيها
 وألحد وتنقص الذنوب أو تنفيها - كما فى القاموس - وقد ذهب بعضهم إلى أن مكة هى
 (ميثا) أو (ماسا) المذكورة فى التوراة ، وآخر إلى أنه مأخوذ عن اسم واحد من أولاد
 إسماعيل وهو (مسّا) . « مُبَارَكًا » أى كثير الخير ، لما يحصل لمن حجه ، واعتمره
 واعتكف عنده وطاف حوله ، من الثواب وتكفير الذنوب « وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ » لأنه
 قبلتهم ومتعبدتهم .

تنبيه :

ذكر بعض المفسرين أن المراد بالأولية كونه أولاً فى الوضع والبناء ، ورووا فى ذلك
 آثاراً . منها أنه تعالى خلق هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين ، ومنها أنه تعالى بعث
 ملائكة لبناء بيت فى الأرض على مثال البيت المعمور ، وذلك قبل خلق آدم ، ومنها أنه
 أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق السماء والأرض ، وأنه خلق قبل الأرض بألفى عام .
 وليس فى هذه الآثار خبر صحيح يعول عليه . والمتعين أن المراد أول بيت وضع مسجداً . كما
 بينه رواية ابن أبى حاتم عن على رضى الله عنه فى هذه الآية قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه

أول بيت وضع لعبادة الله تعالى . وفي الصحيحين^(١) عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم كان بينهما؟ قال : أربعون سنة ، ثم أين أدر كنت الصلاة بعد فصله . فإن الفضل فيه .

قال ابن القيم فى (زاد المعاد) : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به ، فقال : معلوم أن سليمان بن داود الذى بنى المسجد الأقصى . وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام . وهذا من جهل القائل ، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه ، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحق صلى الله عليهما وسلم ، بعد بناء إبراهيم عليه السلام بهذا المقدار - انتهى - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) « فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ » وهو الحجر الذى قام عليه عند رفعه قواعد البيت .

قال ابن كثير : وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إمارته إلى ناحية الشرق ، بحيث يتمكن الطواف منه ، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده ، حيث قال : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى^(٢) ، وتقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الترغيب

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٠ - حدثنا موسى بن إسماعيل ،

حديث ١٥٨٩ .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ١ (طبعنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا =

في زيارة البعض الحرم وفعل الطاعات فيه ، لأنه تعالى وصفه بالبركة والهدى وجعل فيه آيات بينات .

لطفة :

مقام إبراهيم مبتدأ حذف خبره ، أى منها مقام إبراهيم ، أو بدل من آيات ، بدل البعض من الكل ، أو عطف بيان ، إما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا . أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة . قالوا : فإن كل واحد من أثر قدميه في صخرة صماء ، وغوصه فيها إلى الكعبين وإلانة بعض الصخور دون بعض ، وإبقائه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام ، وحفظه ، مع كثرة الأعداء ، ألوف سنة ، آية مستقلة . ويؤيده قراءة (آية بينة) على التوحيد ، وإما بما يفهم من قوله عز وجل :

« وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » فإنه وإن كان جملة مستأنفة ابتدائية أو شرطية ، لكنها في قوة أن يقال « وأمن من دخله » فتكون ، بحسب المعنى والمآل ، معطوفة على مقام إبراهيم ، ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك ، أو يحمل على أنه ذكر من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداها دلالة على كثرتها - أفاده أبو السعود - قال المهايمي : « فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » رمى الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وتعجيل عقوبة من عتا فيه ، وإجابة دعاء من دعا تحت ميزابه ، وإذعان النفوس لتوقيره من غير زاجر ، ومن أعظمها . النازل بمنزلة الكل ، مقام إبراهيم ، الحجر الذي قام عليه عند رفعه قواعد البيت ، كلما علا الجدار ارتفع الحجر في الهواء ، ثم لين ، ففرقت فيه قدماء ، كأنهما في طين ، فبقى أثره إلى يوم القيامة . ومن آياته أن من دخله كان آمناً من نهب العرب وقتالهم ، وقد أمن صيده وأشجاره اه .

= وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

قال أبو السعود : ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما في قوله تعالى : أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ^(١) ، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا^(٢) ، وكان الرجل لو جرّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب . وعن عمر رضي الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج عنه اهـ .

تنبيه :

ما أفادته الآية من إثبات الأمان لداخله إنما هو بتحريمه الشرعي الذي وردت به الآيات ، وأوضحته الأحاديث والآثار . ففي الصحيحين^(٣) ، واللفظ لمسلم ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا . وقال يوم فتح مكة^(٤) : إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكة ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته ، إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها . فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر . ولهما عن أبي هريرة مثله أو نحوه ؛

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] ... أَفِيَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ .

(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٥] ونصها : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ .

(٣) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٢٧ - باب وجوب النفير ، حديث ٧١٠

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعنا) .

(٤) أخرجه البخاري في : ٢٨ - كتاب جزاء الصيد ، ١٠ - باب لا يحل القتال بمكة ،

حديث ٧١٠ .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٤٥ (طبعنا) .

ولهما^(١)، واللفظ لمسلم أيضاً، عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة ، ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناني ، ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي ، حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب . فقيل لأبي شريح : ما قال لك ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أباشريح . إن الحرم لا يعيد عاصياً ، ولا فاراً بدم ، ولا فاراً بخربة^(٢) .

قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد)^(٣) : قوله فلا يحل لأحد أن يسفك بها دمًا ، هذا التحريم لسفك الدم المحتص بها ، وهو الذي يباح في غيرها ، ويحرم فيها ، لكونها حرماً ، كما أن تحريم عضد الشجرة بها واختلاء خلأها والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها ، وهو مباح في غيرها ، إذ الجميع في كلام واحد ، ونظام واحد ، وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا أنواع :

أحدهما :

وهو الذي ساقه أبو شريح العدوي لأجله ، أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تقا تل لاسيما إن كان لها تأويل . كما امتنع أهل مكة من مبايعة يزيد ، وبايعوا ابن الزبير . فلم يكن قتالهم ونصب المنجنيق عليهم وإحلال حرم الله جائزاً بالنص والإجماع ، وإنما خالف

(١) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ٣٧ - باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب ،

حديث ٨٩ .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤٤٦ (طبعتنا) .

(٢) أي بسبب السرقة .

(٣) انظر الجزء الثاني ، صفحة ١٧٧ .

في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشيعته ، وعارض نص رسول الله ﷺ برأيه وهواه فقال : إن الحرم لا يعيد عاصياً ، فيقال له : هو لا يعيد عاصياً من عذاب الله ، ولو لم يُعِده من سفك دمه لم يكن حرماً بالنسبة إلى الآدميين ، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم ، وهو لم يزل يعيد العصاة من عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، وقام الإسلام على ذلك ، وإنما لم يعِدْ مِقْسَ بن صُبَّابة وابن خطل ومن سمي معهما لأنه في تلك الساعة لم يكن حرماً بل حلاً ، فلما انقضت ساعة الحرب عاد إلى ما وضع عليه يوم خلق الله السموات والأرض . وكانت العرب في جاهليتها ، يرى الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم فلا يهيج به ، وكان ذلك بينهم خاصة الحرم التي صار بها حرماً . ثم جاء الإسلام فأكد ذلك وقواه ، وعلم النبي ﷺ أن من الأمة من يتأسى به في إحلاله بالقتال والقتل ، فقطع الإلحاق وقال لأصحابه : فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لك ، وعلى هذا فمن أتى حداً أو قصاصاً خارج الحرم يوجب القتل ، ثم لجأ إليه ، لم يجز إقامته عليه فيه . وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه . وذكر عن عبد الله بن عمر أنه قال : لو وجدت فيه قاتل عمر ما بدته . وعن ابن عباس أنه قال : لو لقيت قاتل أبي في الحرم ماهجته حتى يخرج منه ، وهذا قول جمهور التابعين ومن بعدهم ، بل لا يحفظ عن تابعي ولا صحابي خلافة . وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله ومن وافقه من أهل العراق ، والإمام أحمد ومن وافقه من أهل الحديث . وذهب مالك والشافعي إلى أنه يستوفى منه في الحرم كما يستوفى منه في الحل ، وهو اختيار ابن المنذر ، واحتج لهذا القول بعموم النصوص الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل مكان وزمان ، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة^(١) ، وبما يروى

(١) أخرجه البخاري في : ٢٨ - كتاب جزاء الصيد ، ١٨ - باب دخول الحرم ومكة

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ^(١) : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا بخربة ، وبأنه لو كان الحدود والقصاص فيما دون النفس لم يعذه الحرم ، ولم يمنعه من إقامته عليه ، وبأنه لو أتى فيه بما يوجب حداً أو قصاصاً لم يعذه الحرم ولم يمنعه من إقامته ، فكذلك إذا أتاه خارجه ثم لجأ إليه ، إذ كونه حرماً بالنسبة إلى عصمته لا يختلف بين الأمرين ، وبأنه حيوان أبيع قتله لفساده ، فلم يفرق الحال بين قتله لاجئاً إلى الحرم وبين كونه قد أوجب ما أبيع قتله فيه ، كالحية والحدأة والكلب العقور ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ^(٢) : خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم . فنبه بقتلهن في الحل والحرم على العلة - وهي فسقهن - ولم يجعل التجاهن إلى الحرم مانعاً من قتلهن ، وكذلك فاسق بني آدم الذي قد استوجب القتل . قال الأولون : ليس في هذا ما يعارض ما ذكرنا من الأدلة ، ولا سيما قوله تعالى « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » وهذا إما خبر بمعنى الأمر لاستحالة الخلف في خبره تعالى ، وإما خبر عن شرعه ودينه الذي شرعه في حرمه ، وإما إخبار عن الأمر المعهود المستمر في حرمه في الجاهلية والإسلام كما قال تعالى : أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ

= عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر . فلما نزع جاء رجل فقال : إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة . فقال « اقتلوه » .

(١) هذا القول ليس قوله صلى الله عليه وسلم وإنما هو قول عمرو بن سعيد . انظر

الحاشية رقم ١ ص ٨٩٨ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢٨ - كتاب جزاء الصيد ، ٧ - باب ما يقتل المحرم من

الدواب ، ونصه :

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خمس من الدواب

كلهن فاسق يقتلن في الحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » .

ومسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٦٧ (طبعنا) .

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ^(١). وقوله تعالى: وَقَالُوا إِنَّ نَبَّيْعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا، أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ^(٢).

وما عدا هذا من الأقوال الباطلة فلا يلتفت إليه كقول بعضهم: من دخله كان آمناً من النار ، وقول بعضهم: كان آمناً من الموت على غير الإسلام ، ونحو ذلك ، فكم ممن دخله وهو في قعر الجحيم . وأما العمومات الدالة على استيفاء الحدود والقصاص في كل زمان ومكان فيقال أولاً : لا تعرض في تلك العمومات لزمان الاستيفاء ولا مكانه ، كما لا تعرض فيها لشروطه وعدم موانعه ، فإن اللفظ لا يدل عليها بوضعه ، ولا يتضمنه فهو مطلق بالنسبة إليها ، ولهذا إذا كان للحكم شرط أو مانع لم يقل إن توقف الحكم عليه تخصيص لذلك العام ، فلا يقول مَحْصَلٌ إن قوله تعالى: وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ^(٣) . مخصوص بالنكوح في عدتها أو بغير إذن وليها ، أو بغير شهود ، فهكذا النصوص العامة في استيفاء الحدود والقصاص لا تعرض فيها لزمانه ولا مكانه ولا شرطه ولا مانعه ، ولو قدر تناول اللفظ لذلك لوجب تخصيصه بالأدلة الدالة على المنع ، لثلا يبطل موجبها ، ووجب حمل اللفظ العام على ما عداها كسائر نظائره ، وإذا خصصتم تلك العمومات بالحامل والمرضع والمريض الذي يرجى برؤه ، والحال المحرمة للاستيفاء كشدة المرض أو البرد أو الحر ، فما المانع من تخصيصها بهذه الأدلة ؟ وإن قلتم ليس ذلك تخصيصاً بل تقييداً لمطلقها كلنا لكم هذا الصاع

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٧] . . . رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٣) [٤ / النساء / ٢٤] ونصها : وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ،

كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً .

سواء بسواء . وأما قتل ابن خطل فقد تقدم أنه كان في وقت الحل ، وإن النبي ﷺ قطع الإلحاق ، ونص على أن ذلك من خصائصه ، وقوله ﷺ : وإنما أحلت لي ساعة من نهار ، صريح في أنه إنما أحل له سفك دم حلال في غير الحرم في تلك الساعة خاصة ، إذ لو كان حلالاً في كل وقت ، لم يختص بتلك الساعة ، وهذا صريح في أن الدم الحلال في غيرها حرام فيها ، فيما عدا تلك الساعة . وأما قوله : الحرم لا يعيد عاصياً ، فهو من كلام الفاسق عمرو بن سعيد الأشدق ، يردّ به حديث رسول الله ﷺ حين روى له أبو شريح الكعبيّ هذا الحديث ، كما جاء مبيناً في الصحيح ، فكيف يقدم على قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وأما قولكم : لو كان الحد والقصاص فيما دون النفس لم يعيده الحرم منه ، فهذه المسألة فيها قولان للعلماء وهما روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد رحمه الله ، فمن منع الاستيفاء نظر إلى عموم الأدلة العاصمة بالنسبة إلى النفس وما دونها ، ومن فرق قال سفك الدم إما ينصرف إلى القتل ولا يلزم من تحريمه في الحرم تحريم مادونه ، لأن حرمة النفس أعظم ، والانتهاك بالقتل أشد ، قالوا : ولأن الحد بالجلد أو القطع يجري مجرى التأديب ، فلم يمنع منه كتأديب السيد عبده . وظاهر هذا المذهب أنه لا فرق بين النفس وما دونها في ذلك . قال أبو بكر : هذه مسألة وجدتها لحنبل عن عمه : أن الحدود كلها تقام في الحرم إلا القتل ، قال : والعمل على أن كل جانٍ دخل الحرم لم يُقَمَّ عليه الحد حتى يخرج منه ، قالوا : وحينئذ فنجيبكم بالجواب المركب ، وهو أنه إن كان بين النفس وما دونها في ذلك فرق مؤثر بطل الإلزام ، وإن لم يكن بينهما فرق مؤثر سوينما بينهما في الحكم وبطل الاعتراض ، فتحقق بطلانه على التقديرين . قالوا : وأما قولكم إن الحرم لا يعيد من هتك فيه الحرمة إذ أتى بما يوجب الحد ، فكذلك اللاجئ إليه ، فهو جمع بين ما فرق الله ورسوله والصحابة بينهما . فروى الإمام أحمد ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال : من سرق أو قتل في الحل ثم دخل الحرم فإنه لا يجالس ولا يكلم ولا يؤوى حتى يخرج فيؤخذ فيقام عليه الحد . وإن سرق أو قتل في الحرم أقيم عليه في الحرم . وذكر الأثر من

ابن عباس أيضاً : من أحدث حدثاً في الحرم أقيم عليه ما أحدث فيه من شيء ، وقد أمر الله سبحانه بقتل من قاتل في الحرم فقال « وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ . والفرق بين اللاجئ والمتهتك فيه من وجوه :
أحدها :

أن الجاني فيه هاتك لحرمته بإقدامه على الجنابة فيه ، بخلاف من جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه معظّم لحرمته مستشعر بها بالتجائه إليه ، فقياس أحدهما على الآخر باطل .
الثاني :

أن الجاني فيه بمنزلة الفساد الجاني على بساط الملك في داره وحرمة ، ومن جنى خارجه ثم لجأ إليه فإنه بمنزلة من جنى خارج بساط الملك وحرمة ثم دخل إلى حرمة مستجيراً .
الثالث :

أن الجاني في الحرم قد هتك حرمة الله سبحانه وحرمة بيته وحرمة فهو هاتك لحرمتين بخلاف غيره .

الرابع :
أنه لو لم يتم الحد على الجنابة في الحرم لعم الفساد وعظم الشر في حرم الله ، فإن أهل الحرم كفبرهم في الحاجة إلى صيانة نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ، ولو لم يشرع الحد في حق من ارتكب الجرائم في الحرم لتعطلت حدود الله وعم الضرر للحرم وأهله .
والخامس :

أن اللاجئ إلى الحرم بمنزلة التائب المتصل اللاجئ إلى بيت الرب تعالى المتعلق بأستاره ، فلا يناسب حاله ولا حال بيته وحرمة أن يهاج ، بخلاف المقدم على انتهاك حرمة .

فظهر سر الفرق ، وتبين أن ما قاله ابن عباس هو محض الفقه . وأما قولكم إنه حيوان مفسد فأبيح قتله في الحل والحرم كالكلب العقور فلا يصح القياس ، فإن الكلب العقور طبعه الأذى ، فلم يحرمه الحرم ليدفع أذاه عن أهله . وأما الآدمي فالأصل فيه الحرمة وحرمة

عظيمة ، فإنما أبيع لعارض فأشبهه الصائل من الحيوانات المباحة من الماء كولات ، فإن الحرم يعصمها ، وأيضاً فإن حاجة أهل الحرم إلى قتل الكلب المقور والحية والحدأة كحاجة أهل الحل سواء ، فلو أعادها الحرم لعظم عليهم الضرر بها - انتهى . (من الجزء الثانى من صفحة ١٧٧ إلى صفحة ١٨٠) .

ولما ذكر تعالى فضائل البيت ومناقبه أردفه بذكر إيجاب الحج فقال « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » اللام فى البيت للعهد . وحجه : قصده للزيارة بالنسك المعروف . وكسر الحاء وفتحها لغتان ، وهما قراءة سبعيتان ، وفى الآية مباحث :

الأول :

فى إعرابها قال أبو السعود فى صدر الآية : جملة من مبتدأ هو « حِجُّ الْبَيْتِ » وخبر هو « لِلَّهِ » وقوله تعالى « عَلَى النَّاسِ » متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار ، أو محذوف هو حال من الضمير المستكن فى الجار ، والعامل فيه ذلك الاستقرار ، ويجوز أن يكون « عَلَى النَّاسِ » هو الخبر ، و « لِلَّهِ » متعلق بما تعلق به الخبر . ثم قال فى قوله تعالى « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فى محل الخبر على أنه بدل من « النَّاسِ » بدل البعض من الكل مخصص لعمومه ، فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف ، أى « من استطاع منهم » ، وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع ، فلا حاجة إلى الضمير ، وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر ، أى هم من استطاع ، وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى .

الثانى :

هذه الآية هى آية وجوب الحج عند الجمهور ، وقيل بل هى قوله « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ »^(١) ، والأول أظهر . وفى فتح البيان : اللام فى قوله « لِلَّهِ » هى التى يقال لها

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ =

لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف « عَلَى » فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل : لفلان على كذا . فذكره الله سبحانه بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه ، وتعظيماً لحرمته . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً .

الثالث :

يُحِبُّ الْحَجَّ عَلَى الْمَكْفِ فِي الْعُمْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً . بالنص والإجماع ؛ روى الإمام أحمد ومسلم^(١) وغيرها عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس إنه فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت . حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم . ثم قال : ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . وروى الإمام أحمد وأبو داود^(٢) والنسائي وغيرهم عن ابن عباس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ! إن الله كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : يا رسول الله أفى كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها . الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع .

= مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ ، فَإِذَا أُمِيتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ٤١٢ (طبعنا) .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ، حديث ٢٣٠٤ .

وأبو داود في : ١١ - كتاب المناسك ، ١ - باب فرض الحج ، حديث ١٧٢١ .

الرابع :

استطاعة السبيل عبارة عن إمكان الوصول إليه . قال ابن المنذر : اختلف العلماء في قوله تعالى « مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فقالت طائفة : الآية على العموم ، إذ لا نعلم خبراً ثابتاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا إجماعاً لأهل العلم يوجب أن نستثنى من ظاهر الآية بعضاً ، فملى كل مستطيع للحج يجد إليه السبيل بأى وجه كانت الاستطاعة ، الحج . على ظاهر الآية . قال : وروينا عن عكرمة أنه قال : الاستطاعة/الصفة . وقال الضحاك : إذا كان شاباً صحيحاً ليس له مال فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يتقضى نسكه . فقال له قائل : أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا ، بل ينطلق إليه ولو حبواً ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت . وقال مالك : الاستطاعة على إفاطة الناس ، الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشى ، وآخر يقدر على المشى على رجليه . وقالت طائفة : الاستطاعة الزاد والراحلة ، كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل ، واحتجوا بحديث ابن عمر أن رجلاً قال : يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة - رواه الترمذى - وفي إسناده الخوزى فيه مقال . قال ابن كثير : لكن قد تابعه غيره . وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث . ورواه الحاكم من حديث قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله عز وجل : مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . فقيل : ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

الخامس :

قال الإمام ابن القيم الدمشقى رضى الله عنه في (زاد المعاد) في سياق هديه صلى الله عليه وسلم في حجته : لا خلاف أنه لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة ، وهي حجة الوداع ، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر ، واختلف هل حج قبل الهجرة ؟

وروى الترمذى^(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : حج النبي ﷺ ثلاث حجج : حجتين قبل أن يهاجر ، وحجة بعد ما هاجر ، معها عمرة . قال الترمذى : هذا حديث غريب من حديث سفيان . قال : وسألت محمداً - يعنى البخارى - عن هذا فلم يعرفه من حديث الثورى . وفى رواية : لا يعد هذا الحديث محفوظاً . ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير ، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر . وأما قوله تعالى : **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ** ، فإنها ، وإن نزلت سنة ست عام الحديبية ، فليس فيها فريضة الحج ، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما ، وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء . فإن قيل : فمن أين لكم تأخر نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة ؟ قيل : لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود ، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ ، وصالحهم على أداء الجزية ، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع ، وفيها نزل صدر سورة آل عمران ، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهاة . ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا في نفوسهم لما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية . ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما كان فى سنة تسع . وبعث الصديق يؤذن بذلك فى مكة فى مواسم الحج وأردفه بعلى رضى الله عنه ، وهذا الذى ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف والله أعلم . وقوله تعالى :

« **وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** » إما مستأنف لوعيد من كفر به تعالى ، لا تعلق له بما قبله ، وإما أنه متعلق به ومنتظم معه ، وهو أظهر وأبلغ . والكفر ، على هذا ، إما بمعنى جحد فريضة الحج ، أو بمعنى ترك ما تقدم الأمر به . ونظيره فى السنة ما رواه

(١) أخرجه الترمذى فى : ٧ - كتاب الحج ، ٦ - باب ما جاء : كم حج النبي ﷺ .

النسائي والترمذي^(١) عن بريدة مرفوعاً : العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر . وعن عبد الله بن شقيق قال^(٢) : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة - أخرجه الترمذي - ولأبي داود^(٣) عن جابر مرفوعاً : بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة . ولفظ مسلم^(٤) : بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة . وروى الترمذي^(٥) عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من ملك زاداً وراحلة تبغله إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفي إسناده مقال . وقد روى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي عن عمر بن الخطاب قال : من أطاق الحج فلم يحج ، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً . قال ابن كثير : إسناده صحيح إلى عمر رضي الله عنه . وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى هذه الأمصار ، فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين . قال السيوطي في (الإكمال) : وقد استدل بظاهر الآية ابن حبيب على أن من ترك الحج ، وإن لم ينكره ، كفر . ثم قال : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر : من كان يجد وهو موسر صحيح ولم يحج ، كان سيئاً بين عيني كافر ، ثم تلا هذه الآية .

(١) أخرجه النسائي في : ٥ - كتاب الصلاة ، ٨ - باب الحكم في تارك الصلاة .

والترمذي في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ٩ - باب ما جاء في ترك الصلاة .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣٨ - كتاب الإيمان ، ٩ - باب ما جاء في ترك الصلاة .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٥ - باب الدليل على الزيادة والنقصان ،

حديث ٤٦٧٨ .

(٤) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٣٤ (طبعنا) .

(٥) أخرجه الترمذي في : ٧ - كتاب الحج ، ٣ - باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج .

تنبيه :

هذه الآية السكريمة حازت من فنون الاعتبارات العربية عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه مالا مزيد عليه ، فنها الإتيان بـ (اللام وعلى) في قوله : **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ** . يعنى أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهده ؛ ومنها أنه ذكر (الناس) ثم أبدل عنه (من استطاع إليه سبيلاً) ، وفيه ضربان من التأكيد :

أحدهما - أن الإبدال ثنية للمراد وتكريره .

والثانى - أن الإيضاح بعد الإيهام ، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين .

ومنها قوله « **وَمَنْ كَفَرَ** » مكان « **من لم يحج** » تغليظاً على تارك الحج . ومنها ذكر الاستغناء عنه . وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان . ومنها قوله : **عَنِ الْعَالَمِينَ** ، ولم يقل : عنه . وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه - أشار لذلك **الزخشرى** - ثم عنف تعالى كفره أهل الكتاب على عنادهم للحق بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] **(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)**

« **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** » أى الدالة على نبوة محمد ﷺ

وقوله : « **وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ** » حال مفيدة لتشديد التوبيخ . وإظهار الجلالة فى موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب . وصيغة المبالغة فى (شَهِيدٌ) لتأكيد الوعيد ، وكل ذلك موجب لعدم الاجترار على ما يأتونه . ثم عقب تعالى الإنكار عليهم فى ضلالهم توبيخهم فى إضلالهم فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دينه . وكانوا يحتالون لصدهم عن الإسلام « مَنْ ءَامَنَ » مفعول (تصدون) قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به « تَبْغُونَهَا » على الحذف والإيصال ، أى تبغون لها ، أى لسبيل الله التى هى أقوم السبل « عِوَجًا » أى اعوجاجاً وزيفاً وتحريفاً . قال ابن الأنبارى : البغى يقتصر له على مفعول واحد إذا لم يكن معه اللام ، كقولك : بغيت المال والأجر والثواب ، وأريد ههنا : تبغون لها عوجاً ثم أسقطت اللام . كما قالوا : وهبتك درهماً ، أى وهبت لك درهماً ، ومثله صدتك ظبياً ، أى صدت لك ظبياً ، وأنشد :

فتولى غلامهم ثم نادى أظليماً أصيدكم أم حماراً
أراد : أصيد لكم .

قال الرازى : وفى الآية وجه آخر ، وهو أن يكون (عوجاً) فى موضع الحال . والمعنى تبغونها ضالين ، وذلك أنهم كانوا يدعون أنهم على دين الله وسبيله ، فقال تعالى : إنكم تبغون سبيل الله ضالين ، وعلى هذا القول لا يحتاج إلى الحذف والإيصال .

وذكر ناصر الدين فى (الاتصاف) وجهاً آخر قال : هو أتم معنى ، وهو أن تجعل الهاء هى المفعول به ، و(عوجاً) حال وقع فيها المصدر الذى هو (عوجاً) موقع الاسم ، وفى هذا الإعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج . على طريقة المبالغة فى مثل رجل صوم ، ويكون ذلك أبلغ فى ذمهم وتوبيخهم - والله أعلم -

« وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ » بأنها سبيل الله والصد عنها ضلال وإضلال « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » تهديد ووعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أى بحسن اعتقادكم فيهم لكونهم أهل الكتاب « يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » أى بالتوحيد والنبوة « كَافِرِينَ » لأنهم يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما قال تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ .. (١)

الآية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ » معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجب . والمعنى : من أين يتطرق لكم الكفر ؟ « وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ » وهى القرآن المعجز الذى هو أجل من الآيات المتلوة عليهم « وَفِيكُمْ رَسُولُهُ » ينهكم ويعظكم ويزيح شبهكم ، وقد هداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الجهالة « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى من يتمسك بدينه الحق الذى بينه بآياته على لسان رسوله ، وهو الإسلام والتوحيد ، المعبر عنه بسبيل الله ، فهو على هدى لا يضل متبعمه . قال الزمخشري : ويجوز أن يكون حشاً لهم على الالتجاء إليه فى دفع شرور الكفار ومكايدهم - انتهى - فالجملة حينئذ

(١) [٢ / البقرة / ١٠٩] ونصها : ... مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تذييل لقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ تَطِيعُوا... الخ ، لأن مضمونه أنكم إن تطيعوهم
لخوف ضرورهم ومكايدهم ، فلا تخافوهم ، والتجئوا إلى الله في دفع ذلك ، لأن من التجأ
إليه كفاه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ » أى حق تقواه ، وذلك بدوام خشيته
ظاهراً وباطناً والعمل بموجبها . وقد روى الحافظ ابن أبى حاتم بإسناد صحيح عن عبد الله
ابن مسعود أنه قال فى معنى الآية : هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن
يشكر فلا يكفر . ورواه ابن مردويه والحاكم مرفوعاً ، وقال : صحيح على شرط الشيخين
ولم يخرجاه .

قال ابن كثير : والأظهر أنه موقوف - والله أعلم - .

وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى العبدُ اللهَ حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقال على
ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية : أن يجاهدوا فى سبيل الله حتى جهاده ولا تأخذهم
فى الله لومة لائم . ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم .
أقول : كل ما روى ، مما تشمله الآية بعمومها ، فلا تنافى .

تنبيه :

زعم بعضهم أن هذه الجملة من الآية منسوخة بآية : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . (١) متأولاً
حق تقاته بأن يأتى العبد بكل ما يجب لله ويستحقه . قال : فهذا يعجز العبد عن الوفاء ،
فتحصيله ممتنع . وهذا الزعم لم يصب المحز ، فإن كلامنا الآيتين سيق فى معنى خاص به ،
(١) [٦٤ / التباين / ١٦] ونصها : ... وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ،
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

فلا يتصور أن يكون في هذه الجملة طلب مالا يستطيع من التقوى ، بل المراد منها دوام الإنابة له تعالى وخشيته وعرفان جلاله وعظمته قلباً وقالباً ، كما بينا . وهذا من المستطاع لكل منيب . وقوله تعالى : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . أمر بعبادته قدر الاستطاعة بلا تكليف لما لا يطاق ، إذ : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^(١) . وظاهر أن من أتى بما يستطيعه من عبادته تعالى وأناب لجلاله ، وأخلص في أعماله ، وكان مشفقاً في طاعاته ، فقد اتقى الله حق تقاته . « وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مخلصون نفوسكم لله تعالى . لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلاً ، كما في قوله تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ^(٢) . وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى لا تموتن على حال من الأحوال ، إلا حال تحقق إسلامكم وثباتكم عليه ، كما ينبيء عنه الجملة الاسمية . ولو قيل (إلا مسلمين) لم يفد فائدتها . والعامل في الحال ما قبل (إلا) بعد النقص . وظاهر النظم الكريم ، وإن كان نهياً عن الموت القيد بقيد ، هو الكون على أى حال غير حال الإسلام - لكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للأمر بضده الذى هو الكون على حال الإسلام حينئذ . وحيث كان الخطاب للمؤمنين ، كان المراد إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت . وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة في النهى عن قيده المذكور . فإن النهى عن القيد في أمثاله ، نهى عن القيد ورفع له من أصله بالكلية ، مفيد لما لا يفيد النهى عن نفس القيد . فإن قولك : لا تصل إلا وأنت

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٦] ونصها : ... لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

(٢) [٤ / النساء / ١٢٥] ونصها : ... وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .

خاشع ، يفيد من المبالغة في إيجاب الخشوع في الصلاة ما لا يفيد قولا : لا تترك الخشوع في الصلاة . لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط ، وذلك نهى عنه وعما يقارنه ، ومفيد لكون الخشوع هو العمدة في الصلاة ، وأن الصلاة بدونها حقها أن لا تفعل . وفيه نوع تحذير عما وراء الموت - أفاده أبو السعود .

وقد مضى في سورة البقرة الكلام على لون آخر من سر البلاغة في هذه الجملة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

«وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» الجبل إما بمعنى العهد، كما قال تعالى في الآية بعدها : ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيَّمَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ^(١) . أى بعهد وذمة ، وإما بمعنى القرآن ، كما في صحيح مسلم^(٢) عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال :

(١) [٣ / آل عمران / ١١٢] ... وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٣٦ (طبعنا) ونصه : عن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم . فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت ، يا زيد ، خيراً كثيراً . رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه . لقد لقيت ، يا زيد ، خيراً كثيراً . =

ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله هو جبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة ... الحديث ، والوجهان متقاربان ، فإن عهده أى شرعه ودينه وكتابه حرز للمتمسك به من الضلالة ، كالجبل الذى يتمسك به خشية السقوط ، وقوله « وَلَا تَفَرَّقُوا » أى لاتتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم ، كما اختلف اليهود والنصارى ، أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية ، متدابرين ، يعادى بعضكم بعضاً ، ويحاربه . أو ولا تحدثوا

= حدثنا ، يا زيد ، ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : يا ابن أخى ، والله ! لقد كبرت سنى ، وقدم عهدي ، ونسيت بعض الذى كنت أحمى من رسول الله ﷺ . فما حدثتكم فاقبلوا . وما لا ، فلا تكلفونه .

ثم قال : قام رسول الله ﷺ فىنا خطيباً ، بماء يدعى حُماً ، بين مكة والمدينة . فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر . ثم قال « أما بعد . ألا أيها الناس . فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما ، كتاب الله فيه الهدى والنور . فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه . ثم قال « وأهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى . أذكركم الله فى أهل بيتى » .

فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته من حُرِّ الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم : آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم .

وفى الحديث رقم ٣٧ قال « ألا وإني تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله ، هو جبل الله ، من اتبعه كان على الهدى ، ومن تركه كان على ضلالة » .

وفيه : فقلنا له : من هم أهل بيته ؟ نساؤه ؟ قال : لا . وإيم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها . أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده .

ما يكون عنه التفرق ، ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يباه جامعكم والمؤلف بينكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام - أفاده الزمخشري - « وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » قال الزمخشري : كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، أَلَفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بِالْإِسْلَامِ ، وقذف فيها المحبة ، فتحابوا وتوافقوا وصاروا إخواناً متراحين متناصحين مجتمعين على أمر واحد ، قد نظم بينهم وأزال الاختلاف ، وهو الأخوة في الله « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا » أى طرف « حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » بما كنتم فيه من الجاهلية « فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » أى بالإسلام. قال ابن كثير : وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم . فلما جاء الله بالإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى. قال الله تعالى : هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ^(١) ... الآية - وكانوا على شفا حفرة من النار ، بسبب كفرهم ، فأنقذهم الله منها ، إذ هداهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ ، يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم ، بما فضل عليهم في القسمة ، بما أراه الله ، فخطبهم فقال ^(٢) : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ؟ فكلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله آمن - انتهى -

(١) [٨ / الأنفال / ٦٢ و ٦٣] ونصهما : وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٥٦ - باب غزوة الطائف في شوال

سنة ثمان ، حديث ١٩٣١ ونصه :

=

لطيفة :

قال الزمخشري : الضمير في : منها . للحفرة أو للنار أو للشفا ، وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة ، وهو منها كما قال ^(١) :

كما شرقت صدر القناة من الدم - انتهى -

= عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ ، يوم حنين ، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً . فكأنهم وجدوا ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس . فخطبهم فقال « يا معشر الأنصار : ألم أجدكم ضاللاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمّن . قال « ما يمنكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ » قال كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمّن .

قال « لو شئتم قتلتم : جئنا كذا وكذا . أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها . الأنصار شعار والناس دثار . إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ١٣٩ (طبعنا) .

(١) قائله الأعشى . وصدره : وتشرق بالقول الذي قد أذعته

من قصيدة مطلعها :

ألا قل لتيّاً قبل مرّتها اسلمى تحية مشتاق إليها متيم

يهجو عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبدان ، حين جمع بينه وبين جهنّم لهاجيه :

يقول قبل البيت :

لئن كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجك القول حتى تهزّه وتعلم إني عنك لست بمُلجَم

= وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

وقال أبو حيان : لا يحسن عوده إلا إلى الشفا ، لأنه المحدث عنه - انتهى -

وفي الانتصاف : يجوز عود الضمير إلى الحفرة ، فلا يحتاج إلى تأويله المذكور ، كما تقول : أكرمت غلام هند ، وأحسنيت إليها ، والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم ، لأنها التي يمتنُّ بالإيقاظ منها حقيقة ، وأما الامتنان بالإيقاظ من الشفا ، فلما يستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهوى إلى الحفرة ، فيكون الإيقاظ من الشفا إيقاظاً من الحفرة التي يتوقع الهوى فيها . فإضافة النية إلى الإيقاظ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع . مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو عليّ في (التعليق) من ضرورة الشعر ، خلاف رأيه في (الإيضاح) - نقله ابن يسعون -

وما حمل الزمخشريّ على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه ، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإيقاظ منها . وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالإيقاظ من الحفرة ، لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً ، لولا الإيقاظ الربانيّ . ألا ترى إلى قوله ﷺ ^(١) : الرانع حول الحمى يوشك أن يواقعه ؟ وإلى قوله تعالى : أَمْ مَنْ أَسَّسَ

= يقول : لئن خرقت الأرض فكنت في جب ثمانين قامة ، أو طرت في الفضاء فرقت أسباب السماء ، ليلفغنك قولي وليترككنك تدرج على الأرض حتى تكره الكلام ، وتعلم أنني غير عاجز عن الانتقام وحتى تشرق بما أذعت من القول ، كما يشرق مقدم الرمح بالدم . أسباب السماء : مراقبها ، وقيل طرقها ونواحيها . استدرجه : خدعه وأدناه ، أو أتلفه حتى تركه يدرج على الأرض . تهرّه : تكرهه . تشرق : تنصّ . صدر القناة : أعلاها .

من شرح الديوان للدكتور محمد حسين

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٢ - باب الحلال بين والحرام بين

وبينهما مشبهات :

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال النبيّ ﷺ « الحلال بين والحرام بين =

«بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(١) . وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سبباً مؤدياً إلى انهياره في نار جهنم ، مع تأكيد ذلك بقوله «هار» . والله أعلم - انتهى -

ثم قال الزمخشري : وشفا الحفرة وشفتها حرفها ، بالتذكير والتأنيث ، ولامها واو إلا لأنها في المذكر مقبولة ، وفي المؤنث محذوفة . ونحو الشفا والشفة ، الجانب والجانبه - انتهى . وحكى الزجاج في ثنية شفا «شفوان» . قال الأخفش لما لم تجز فيه الإمامة عرف أنه من الواو ، لأن الإمامة من الياء - كذا في الصحاح .

ثم قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار ، فثلث حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار ، بالتمسك على حرفها مُشْفِينَ على الوقوع فيها .

قال الرازي : وهذا فيه تنبيه على تحقير مدة الحياة ، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع في الحفرة ، إلا ما بين طرف الشيء وبين ذلك الشيء .

«كَذَلِكَ» أى مثل ذلك البيان «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ» في كل مكان لإيقاظكم عن الضلال فيه «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» لرشدكم الديني والديوي فيه . ثم أشار إلى أنه كما أُنقذكم من النار والضلال بإرسال الرسل وإنزال الآيات ، فليكن فيكم من ينقذ إخوانه ، فقال :

= وبينهما أمور مشتبهة . فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك . ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان . والمعاصي حى الله . من يرتع حول الحى يوشك أن يواقع .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٩] ونصها : أَفَنَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ » أى جماعة ، سميت بذلك لأنها يؤمها فرق الناس ، أى يقصدونها ويقتدون بها « يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ » وهو ما فيه صلاح ديني ودنيوي « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ » أى بكل معروف ، من واجب ومندوب يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » أى عن كل منكر ، من حرام ومكروه يقربهم إلى النار ويبعدهم من الجنة « وَأُولَئِكَ » الداعون الآمرون الناهون « هُمُ الْمُفْلِحُونَ » الفائزون بأجور أعمالهم وأعمال من تبعهم .

قال بعضهم : الفلاح هو الظفر وإدراك البغية . فالدينوي هو إدراك السعادة التي تطيب بها الحياة ، والأخروي أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وعز بلا ذل ، وغنى بلا فقر ، وعلم بلا جهل .

لطيفة :

قيل : عطف : (وَيَأْمُرُونَ) على ما قبله ، من عطف الخاص على العام - كذا قاله الزخشي . وناقشه في الانتصاف . وعبارته : عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام ، كقوله : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ^(١) . وكقوله : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ^(٢) . وكقوله : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى^(٣) . وشبه ذلك . لأن الاقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] ... فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٦٨] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ... وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ .

يفيده تمييزاً عن غيره من بقية التناولات . وأما هذه الآية فقد ذكر ، بعد العام فيها ، جميع ما يتناوله ، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور ، أو ترك منهى ، لا يعدو واحداً من هذين حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية التناولات ، فالأولى في ذلك أن يقال : فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً ثم مفصلاً . وفي تنبيهه أن الذكر على وجهين مالا يخفى من العناية - والله أعلم - إلا أن يثبت عرف بخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير ، فإذا ذاك يتم مراد الزمخشري ، وما أرى هذا العرف ثانياً - والله أعلم - انتهى .
تنبيه .

في الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها - كذا في فتح البيان -

قال الغزالي رضي الله عنه : في هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله تعالى « وَلْتَكُنْ » أمر . وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به ، إذ حَصَرَ وقال : أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين . إذ لم يقل : كونوا كلكم أمرين بالمعروف . بل قال : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ . فإذا ، مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون ، عمّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة . انتهى .

فإن قلت : فمن يباشره ؟ فالجواب : كل مسلم تمكن منه ولم يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة ، أو إن نهيه لا يؤثر ، لأنه عبث ، إلا أنه يستحب لإظهار شعار الإسلام ، وتذكير الناس بأمر الدين . فإن قلت : فمن يؤمر وينهى ؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف إذا هم بضرر غيره منع ، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبياني عن المحرمات حتى لا يتعودوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليرنوا عليها - ذكره الزمخشري - .

وتفصيل هذا البحث في (الإحياء) للغزالي قدس سره، وقد قال ، قدس سره ، في طليعة ذلك البحث ما نصه : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهيم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وempt الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحى بالكلية حقيقته ورسمه ، واستولت على القلوب مدهانة الخلق ، وانمحى عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وغرّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافى هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلاً بعملها ، أو متقلداً لتنفيذها ، مجدداً لهذه السنة الدائرة ، ناهضاً بأعبائها ، ومتشمرّاً في إحيائها ، كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إقامتها ، ومستبدداً بقرينة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها - انتهى - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ينهى تعالى عباده أن يكونوا كاليهود والنصارى في افتراقهم مذاهب ، واختلافهم عن الحق بسبب اتباع الهوى ، وطاعة النفس ، والحسد ، حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء بعضاً دون بعض ، ويدعو إلى ما ابتدعه في دينه ، فصاروا إلى العداوة والفرقة من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة ، المبينة للحق ، الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة ، وهي كلمة الحق . فالنهي متوجه إلى المتصدين للدعوة أصالةً ، وإلى أعقابهم تبعاً . وفي قوله

تعالى « وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » من التأكيد والمبالغة في وعيد المتفرقين ، والتشديد في تهديد المشبهين بهم ، ما لا يخفى .

تنبيهات

الأول :

ذكر الفخر الرازي من وجوه قوله تعالى : اِخْتَلَفُوا . أى بأن صار كل واحد منهم يدعى أنه على الحق ، وأن صاحبه على الباطل . ثم قال : وأقول إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة ، فنسأل الله العفو والرحمة - انتهى كلامه - وقوله (هذا الزمان) إشارة إلى أن هذا الحال لم يكن في علماء السلف ، وما زالوا يختلفون في الفروع وفي الفتاوى بحسب ما قام لديهم من الدليل ، وما أداه إليه اجتهدهم ، ولم يضل بعضهم بعضاً ، ولم يدع أحدهم أنه على الصواب الذى لا يحتمل الخطأ ، وأن مخالفه على خطأ لا يحتمل الصواب ، وإنما نشأ هذا من جمود المقلدة المتأخرين وتعصبهم وظنهم عصمة مذهبهم ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . وقد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ في البلاد ، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين ، وهم على وحدتهم وتناصرهم .

الثانى :

قال القاشانى : يعنى بـ « الآيات » الحجج العقلية والشرعية الموجبة لاتحاد الوجهة ، واتفاق الكلمة ، فإن للناس طبائع وغلز مختلفة ، وأهواء متفرقة ، وعادات وسيراً متفاوتة ، مستفادة من أمزجتهم وأهويتهم ، ويترتب على ذلك فهوم متباينة ، وأخلاق متعادية ، فإن لم يكن لهم مقتدى وإمام ، تتحد عقائدهم وسيرهم وآراؤهم بمتابعته ، وتتفق كلماتهم وعاداتهم وأهواؤهم بحبته وطاعته ، كانوا مهملين متفرقين ، فرائس للشيطان ، كشريدة الغم ، تكون للذئب . ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : لابد للناس من إمام ، بر أو فاجر . ولم يرسلني الله ﷻ رجلين فصاعداً لسانٍ ، إلا وأمر أحدهما على الآخر ، وأمر الآخر بطاعته

ومتابعته ، ليتحد الأمر ، وينتظم ، وإلا وقع المهرج والمرج ، واضطرب أمر الدين والدنيا ، واختل نظام المعاش والمعاد . قال رسول الله ﷺ ^(١) : من فارق الجماعة قيد شبر لم ير محبوباً الجنة . وقال ^(٢) : الله مع الجماعة . ألا ترى أن الجمعية الإنسانية إذا لم تنضبط برئاسة القلب ، وطاعة العقل ، كيف اختل نظامها ، وآلت إلى الفساد والتفرق ، الموجب لخسار الدنيا والآخرة . ولما نزل قوله تعالى : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، خط رسول الله ﷺ خطأ فقال ^(٣) : هذا سبيل الرشd ، ثم خط عن يمينه وشماله خطوطاً فقال : هذه سبل ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه .

(١) أخرجه البخاري في : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٢ - باب قول النبي ﷺ : سترون بعدى أموراً تنكرونها ، حديث ٢٥٤٦ ونصه :

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية » .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣١ - كتاب الفتن ، ٧ - باب ما جاء في لزوم الجماعة ، ونصه : عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يجمع أمتي ، (أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم) على ضلالة ، ويد الله مع الجماعة ، ومن شذَّ شذَّ إلى النار » .

(٣) أخرجه الدارمي في : المقدمة ، ٢٣ - باب في كراهية أخذ الرأي ونصه : عن عبد الله بن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطاً ثم قال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال « هذه سبل . على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » .

ثم تلا : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

الثالث :

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية، قدس سره، في أول كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) : ولعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يعتقد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته ، دقيق ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك ، إلا الرسول ﷺ . ولكن إذا وجد لواحد منهم قول، قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلا بد له من عذر في تركه ، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدها - عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله ،

الثاني - عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول ،

الثالث - اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

وهذه الأصناف الثلاثة تنفرع إلى أسباب متعددة - ثم أوسع المقال في ذلك - . وذكر قدس سره، في بعض فتاويه ، أن السلف والأئمة الأربعة والجمهور يقولون: الأدلة بعضها أقوى من بعض في نفس الأمر . وعلى الإنسان أن يجتهد ويطلب الأقوى . فإذا رأى دليلاً أقوى من غيره ، ولم ير ما يعارضه ، عمل به ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئاً معذوراً ، وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه ، وخطؤه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحكم ، لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه ، فإذا أريد بالخطأ الإثم ، فليس المجتهد بمخطئ ، بل كل مجتهد مصيب ، مطيع لله ، فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الأمر ، فالصيب واحد ، وله أجران . كما في المجتهدين في جهة الكعبة ، إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذي أصاب الكعبة واحد ، وله أجران لاجتهاده وعمله ،

كان أكمل من غيره ، والمؤمن ^(١) القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علماً وعملاً زاده الله أجراً بما زاده من العلم والعمل ، قال تعالى : **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ** ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ^(٢) . قال مالك عن زيد بن أسلم : بالعلم ، وكذلك قال في قصة يوسف : **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ^(٣) . وقد تبين بذلك أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم ، واتبعوا العلم ، وأن الفقه من أجل العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر ، كما قال تعالى : **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ** * **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ^(٤) . وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال ، في الأصول والفروع .

(١) أخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعنا) ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفي كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله . ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل . فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

(٢) [٦ / الأنعام / ٨٣] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٧٦] ونصها : **فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخَرَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** .

(٤) [٢١ / الأنبياء / ٧٨ و ٧٩] ونصهما : **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ** .

ثم قال : وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما في مسائل الأحكام . ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار ، وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه ، وهؤلاء هم أهل المرحمة الذين لا يختلفون - انتهى .

فعلم أن اختلاف الصحابة والتابعين والمجاهدين في الفروع ليس مما تشمله الآية ، فإن المراد منها الاختلاف عن الحق ، بعد وضوحه ، برفضه ، وشتان ما بين الاختلافين . ثم على طالب الحق أن يستعمل نظره فيما يؤثر من هذه الخلافات ، فما وجده أقوى دليلاً أخذ به ، وإلا تركه .

وحيث يكون ممن قال الله تعالى فيهم : **فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ^(١) . وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه ، فليدعُ بما رواه مسلم ^(٢) في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول - إذا قام يصلي من الليل - اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم . فإن الله تعالى قال فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) : يا عبادي كلكم ضال إلا من هديت ، فاستهدوني أهدكم - انتهى .

(١) [٣٩ / الزمر / ١٧ و ١٨] ونصهما : **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ، فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ .**

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٠٠ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب ، حديث ٥٥ (طبعتنا)

وها كونه بجملته :

عن أبي ذر ، عن النبي ﷺ ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : «يا عبادي ! إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً . فلا تظالموا . يا عبادي ! كلكم ضال =

الرابع :

ذكر بعض المفسرين ، هنا ، ما روى من حديث (اختلاف أمتي رحمة) ، ولا يعرف له سند صحيح ، ورواه الطبراني والبيهقي في (المدخل) بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً . قال بعض المحققين : هو مخالف لنصوص الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ مُمْتَخَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ^(١) . ونحوه قوله ﷺ : لَا تَخْتَلَفُوا فَيُخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ^(٢) وغيره من الأحاديث الكثيرة . والذي يقطع به أن الاتفاق خير من الخلاف - انتهى -

= إلا من هديته . فاستهدوني أهدكم . يا عبادي ! كلكم جائع إلا من أطعمته . فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي ! كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسوني أكسكم . يا عبادي ! إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً . فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر . يا عبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

(١) [١١ / هود / ١١٨ و ١١٩] ونصهما : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ مُمْتَخَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ١٢٢ (طبعنا) .

عن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يسمح منا كبنا في الصلاة ويقول =

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود^(١) بسندهما عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الأهواء - كلها في النار إلا واحدة ، وهى الجماعة . وأنه سيخرج فى أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكاب بصاحبه . لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ؛ والله ! يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء نبىكم ﷺ كغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به . قال ابن كثير : وقد روى هذا الحديث من طرق - انتهى -

نبذة فى مبدأ الاختلاف فى هذه الأمة من أهل الأهواء :

ذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى كتاب (الفرقان بين الحق والباطل) أن المسلمين كانوا فى خلافة أبى بكر وعمر ، وصدرأ من خلافة عثمان فى السنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث فى أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم ، فقتلوا عثمان ففترق المسلمون بعد مقتل عثمان . ولما اقتتل المسلمون بصفيين وانفقوا على تحكيم حكيمين خرجت الحوارج على أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين . وحدث فى أيامه الشيعة أيضاً ، لكن كانوا مختلفين بقولهم لا يظهرونه لعلّ وشيعته ، بل كانوا ثلاثة طوائف :

= « استووا ولا تختلفوا ، فتختلف قلوبكم . ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافًا .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، بالصفحة ١٠٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

وأبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنة ، ١ - باب فى شرح السنة ، حديث ٤٥٩٧ .

ونصه هنا عن السند .

طائفة : تقول إنه إله ، وهؤلاء ، لما ظهر عليهم ، أحرقهم بالنار ؛

والثانية : السابة وكان قد بلغه عن أبي السودا أنه كان يسب أبا بكر وعمر ، فطلبه .

قيل إنه طلبه ليقتله فهرب منه ؛

والثالثة : الفضلة الذين يفضّلونه على الشيخين ، وقد تواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة

بعد نبيا أبو بكر وعمر . وروى ذلك البخارى في صحيحه .

ثم في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ، ثم حدثت المرجئة . ثم قال : وإن الناس

في ترتيب أهل الأهواء على أقسام : منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم فيبدأ بالخوارج .

ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية ، كما فعله كثير من

أصحاب أحمد رضى الله عنه ، كعبد الله ابنه ، ونحوه ، وكالحلال ، وأبى عبد الله بن بطة

وأمثالهما ، وكأبى الفرج المقدسى . وكلا الطائفتين تختم بالجهمية ، لأنهم أغلظوا البدع .

وكالبخارى في صحيحه ، فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة ، وختمه بكتاب

التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية .

ثم قال قدس سره : إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان ، فلما حدث في الأمة ما

حدث من التفرق والاختلاف ، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً ، وعمدتهم في الباطن

ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم ، عليها يعتمدون في

التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك . ثم ماظنوا أنه يوافقهم من القرآن احتجوا

به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلائلها ،

ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر إلى غير ذلك ؛

والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن . ليس مقصوده

أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه من الاحتجاج بها . ثم قال قدس سره : فعلى كل

مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه ، بل

ينظر ما قال ، فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، كما كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين . فلماذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يوسوس ديناً غير ما جاء به الرسول . وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه ، نظر فيما قاله الله والرسول ، فانه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة .

وقال قدس سره في رسالته إلى جماعة الشيخ عدي بن مسافر ما نصه : وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ^(١) فحتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فإن الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، وجماع ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا . إلى قوله : وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(٢) . فمن الأمر بالمعروف الأمر بالائتلاف والاجتماع والنهي عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى . ثم قال : ويجب على أولى الأمر ، وهم علماء كل طائفة وأمرؤها ومشايخها أن يقوّموا عايتهم ويأمرهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ .

وقوله تعالى :

(١) [٥ / المائدة / ١٤] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٢-١٠٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » أى تبيض وجوه كثيرة وهى وجوه المؤمنين لاتباعها الدين الحق الذى هو النور الساطع . وتسود وجوه كثيرة ، وهى وجوه الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، لاتباعها الضلالات المظلمة ، وليستدل بذلك على إيمانهم وكفرهم ، فيجازى كل بمقتضى حاله . وهذه الآية لها نظائر ، منها قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (١) . ومنها قوله تعالى : وَلَا يَرَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ (٢) . ومنها قوله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٣) . ومنها قوله : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٤) . ومنها : تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٥) . إلى غير ذلك . وللمفسرين فى هذا البياض والنضرة والغبرة والقتر وجهان :

أحدهما : أن البياض مجاز عن الفرح والسرور . والسواد عن الغم . وهذا مجاز مستعمل ، قال تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ أَظْلَمَ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٦) . ويقال : فلان عندى يد بضاء ، أى جلية سارة .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٠] .

(٢) [١٠ / يونس / ٢٦] ونصها : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

(٣) [٨٠ / عبس / ٣٨-٤١] .

(٤) [٧٥ / القيامة / ٢٢-٢٥] .

(٥) [٨٣ / المطففين / ٢٤] . (٦) [١٦ / النحل / ٥٨] .

وتقول العرب لمن قال بفيتته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ، ومعناه الاستبشار والتهلل . وعند التهئة بالسرور يقولون : الحمد لله الذى يبيض وجهك . ويقال لمن وصل إليه مكروه : اربد وجهه واغبر لونه ، وتبدلت صورته . فعلى هذا معنى الآية : إن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يده ، فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله ، وعلى ضد ذلك ، إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم ، وهذا قول أبى مسلم الأصفهاني .

والوجه الثانى : أن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة ، فوجب الصير إليه . ولأبى مسلم أن يقول الدليل دل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال : **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ** ^(١) . فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار ، فلم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلاً له ، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل - أفاده الرازى -

لطيفة :

(يوم) منصوب إما مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيراً لهم عن عاقبة التفرق بعد مجيئ البينات ، وترغيباً في الاتفاق على التمسك بالدين . أى اذكروا يوم... الخ أو ظرف للاستقرار فى (لهم) أو لـ (عظيم) أو لـ (عذاب) .

« فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً ، وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل والإفشاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدىء بذلك عند الإجمال ، وقوله تعالى : **أَكْفَرْتُمْ**

(١) [٨٠ / عيسى / ٣٨-٤١] .

بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . على إرادة القول ، أى فيقال لهم ذلك ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم - أفاده أبو السعود - والمعنى : أ كفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان ، وهو الدلائل التى نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة ، وما يناجيكم به وجدانكم من صدق هذه الدعوى وحقيتها وشهادته بصحتها ، كما قال تعالى فيما قبل هذه الآية : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ^(١) : فذمهم على الكفر بعد وضوح الآيات ، وقال للمؤمنين . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٢) . فقوله تعالى هنا : أ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، محمول على ما ذكر ، حتى تصير هذه الآية مقررة لما قبلها ، وهى عامة فى حق كل الكفار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » المراد برحمة الله الجنة ، عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ)

« تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ » الإشارة إلى ما تقدم من الوعد والوعيد « وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ » أى لا يشاء أن يظلم عباده ، يأخذ أحداً بغير جرم ، أو يزيد فى عقاب مجرم ، أو ينقص من ثواب محسن . قال الرازى : إنما حسن ذكر الظلم ههنا

(١) [٣ / آل عمران / ٧٠] .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٠٥] .

لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة ، وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، فكأنه تعالى يعتذر عن ذلك ، وقال : إنهم ما وقعوا فيه إلا لسبب أفعالهم المنكرة ، وكل ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلب . وقال أبو السعود : وفي سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ، كما في قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ^(١).

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى له تعالى وحده ، من غير شركة ، ما فيهما من المخلوقات ملكاً وخلقاً إحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً « وَإِلَى اللَّهِ » أى إلى حكمه وقضائه « تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أى أمورهم فيجازى كلّاً منهم بما وعده وأوعده ، فلا داعى له إلى الظلم ؟ لأنه غنى عن كل شيء ، وقادر على كل شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق ، والدعوة إلى الخير ، و « كنتم » من (كان) التامة ، والمعنى وجدتم وخلقتم خير أمة ، أو (الناقصة) والمعنى كنتم في علم الله خير أمة ، أو في الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة و « أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » صفة لأمة ، واللام متعلقة بـ « أُخْرِجَتْ » ، أى أظهرت لهم حتى تميزت وعرفت ، وفصل بينها وبين غيرها .

(١) [١٠ / يونس / ٤٤] .

ثم بين وجه الخيرية بما لم يحصل مجموعه لغيرهم بقوله « تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » فهذه الصفات فضلوها على غيرهم ممن قال تعالى فيهم : كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ^(١) . وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ^(٢) . قال أبو السعود : وتؤمنون بالله أى إيماناً متعلقاً بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء . وإعما لم يصرح به تفصيلاً لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون ، وللإيدان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة ، وأن ما خلا عن شىء من ذلك كإيمان أهل الكتاب ليس من الإيمان به تعالى فى شىء . قال تعالى : وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا^(٣) وإنما آخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة ، لأن دلالتهما على خيريتهما للناس أظهر من دلالته عليهما وليقترن به ، ما بعده - انتهى - روى ابن جرير^(٤) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى من الناس رِعةً^(٥) ، فقرأ هذه الآية « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد

(١) [٥ / المائدة / ٧٩] .

(٢) [٤ / النساء / ١٥٠ و ١٥١] ونصهما : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا .

(٣) الأثر ٧٦١٢ من تفسيره (طبعة المعارف) .

(٤) رِعةٌ . أصلها من الورع . مثل (العدة) من الوعد . والرعة : الهدى وسوء الهيئة أو حسن الهيئة . أو هى بمعنى الشأن والأمر والأدب . وفى حديث الحسن : ازدحموا عليه فرأى منهم رعة سيئة . فقال : اللهم إليك . يريد بالرعة ههنا الاحتشام والكف عن سوء الأدب ، أى لم يحسنوا ذلك .

شرط الله فيها . ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، أى خياراً ، لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ^(١) ، أى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد روى فى معنى الآية عن النبى ﷺ أحاديث وافرة ، منها ما أخرجه الإمام أحمد والترمذى ^(٢) والحاكم عن معاوية بن حيدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل . قال ابن كثير : وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذى . ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبى سعيد ونحوه . وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ ، فإنه أشرف خلق الله ، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، لم يُعْطَهُ نبيّ قبله ، ولا رسول من الرسل ، فالعمل على منهاجه وسبيله ، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه . وقد ذكر الحافظ ابن كثير ههنا حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وساق طريقه ومخرجه فأجاد رحمه الله تعالى . « وَلَوْ أَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ » أى بما أنزل على محمد ﷺ « لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى مما هم عليه ، إشارة إلى تسفيه أحلامهم فى وقوفهم مع ما منعهم عن الإيمان من العوض القليل الفانى والرياسة التافهة ، وتركهم الغنى الدائم ، والعز الباهر . ولما كان هذا ربما أوهم أنه لم يؤمن منهم أحد قال مستأنفاً « مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ » أى بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ولكنهم قليل « وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ » ولما كانت مخالفة الأكثر قاصمة ، خفف سبحانه عن أوليائه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذَّارَ ثُمَّ لَا يَنْصَرُونَ) «لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى» أى بالسنتهم لا يبالى به من طعن وتهديد «وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ» (١) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . والترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٩ - حدثنا عبد بن حميد .

أى يوماً من الأيام « يُولَوْكُمْ الْأَذْبَارَ » يعنى منهزمين مغذولين « ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ » يعنى لا يكون لهم النصر عليكم ، بل تنصرون عليهم . وقد صدق الله ومن أصدق من الله قيلاً؟ لم يقاتلوا فى موطن إلا كانوا كذلك . قال ابن كثير : فإنهم يوم خير أذلهم الله ، وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة: بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، كلهم أذلهم الله . وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة فى غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الأبدين ودهر الداهرين . ولا تزال عصاة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم ، وهم كذلك ، ويحكم بلمة الإسلام ، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام - هـ .

لطائف :

قال الزمخشري :

فإن قلت : هلا جزم المعطوف فى قوله (ثم لا ينصرون) ؟

قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى ؟

قلت : لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مغذولون منتف عنهم النصر والقوة لا يهضون بعدها بجناح ، ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خير .

فإن قلت : فما الذى عطف عليه هذا الخبر ؟

قلت : جملة الشرط والجزاء . كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم يهزموا . ثم أخبركم أنهم لا ينصرون .

فإن قلت : فما معنى التراخى فى (ثم) ؟

قلت : التراخي في المرتبة ، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليئهم الأدبار .

قال الناصر بن المنير : وهذا من الترقى في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة ، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً ، ويزيد هذا الترقى بدخول (ثم) دون (الواو) ، فإنها تستعار ههنا للتراخي في الرتبة لافي الوجود ، كأنه قال : ثم ههنا ما هو أعلى في الامتنان ، وأسمح في رتب الإحسان ، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون ألبتة - والله أعلم -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَمَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ » أى أحيط بهم الهوان والصغار كما يحيط البيت المضروب بساكنه أينما وجدوا ، وقوله : « إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ » . فى محل نصب على الحال . بتقدير : إلا معتمدين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله ، وهو استثناء من أعمّ عام الأحوال ، والمعنى ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال ، إلا فى حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس ، يعنى ذمة الله وذمة المسلمين ، أى لا غرّ لهم قط إلا هذه الواحدة وهى التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية - كذا فى الكشف - « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » أى استوجبوه « وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ » أى الفقر ليكونوا بهذه الأوصاف أعرق شئ فى الدل « ذَلِكَ » أى ضربت المسكنة والذلة والغضب « بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » أى استكباراً وعتواً « وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ »

أى الآتين من عند الله حقاً. ولما كانوا معصومين ديناً ودنياً قال « بَغَيْرِ حَقٍّ » أى يبيح القتل « ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » أى ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة ، كما هو معلل بكفرهم وقتلهم الأنبياء ، فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى . وقيل : ذلك إشارة إلى علة العلة ، وهو الكفر والقتل ، أى حصلاً منهم بسبب عصيانهم واعتدائهم ، فإن الإقدام على المعاصى ، والاستهانة بمجاوزة الحدود يهون الكفر . قال الأصفهانيّ : قال أرباب المعاملات : من ابتلى بترك الآداب ، وقع فى ترك السنن . ومن ابتلى بترك السنن ، وقع فى ترك الفرائض . ومن ابتلى بترك الفرائض ، وقع فى استحقرار الشريعة . ومن ابتلى بذلك ، وقع فى الكفر .

قال برهان الدين البقاعيّ رحمه الله تعالى : والآية دليل على مؤاخذه الابن الراضى بذنب الأب وإن علا . وذلك طبق ما رأيته فى ترجمة التوراة التى بين أيديهم ، لأنه قال فى السفر الثانى : وقال الله جميع هذه الآيات كلها أنا الرب إلهك الذى أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق لا يكون لك آلهة لا تعملن شيئاً من الأصنام والتماثيل التى مما فى السماء فوق وفى الأرض من تحت ومما فى الماء أسفل الأرض لا تسجدن لها ولا تعبدنها لأنى أنا الرب إلهك غيور آخذ الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أحقاب وأربعة خلوف وأثبت النعمة إلى ألف حقب لأجبارى وحافظى وصاياى - انتهى -

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ

اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ)

« لَيْسُوا سَوَاءً » جملة مستأنفة سيقّت تمهيداً للشأن على من أقبل على الحق من أهل الكتاب وخلع الباطل ولم يراع سلفاً ولا خلفاً ، وتذكيراً لقوله تعالى : مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ . أى ليس أهل الكتاب متساوين ومتشاركين فى المساوىء . ثم استأنف قوله بياناً لعدم

استوائهم» مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .
في قوله تعالى « قَائِمَةٌ » وجوه :

الأول - أنها قائمة في الصلاة ، وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل كقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ^(١) . وقوله : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ^(٢) . وقوله : قُمِ اللَّيْلَ ^(٣) . وقوله : وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ^(٤) .
والثاني - أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ، ملازمة له ، غير مضطربة في التمسك به ، كقوله : إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ^(٥) أى ملازمًا للاقتضاء ، ثابتًا على المطالبة . ومنه

(١) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] .

(٢) [٧٣ / الزمل / ٢٠] ونصها : إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عِلْمَ آلِ النَّحْصِ وَهُوَ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَءُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٧٣ / الزمل / ٢] .

(٤) [٢ / البقرة / ٢٣٨] ونصها : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا

لِلَّهِ قَانِتِينَ .

(٥) [٣ / آل عمران / ٧٥] ونصها : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ

إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

قوله تعالى : قَائِمًا بِالْقِسْطِ ^(١) .

الثالث - أنها مستقيمة عادلة من قولك : أقمت العود فقام ، بمعنى استقام . والآاء الأوقات واحداها (إنا) مثل (معى) و (أمعاء) و (إئني) مثل (نحى) و (آنحاء) وقوله تعالى « وَهُمْ يَسْجُدُونَ » جملة مستقلة مستأنفة ، وليست حالا من فاعل « يتلون » لما صح في السنة من النهى عن التلاوة في السجود ، وذلك فيما رواه الإمام أحمد ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم ^(٢) . فعنى الآية أنهم يقومون تارده ويسجدون أخرى ، يبتغون الفضل والرحمة كقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ^(٣) . وقوله : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ^(٤) . ويحتمل أن يكون المعنى : وهم يصلون ، والصلاة تسمى سجودا وسجدة كما تسمى ركوعا وركعة وتسبيحا وتسبيحة . وعليه فالجملة يجوز فيها الوجهان ، وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتأكيده . ثم وصفهم تعالى بصفات آخر ، مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

« يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » أى على الوجه الذى نطق به الشرع . وظاهر أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله . والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من

(١) [٣ / آل عمران / ١٨] ونصها : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٦٤] . (٤) [٣٩ / الزمر / ٧] .

المعاصي ، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء الله ، ولا يحترزون عن معاصي الله ، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبدأ والمعاد « وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » تعريض بمداهنة اليهود في الاحتساب ، بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناس وصدّهم عن سبيل الله ، فإنه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، وقوله تعالى « وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير . والمسارعة في الخير فرط الرغبة فيه . وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها ، بل بمبادرتهم إلى الشرور « وَأُولَئِكَ » أى النعوتون بتلك الصفات الفاضلة « مِنَ الصَّالِحِينَ » أى من عداد من صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه . والوصف بالصلاح دالّ على أكل الدرجات . فهو غاية المدح ، ولذا وصفت به الأنبياء في التنزيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

« وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ » أى لن يعدموا ثوابه . وإبشار صيغة المجهول للجري على سنن الكبرياء . وقرئ الفعلان بالخطاب « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » فيوفيههم أجورهم . وهؤلاء الموصوفون هم المذكورون فى آخر السورة : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ... الآية (١) .

تنبيه :

قال البقاعى : أرشد السياق إلى أن التقدير : وأكثرهم ليسوا بهذه الصفات . وقال الرازى : لما قال تعالى : مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ . كان تمام الكلام أن يقال : وَمِنْهُمْ

(١) [٣ / آل عمران / ١٩٩] ونصها : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بَيَّاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ . إلا أنه أضر ذكر الأمة المذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الضد الآخر . وتحقيقه : أن الضدين يُعلمان معاً . فذكر أحدهما يستقل بإفادة العلم بهما ، فلا جرم يحسن إهمال الضد الآخر ، قال أبو ذؤيب ^(١) :

دعاني إليها القلب . إني لأمره مطيع . فما أدري أرشدني طلائعها

أراد أم غي ، فكتفي بذكر الرشد عن الغي ، وهذا قول الفراء وابن الأنباري . وقال الزجاج : لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة لأن ذكرها قد جرى قبل ، ولأننا قد ذكرنا أن العلم بالضدين معاً ، فذكر أحدهما مغن عن ذكر الآخر . كما يقال زيد وعمرو لا يستويان ، زيد عاقل دين ذكي ، فيغني هذا عن أن يقال : وعمرو ليس كذلك . فكذا ههنا . لما تقدم قوله : ليسوا سواء . أغنى عن ذلك الإضمار - انتهى ملخصاً - أقول : لا مانع من كون الآية الآتية هي الشق الثاني المقابل للأول . فإن عنوان الذين كفروا مقابل بمفهومه لما قبله كما لا يخفى - والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ،

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ » أي لن تدفع عنهم « أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ »

(١) من قصيدته التي أولها :

أبا الضُّرم من أسماء حدثك الذي جرى بيننا يوم استقلت ركابها

في الديوان (عصاني إليها) وفسرها بقوله : أي خطر إليها قلبي وذهب إليها ، فما أدري أرشد الذي وقعت فيه أم غي .

وعبارة الأصمعي : جعل لا يقبل مني . أي ذهب إليها قلبي سفها . وهي أوضح في معنى العصيان من عبارة الشارح هنا .

مِنَ اللَّهِ شَيْئًا « أَى من عذاب الله ، وإن كان التصدق بالأموال يطفى غضب الرب فى حق المؤمنين ، ويغفر لهم بموت أولادهم ، أو استغفارهم « وَأَوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ولما بين تعالى أن أموال الكفار لا تغنى عنهم شيئاً ، ثم إنهم ربما أنفقوها فى وجوه الخيرات ، فيخطر فى البال أنهم ينتفعون بها ، فأزال تلك الشبهة ، وضرب لها مثلاً يذهبها هباءً منثوراً بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (مَثَلٌ مَّا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ) « مَثَلٌ مَّا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » من المكرم ويواسون فيه من المغارم « كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ » أى برد شديد كالصرصر « أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » بالكفر والمعاصى فباؤوا بغضب من الله « فَأَهْلَكَتُهُ » فكذا ريح الكفر إذا أصابت حرث إنفاق قومه تهلكه . فصار الظلم ريحاً لحصوله من هوى النفس ذات برودة شديدة لكونه ظلم الكفر الذى هو الموت المعنوى فأهلكته - قاله المهايى - « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ » بإهلاك حرثهم بإرسال ريح من عنده « وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ » بإرسال ريح الظلم الكفرى على حرثهم الأخرى .

لطائف :

إن قيل : الغرض تشبيه (ما أنفقوا) فى ضياعه ، بالحرث الذى ضربته الصر ، وقد جعل ما ينفقون ممثلاً بالريح ، فما وجه المطابقة للغرض ؟ أجيب : بأن هذا من التشبيه المركب وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين ، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزائهما ، والمقصود تشبيه الحال بالحال ؛ ويجوز أن يراد : مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح فتحصل المشابهة .

قال ناصر الدين في (الاتصاف) : والأقرب أن يقال أصل الكلام - والله أعلم - مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صر فأهلكته، ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جلية . وهو تقديم ما هو أهم . لأن الريح التي هي مثل العذاب ، ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث . فقدمت عنايةً بذكرها ، واعتماداً على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه . ومثل هذا ، في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة ، قوله تعالى : فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا . . . (١) الآية . ومثله أيضاً : أعددت هذه الخشبة أن يعيل الحائط فأدعمه ، والأصل : أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت . وأن أدمع بها الحائط إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة والله الموفق .

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٢] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ يَتَنَبَّأُ لَكُمْ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ » أى أصحاباً يستبطنون أمركم من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون . قال الزمخشري : بطانة الرجل ووليجه خصيصه وصفية الذى يفضى إليه بشقوره ثقة به . شبهه ببطانة الثوب . كما يقال : فلان شعارى - انتهى - ومن أمثال العرب فى سرار الرجل إلى أخيه ما يستره عن غيره : أفضيت إليه بشقورى - بضم الشين وقد تفتح - أى أخبرته بأمرى ، وأطلعته على ما أسره من غيره . وفى القاموس وشرحه : البطانة الصاحب للسر الذى يشاور فى الأحوال ، والوليجة وهو الذى يختص بالولوج والاطلاع على باطن الأمر . وقال الزجاج : البطانة الدخلاء الذين ينبسط إليهم ويستبطنون ، يقال : فلان بطانة لفلان أى مداخل له مواس . وهؤلاء المنهى عنهم ، إما أهل الكتاب ، كما رواه ابن جرير وابن إسحق عن ابن عباس : أنهم اليهود . وذلك لأن السياق فى السورة ، والسباق معهم . وقد كان بين الأنصار وبين مجاوريتهم من اليهود ما هو معروف من سابق الرضاع والحلف . وإما المنافقون لقوله بعد : وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا ^(١) ... الخ . وهذه صفة المنافقين كقوله تعالى فى سورة البقرة : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ^(٢) ... الخ - وربما كان يفتى بعض المؤمنين بظاهر أقوال المنافقين

(١) [٣ / آل عمران / ١١٩] ونصها : هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٤] ونصها : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ .

وَيُظَنُّونَ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ فَيُفْشُونَ إِلَيْهِمُ الْأَسْرَارَ . وَإِذَا جَمِيعُ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ وَقُوفًا مَعَ عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى « مِنْ دُونِكُمْ » كَمَا قَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ^(١) . وَمَا يُوَكِّدُ ذَلِكَ مَارَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّهُ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنَّ هَهُنَا غُلَامًا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ نَصْرَانِيًّا ، حَافِظٌ كَاتِبٌ . فَلَوْ اتَّخَذْتَهُ كَاتِبًا ؟ فَقَالَ : قَدْ اتَّخَذْتُ إِذْنِ بَطَانَةٍ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

قال الرازي : فقد جعل عمر رضى الله عنه هذه الآية دليلاً على النهى من اتخاذ النصراني بطانة .

وقال الحافظ ابن كثير : ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استمالة في الكتابة التي فيها استتالة على المسلمين ، وإطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب .

وقال السيوطي في (الإكليل) : قال الكيا الهراسي : في الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستمالة بأهل الذمة في شيء من أمور المسلمين - انتهى -

ووجه ذلك ، كما قال القاشاني ، أن بطانة الرجل صفيه وخليصه الذي يبطنه ويطلع على أسرارهِ ، ولا يمكن وجود مثل هذا الصديق إلا إذا اتحدوا في المقصد واتفقا في الدين والصفة ، متحابين في الله لا لغرض . كما قيل في الأصدقاء : نفس واحدة في أبدان متفرقة . فإذا كان من غير أهل الإيمان ، فبأن يكون كاشحاً أخرى . ثم بين نفاقهم واستبطنهم العداوة

(١) [٦٠ / المتحنة / ١] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمُ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

بقوله : « لَا يَأْلُوَنَكُمُ خَبَالًا » أى لا يقصرون بكم فى الفساد . قال القاشانى : لأن المحبة الحقيقية الخالصة لا تكون إلا بين الموحدين لكونها ظل الوحدة . فلا تكون فى غيرهم لكونهم فى عالم التضاد . بل ربما تتألفهم الجنسية العامة الإنسانية لاشتراكهم فى النوع والمنافع والملاذ واحتياجهم إلى التعاون فيها . والمنافع الدنيوية والذات النفسانية سريعة الانقضاء فلا تدوم المحبة عليها . بخلاف المحبة الأولى فإنها مستندة إلى أمر لا تغير فيه أصلاً . قال الزمخشري : يقال : ألا فى الأمر ، يألو : إذا قصر فيه . ثم استعمل معدى إلى مفعولين . فى قولهم : لا آلوك نصحاً ، ولا آلوك جهداً ، على التضمنين . والمعنى : لا أمنعك نصحاً ولا أنقصكه . والخبال الفساد « وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ » أى عَنَتَكُمْ ، على أن (ما) مصدرية ، والعنت شدة الضرر والمشقة ، أى تَمَنَّوْا ما يهلككم « قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى ظهر البغض الباطن حتى خرج من أفواههم لأنهم لا يتألمون ، مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها ، أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين . وقد قيل : كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفتلت اللسان « وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » مما ظهر . لأن ظهوره ليس عن روية واختيار بل فلتة . ومثله يكون قليلاً « قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى سُوءِ اتِّخَاذِكُمْ إِيَّاهُمْ بَطَانَةً لِّتَمْتَعُوا بِهَا فَتَخَلَّصُوا فِي الدِّينِ وَتَوَالُوا الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَادُوا الْكَافِرِينَ » « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العقل . أو تعقلون ما بين لكم فعملتم به . قال الزمخشري : فإن قلت : كيف موقع هذه الجمل ؟ قلت : يجوز أن يكون (لا يألوَنَكُم) صفة للبطانة . وكذلك (قد بدت البغضاء) . كأنه قيل : بطانة غير آليكم خبالاً ، بادية بغضاؤهم . وأما (قد بينا) فكلام مبتدأ . وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة . ثم بين تعالى خطأهم فى موالاتهم حيث يبذلونها لأهل البغضاء بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ » أى تخالطونهم وتُفَشون إليهم أسراركم ولا يفعلون مثل ذلك بكم. وقوله « وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ » الواو للحال وهى منتصبه من ضمير المفعول فى (لا يحبونكم) والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتبهم فلا تنكرون منه شيئاً، فليس فيكم ما يوجب بغضهم لكم. فما بالكم تحبونهم وهم يكفرون بكتابكم كله ؟

ولم تجعل الواو للعطف على (ولا يحبونكم) أو (تحبونهم) كما ارتضاء أبو حيان لأنه فى معرض التخطئة . ولا كذلك الإيمان بالكتاب فإنه محض الصواب . وإن اعتذر له بأن المعنى : يجمعون بين محبة الكفار والإيمان وهما لا يجتمعان ، لبعده . والحالية مقررة للخطأ فتأمل ، نقله الخفاجى .

قال الزمخشري : فيه توبيخ شديد بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم . ونحوه : فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ^(١) . « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا » نفاقاً وتغريراً « وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » أى من أجله ، تأسفاً وتحسراً . حيث لم يجدوا إلى الشفـى سبيلاً . وعضُّ الأنامل عادة النادم العاجز والمغناظ إذا عظم حزنه على فوات مطلوبه . ولما كثر هذا الفعل من الغضببان صار ذلك كناية عن

(١) [٤ / النساء / ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً .

الغضب . حتى يقال في الغضبان : إنه يعض يده غيظاً ، وإن لم يكن هناك عض « قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ » دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به . والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله . وما لهم في ذلك من الدل والخزي والتبار . كذا في الكشاف « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » فيعلم ما في صدورهم من البغضاء والحق . وهو يحتمل أن يكون من (المقول) أى وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً . وأن يكون خارجاً عنه بمعنى : قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم فإنى عليم بالأخفى من ضمائرهم . وقيل : هو أمر لرسول الله ﷺ بطيب النفس ، وقوة الرجاء ، والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به من غير أن يكون ثمت قول . كأنه قيل : حدث نفسك بذلك - أفاده أبو السعود - ثم بين تعالى تنهاى عداوتهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)
« إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً » بظهوركم على العدو ، ونيلكم الغنيمة ، وخصب معاشكم ، وتتابع الناس في دينكم « تَسَوْهُمْ » وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ « بإصابة العدو منكم ، أو اختلاف بينكم ، أو جذب أو بلية « يَفْرَحُوا بِهَا » ولا يعلمون ما لله تعالى في ذلك من الحكمة .

لطيفة :

الس أصله باليد ، ثم يسمى كل ما يصل إلى الشيء مساً . والتعبير به في جانب الحسنة ، وبالإصابة في جانب السيئة للتفنن . وقد سوى بينهما في غير هذا الموضع كقوله : إِنْ تُصِيبْكَ

حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ ^(١) . وقوله : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ^(٢) . وقال : إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ^(٣) .

قال ناصر الدين في (الاتصاف) : يمكن أن يقال : المس أقل تمكناً من الإصابة ، وكأنه أقل درجاتها ، فكان الكلام - والله أعلم - إن تصبكم الحسنة أدنى إصابة تسوهم ويحسدوكم عليها . وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثي الشامت عنده منها ، فهم لا يرثون لكم ولا ينفكون عن حسدكم ، ولا في هذه الحال . بل يفرحون ويسرون . والله أعلم - انتهى -

وهذا من أسرار بلاغة التنزيل . فدل التعبير على إفراطهم في السرور والحزن . فإذا ساءهم أقل خيرنا ، فغيره أولى . وإذا فرحوا بأعظم المصائب مما يرثي له الشامت فهم لا يرجي موالاتهم أصلاً . فكيف تتخذونهم بطانة ؟ . قال البقاعي : ولما كان هذا الأمر منكياً غائظاً مؤلماً داوَاهم بالإشارة إلى النصر بشرط التقوى والصبر فقال : « وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا » أي تصبروا على ما يبتليكم الله به من الشدائد والمحن والمصائب وثبتوا على الطاعة وتنفوا الاستعانة بهم في أموركم والالتجاء إلى ولايتهم « لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا » لأن المتوكل على الله الصابر على بلائه ، المستمعين به لابغيره : ظافر في طلبته ، غالب على خصمه ، محفوظ بحسن كلاءة ربه . والمستمعين بغيره : مخدول موكل إلى نفسه ، محروم عن نصره ربه . أفاده القاشاني .

(١) [٩ / التوبة / ٥٠] ونصها : إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ ، وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

(٣) [٧٠ / المعارج / ٢١ و ٢٠] .

وقيل : المراد بنى الضرر عدم المبالاة به ، لأن التدرب بالانقضاء والصبر يكون قليل الانفعال ، جريئاً على الخصم . و (السكيد) الاحتيال على إيقاع الغير في مكروه « إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » قرىء بياء الغيبة ، على معنى أنه عالم بما يعملون في معاداتكم من السكيد فيعاقبهم عليه . وبتاء الخطاب ، أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله .

تنبيه مهم :

قال الرازى : إطلاق لفظ (المحيط) على الله مجاز ، لأن المحيط بالشيء هو الذى يحيط به من كل جوانبه ، وذلك من صفات الأجسام ، لكنه تعالى لما كان عالماً بكل الأشياء ، قادراً على كل الممكنات ، جاز فى مجاز اللغة أنه محيط بها ، ومنه قوله : وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ^(١) . - انتهى -

أقول : ما ذكره شبهة جهمية مبناها قياس صفة القديم على الحوادث ، وأخذ خاصتها به ، وهو قياس مع الفارق . والسمعيات تتلقى من عرف المتكلم بالخطاب ، لا من الوضع المحدث . فليس لأحد أن يجعل الألفاظ التى جاءت فى القرآن موضوعة لمعانى ، ثم يريد أن يفسر مراد الله تعالى بتلك المعانى . وتتمه هذا البحث تقدمت فى تفسير (الرحمن الرحيم) من البسملة أول التنزيل الجليل . فارجع إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)
« وَإِذْ غَدَوْتَ » أى خرجت « مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ » أى تنزل « الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ »
أى أماكن ومراكز يقفون فيها « لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » ذهب الجمهور وعلماء المغازى إلى أن هذه الآية نزلت فى وقعة أُحُد ، والسر فى سوق هذه الوقعة الأُحُدِيَّة وإيلاؤها البدرية ،
(١) [٨٥ / البروج / ٢٠] .

هو تقرير ما سبق . فإن المدعى فيما قبلها المساءة بالحسنة والمسرّة بالمصيبة وسنة الله تعالى فيهم في باب النصر والمعونة ودفع مضار العدو ، إذا هم صبروا واتقوا ، والتغيير إذا غيروا . أى اذكر لهم ما يصدق ذلك من أحوالكم الماضية حين لم يصبروا فى أخذ ، فأصيبوا وسرّت الأعداء مصيبتكم ، وحين صبروا واتبعوا فنصروا وساء العدو نصرهم . وفى توجيه الخطاب إليه ﷺ تهيج لغيره إلى تدقيق النظر واتباع الدليل ، من غير أدنى وقوف مع المألوف - كذا يستفاد من تفسير البقاعى - .

وهذه الآية هى افتتاح القصة ، وقد أنزل فيها ستون آية ، وأشير فى هذه السورة إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى هذه الواقعة ، كما سيذكر ، وكانت فى شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وكان سببها أن الله تعالى لما قتل أشراف قريش بيدى ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلا ، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، وجاءوا إلى أطراف المدينة فى غزوة السيوق ، ولم ينل ما فى نفسه ، أخذ يؤلب على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين ، ويجمع الجموع قريبا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحايش . وجاءوا بنسائهم لثلاثي فمرو ليحاموا عنهن . ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريبا من جبل أخذ ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه : أيجرح إليهم أم تمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت ، ووافق على هذا رأى عبد الله بن أبى ، وكان هو الرأى . فبادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ، وأشاروا عليه بالخروج ، وألحوا عليه فى ذلك ، فنهض ودخل بيته ، ولبس لأمته ، وخرج عليهم وقد اشنى عزم أولئك الملحقين ، وقالوا : أكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج . فقالوا : يارسول الله إن أحببت أن تمكث فى المدينة فافعل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبئنى لنبى ، إذا لبس لأمته ، أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى

ألف من أصحابه ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين في المدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا وهو بالمدينة : رأى أن في سيفه ثلثة ، ورأى أن بقرا تذبح ، وأنه أدخل يده في درع حصينة . فتأول الثلثة في سيفه رجل يصاب من أهل بيته ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون . وتأول الدرع بالمدينة . فخرج يوم الجمعة ! فلما صار بالشَّوْط ، بين المدينة وأحد ، انحزل عنه عبد الله بن أبيّ في ثلث الناس ، مغاضباً لمخالفة رأيه في المقام . فتبعهم عبد الله بن عمرو ، والد جابر ، يوبخهم ويحضهم على الرجوع ويقول : تعالوا قاتلوا في سبيل الله ، أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم أنكم تقتلون لم نرجع . فرجع عنهم وسبهم ، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم قوم من الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم من يهود قأبي ، وسلك حرّة بنى حارثة ، ومر بين الحوائط ، وأبو خيثمة من بنى حارثة يدل به ، حتى نزل الشعب من أحد مستنداً إلى الجبل ، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم ، فلما أصبح يوم السبت تعبى للقتال وهو في سبعمائة . فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً وأمر على الرماة عبد الله بن جبير . وأمره وأصحابه أن يلزموا مراكزهم ، وأن لا يفارقوه ولو رأوا الطير تخطف العسكر . وكانوا خلف الجيش . وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لثلاثا يأتوا المسلمين من ورائهم . وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين يومئذ ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو . واستعرض الشباب يومئذ . فردّ من استصغره عن القتال . منهم عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وأسيد ابن ظهير والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعرابة بن أوس وعمرو بن حزام . وأجاز من رآه مطيقاً . منهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة . فقيل : أجاز من أجاز ، لبلوغه بالسن خمس عشرة سنة ، وردّ من رد لصغره عن سنّ البلوغ ، وقالت طائفة : إنما أجاز من أجاز لإطاقته ، ورد من رد لعدم إطاقته ، ولا تأثير للبلوغ وعدمه في ذلك . قالوا : وفي بعض ألفاظ حديث ابن عمر : فلما رآني مطيقاً أجازني .

وتعبت قريش للقتال ، وهم في ثلاثة آلاف ، وفيهم مائتا فارس ، فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى اليسرة عكرمة بن أبي جهل ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة ، وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب ، وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر الفاسق ، واسمه عبد بن عمرو بن صيفي ، وكان يسمى (الراهب) لترهبه وتنسكه في الجاهلية ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (الفاسق) . وكان رأس الأوس في الجاهلية . فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه . فكان أول من لقي من المسلمين . فنادى قومه وتعرف إليهم . قالوا : لا أنعم الله لك عينا يا فاسق ! فقاتل المسلمين قتالا شديدا ، وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاء شديدا ، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين ، واشتد القتال ، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فانهمزمت أعداء الله وولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نساءهم . فلما رأى الرماة هزيمتهم تركوا مراكزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ، وقالوا : يا قوم ! الغنيمة ! الغنيمة ! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ ، فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، فذهبوا في طلب الغنيمة ، وأخلوا الثغر ، ولم يطع أميرهم منهم إلا نحو العشرة ، ففكر المشركون وقتلوا من بقي من الرماة ، ثم أتوا الصحابة من ورائهم وهم ينتهبون ، فأحاطوا بهم ، واستشهد منهم من أكرمه الله ، ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ . وقاتل مصعب ابن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل ، وجرح رسول الله ﷺ في وجهه ، وكسرت رباطه اليمنى السفلى بحجر ، وهشمت البيضة في رأسه ، يقال : إن الذي تولى ذلك عتبة بن أبي وقاص وعمرو بن قتيبة الليثي . وشد حنظلة الغسيل على أبي سفيان ليقتله ، فاعترضه شداد بن الأسود الليثي ، من شعوب ، فقتله . وكان جنبا . فأخبر رسول الله ﷺ أن الملائكة غسلته .

وأُكبت الحجارة على رسول الله ﷺ حتى سقط من بعض حفر هناك ، فأخذ على يديه ، واحتضنه طلحة حتى قام ، ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدرى ، والد أبى سعيد ، ونسبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ﷺ فانزعجما أبو عبيدة بن الجراح . فندرت ثنيتاه فصار أهتم . ولحق المشركون برسول الله ﷺ . وكرّ دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم ، وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن ، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركون . وأبو دجانة بلى النبي ﷺ بظهره وتقع فيه النبل فلا يتحرك ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان . فرجع وهى على وجنته . فردها عليه السلام بيده فصحت . وكانت أحسن عينيه . وانتهى الضر ابن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد دهشوا ، وقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : فما تصنعون في الحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل ، ووجد به سبعون ضربة . وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة بعضها في رجله فخرج منها . وقتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم . ونادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل . لأن عمرو بن قتيبة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبي صلى الله عليه وسلم . ووهن المسلمون لصرخ الشيطان . ثم إن كعب بن مالك الشاعر ، من بنى سلمة ، عرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنادى بأعلى صوته يبشر الناس . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : أنصت . فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب ، وأدركه أبى بن خلف في الشعب ، فتناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة وطعنه بها في عنقه . فكرّ أبى منهزماً . وقال له المشركون : ما بك من بأس . فقال : والله ! لو بصق على لقتلى ، وكان ﷺ قد توعد بالقتل . فمات عدو الله بسرف ، مرجعهم إلى مكة . ثم جاء على رسول الله ﷺ بالماء فغسل وجهه ونهض . فاستوى على صخرة من الجبل . وحانت الصلاة فصلى بهم قعوداً . وغفر الله للمنهزمين من المسلمين . ونزل : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ (١) . الآية

(١) [٣ / آل عمران / ١٥٥] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

واستشهد نحو من سبعين . معظمهم من الأنصار . وقتل من المشركين اثنان وعشرون .
ورجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة . ويقال إنه قال لعليّ : لا يصيب المشركون منا مثلاً
حتى يفتح الله علينا .

هذا ملخص هذه القصة . وقد ساقها بأطول من هذا أهل السير . وفيما ذكر كفاية .
وأما ما اشتملت عليه من الأحكام والفقه والحكم والغايات المحموده ، فقد تكفل بيانها
الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) فارجع إليه .

تنبيه :

فسر أكثر العلماء (غدوت) بأصلها ، وهو الخروج غدوة أى بكرة . ثم استشكلوا
أنه ﷺ خرج إلى أحد بعد صلاة الجمعة كما اتفقت عليه كلمة أهل السير ، فكيف المطابقة ؟
فمنهم من أجاب بأن المراد غدوة السبت ، وأنه كان في صباحه التبوؤ للمقاعد إلا أنه
لا يساعده (من أهلك) لأنه لم يكن وقتئذ أهله معه .

ومنهم من قال : المراد غدوة الجمعة أى : اذكر إذ غدوت من أهلك صبيحة الجمعة إلى
أصحابك في مسجدك تستشيرهم في أمر المشركين ، ثم قال : وبني من (غدوت) حالاً
إعلاماً بأن الشروع في السبب شروعه في مسببه ، فقال (تبوؤ المؤمنين) أى صبيحة
يوم السبت .

وكان يخطر لي أن الأقرب جعل الغدو بمعنى الخروج غير مقيد بالبكرة ، وكثيراً ما يستعمل
كذلك .

ثم رأيت في فتح البيان ما استظهرته فحمدت الله على الموافقة ونصه : وعبر عن الخروج
بالغدو الذي هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة ، لأنه قد يعبر بالغدوة
والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناها ، كما يقال (أضحي) وإن لم يكن
في وقت الضحى - انتهى -

قال البقاعي : ولما كان رجوع عبد الله بن أبي المنافق ، كما يأتي في صريح الذكر آخر القصة ، من الأدلة على أن المنافقين ، فضلاً عن المصالحين بالمصارمة ، متصفون بإخبار الله تعالى عنهم من العداوة والبغضاء ، مع أنه كان سبباً في هم الطائفتين من الأنصار بالفشل - كان إِبْلاء هذه القصة للنهي عن اتخاذ بطانة السوء الذين لا يقصرون عن فسادٍ ، في غاية المناسبة . ولذلك افتتحها سبحانه بقوله مبدلاً من (إذ غدوت) دليلاً على ما قبله من أن بطانة السوء لا يألونهم خبائلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ،

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ » أى بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس « أَنْ تَفْشَلَا » أى تكسلا وتجبنا وتضعفا لرجوع المنافقين عن نصرهم وولايتهم فعصمهما الله ، فمضيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا » ناصرهما ، ومتولى أمرهما ، فأمدهما بالتوفيق والعصمة ، « وَعَلَى اللَّهِ » وحده دون ما عداه استقلالاً أو اشتراكاً « فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » فى جميع أمورهم ، فإنه حسبهم . و(التوكل : تفعل) من وكل أمره إلى فلان إذا اعتمد فى كفايته عليه ، ولم يتوله بنفسه . وفى الآية إشارة إلى أنه ينبغى أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة بالتوكل على الله ، وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل . روى الشيخان ^(١) عن جابر رضى الله عنه قال : فينا نزلت . إذ همت

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٨ - باب

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا .

ومسلم فى : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث ١٧١ (طبعنا) .

طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما - قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب أنهما لم تنزل لقوله تعالى: والله وليهما . أى لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف ببناء الله تعالى وإزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية . وإن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » لما

ذكر تعالى قصة أخذ أتبعها بذكر قصة بدر . وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا فى غاية الضعف عدداً وعدداً ، والكفار كانوا فى غاية الشدة والقوة . ثم إنه تعالى نصر المسلمين على الكافرين ، فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن ثمرة التوكل عليه تعالى والصبر والتقوى هو النصر والمعونة والتأييد . و (بدر) موضع بين الحرمين ، إلى المدينة أقرب ، يقال هو منها على ثمانية وعشرين فرسخاً . أو اسم بئر هناك حفرها رجل اسمه بدر ، وقوله « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى راجين أن تشكروا ما أنعم به عليكم بتقواكم من نصرته . وقد أشير فى مواضع من التنزيل إلى غزوة بدر ، وكانت فى شهر رمضان ، السنة الثانية من الهجرة ، وكان سببها أن النبى ﷺ بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة . معها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش ، عبيدهم أبو سفيان ، ومعه عمرو بن العاصى ، ومخرمة بن نوفل . فندب ﷺ إلى هذه العير . وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج . ولم يحتفل فى الحشد . لأنه لم يظن قتالاً . وخرج مسرعاً فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان ، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها . واتصل خروجه بأبى سفيان ، فاستأجر ضمضم ابن عمرو الغفارى ، وبعثه إلى أهل مكة يستنفرهم لغيرهم . فنفروا وأوعبوا ، وخرج ﷺ لثمان خلون من رمضان ، واستخلف على الصلاة عمرو بن أم مكتوم ، وردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، ودفع إلى

على راية ، وإلى رجل من الأنصار راية أخرى ، يقال كانتا سوداوين . وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة . وراية الأنصار يومئذ مع سعد بن معاذ ، فساكوا نقب المدينة إلى ذى الحليفة ، ثم انتهوا إلى صخيرات يمام ، ثم إلى بئر الروحاء ، ثم رجعوا ذات اليمين عن الطريق إلى الصفراء ، وبعث ﷺ قبلها بسبس بن عمرو وعدى بن أبي الزغباء إلى بدر يتجسسان أخبار أبي سفيان وعيره ، ثم تنكب عن الصفراء يميناً ، وخرج على وادى دقران ، فبلغه خروج قريش ونفيرهم ، فاستشار أصحابه فتكلم المهاجرون ، وأحسنوا ، وهو يريد ما يقوله الأنصار ، وفهموا ذلك ، فتكلم سعد بن معاذ ، وكان فيما قال : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، فسرّ بنا يا رسول الله على بركة الله . فسرّ بذلك وقال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين . ثم ارتحلوا من دقران إلى قريب من بدر ، وبعث عليّاً والزبير وسعداً في نفر يلتمسون الخبر . فأصابوا غلامين لقريش ، فأتوا بهما ، وهو ﷺ قائم يصلى ، وقالوا : نحن سقاة قريش ، فكذبوهما ، كراهية في الخبر ، ورجاء أن يكونا من العير للغنيمة وقلة المؤنة ، فجعلوا يضربونهما فيقولان : نحن من العير . فسلم رسول الله ﷺ وأنكر عليهم ، وقال للغلامين : أخبراني أين قريش ؟ فأخبراه أنهم وراء الكثيب ، وأنهم ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً ، فقال ﷺ : القوم ما بين التسعمئة والألف . وقد كان بسبس وعدى مضيا يتجسسان ولا خبر ، حتى نزلا وأنا خا قرب الماء ، واستقيا في شن لهما ، ومجدى بن عمرو من جهينة بقربهما . فسمع عدى جارية من جوارى الحى تقول لصاحبتها : العير تأتى غداً أو بعد غد ، وأعمل لهم وأقضيك الذى لك ، وجاءت إلى مجدى بن عمرو ، فصدقها . فرجع بسبس وعدى بالخبر . وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر . فقال لمجدى : هل أحسست أحداً ؟ فقال : راكبين أنا خا يميلان لهذا التل ، فاستقيا الماء ونهضا . فأتى أبو سفيان مناخهما ، وقتت من أبعاد رواحلهما . فقال : هذه ، والله ، علائف يثرب . فرجع سريعاً وقد حذر ، وتنكب بالعير إلى طريق الساحل فنجا . وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، ونقيم به ثلاثاً ، ونهاينا العرب أبداً ،

ورجع الأخنس بن شريق بجميع بنى زهرة ، وكان حليفهم ومطاعاً فيهم وقال : إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت ، فارجموا . وكان بنو عدى لم ينفروا مع القوم ، فلم يشهد بدرًا من قريش عدوى ولا زهري . وسبق رسول الله ﷺ قريشاً إلى ماء بدر ، وثبطهم عنه مطر نزل وبَلُّهُ مما يليهم ، وأصاب مما يلي المسلمين دهس الوادى ، وأعانهم على السير . فنزل صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فقال له الحباب بن المنذر : الله أنزلك بهذا المنزل فلا تتحول عنه ، أم قصدت الحرب والمكيدة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا بل هو الرأى والحرب . فقال : يا رسول الله ! ليس هذا بمنزل ، وإنما نأتى أدنى ماء من القوم ، فنزله ونبى عليه حوضاً ، ونملؤه ونعور القلب كلها ، فنكون قد منعناهم الماء ، فاستحسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم بنوا عريشاً على تل مشرف على المعركة يكون فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأتية النصر من ربه ، ومشى يريهم مصارع القوم واحداً واحداً . ولما نزل قريش مما يليهم بعثوا عمير بن وهب الجمحي يحجز أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحزهم وانصرف وخبرهم الخبر . ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ، ولا يكون الحرب ، فأبى أبو جهل ، وساعده المشركون ، وتوافقت الفتان ، وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف بيده ، ورجع إلى العريش ، ومعه أبو بكر وحده ، وطفق يدعو ويلح ، وأبو بكر يقاوله . ويقول في دعائه : اللهم ! إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ، اللهم ! أنجز لى ما وعدتنى . وسعد بن معاذ وقوم معه من الأنصار على باب العريش يحمونه ، وأخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اتبعه ، فقال : أبشر يا أبا بكر ! فقد أتى نصر الله . ثم خرج يحرض الناس . ورمى في وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول : شأهت الوجوه . ثم تراحفوا . نخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد يطلبون البراز ، نخرج إليهم عبدة بن الحرث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب ، فقتل حمزة وعلى شيبة والوليد ، وضرب عتبة عبدة ، فقطع رجله فمات ، وجاء حمزة وعلى إلى عتبة فقتلاه ،

وقد كان برز إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة من الأنصار فأبوا إلا قومهم .
وجال القوم جولة . فهزم المشركون . وقتل منهم يومئذ سبعون رجلا . وأسر سبعون .
واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً . ثم انجلت الحرب ، وانصرف إلى المدينة ، وقسم
الغنائم في الصفراء ، ودخل المدينة لثمان بقين من رمضان . وبسط القصة في السير . ومن
أبدعها سياقا وفقها (زاد المعاد) فليرجع إليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ)

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ » لتقويتكم ونصركم
ودفع أعدائكم « بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ » من سمائه لقتال أعدائه . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ
بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

« بَلَىٰ » إما من تمة مقوله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أو ابتداء خطاب من الله تعالى
تأييدا لقول نبيه وزيادة على ما وعدهم تكريما وفضلا . أى : نعم يكفيكم الإمداد بثلاثة
آلاف ولكنه يزيدكم « إِنْ تَصْبِرُوا » على قتالهم « وَتَتَّقُوا » الفرار عنهم « وَيَأْتُوكُمْ
مِنْ فُورِهِمْ هَذَا » أى ساعته هذه فلا تنزعجوا بمفاجأتهم « يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم « مُسَوِّمِينَ » بكسر
الواو أى معلمين أنفسهم بأداة الحرب على عادة الفرسان يوم اللقاء ليعرفوا بها . وقرئ

بفتح الواو أى معلّمين من قبله تعالى . روى البخارى^(١) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

تنبيه :

فى وعده صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بالإمداد بقوله « إِذْ يَقُولُ » وجهان :
الأول - أنه كان فى يوم بدر ، فإن سياق ما قبله يدل عليه وهو قوله « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ » ف (إِذْ) ظرف ل (نصركم) ، أى نصركم وقت قولك للمؤمنين وقد أظهرنا المعجز واستغاثوا ربهم . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، على هذا الوجه ، وبين قوله فى سورة الأنفال فى قصة بدر : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ^(٢) ؟

فالجواب : أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافى الثلاثة آلاف فما فوقها ، لقوله (مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم أوف آخر مثلهم ، وذلك أنهم لما استغاثوا أمدهم بألف ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف ، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واثقوا ، وكان هذا التدرىج ومتابعة الإمداد أحسن موقفاً وأقوى لتقويتهم ، وأسرهما من أن يأتى مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحي ، ونزوله مرة بعد مرة . قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، ومما يؤيد هذا الوجه أن سياق بدر فى الأنفال من قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ . . .^(٣) الآيات شبيه بهذا السياق هنا . كما يذوقه من تدبره .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ١١ - باب شهود الملائكة بدرًا ،

حديث ١٨٥٥ .

(٢) [٨ / الأنفال / ٩] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٧] ونصها : وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَذَا لَكُمْ =

الوجه الثاني :

أن هذا الوعد كان يوم أُحُد ، فإن القصة في سياق أُحُد ، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها ؛ ليدكرهم بنعمته عليهم ، لما نصرهم ببدر وهم أذلة ، وإنه كذلك هو قادر على نصرهم في سائر المواطن . ثم عاد إلى قصة أُحُد ، وأخبر عن قول رسوله لهم : **أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ...** الآية . ثم وعدهم أنهم إن صبروا واثقوا أمدهم بخمسة آلاف . فهذا من قول رسوله ، والامداد الذي يبدر من قوله تعالى ، وهذا بخمسة آلاف . وإمداد بدر بألف ، وهذا معلق على شرط ، وذاك مطلق ، والقصة في هذه السورة هي قصة أُحُد مستوفاة مطولة ، وبدر ذكرت فيها اعتراضاً . والقصة في الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة ، فالسياق هنا غير السياق في الأنفال - أشار لذلك ابن القيم في (زاد المعاد) .

وقد انتصر للوجه الأول العلامة أبو السعود ، وبين ضعف الثاني بأوجه وجيهة . فليرجع إليه .

وقيل الخازن عن ابن جرير أنه قال : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : **أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؟** فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف ، خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واثقوا الله .

ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ، ولا على أنهم لم يُمدُّوا بهم . وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم . وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك . ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف . ولا بالخمسة الآلاف .

= **وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ .**

وغير جائز ، أن يقال في ذلك قولٌ إلا بخبر تقوم به الحجة . ولا خبر به كذلك ، فنسلم لأحد الفريقين قوله .

غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة وذلك قوله :
إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبَدِّدُكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ .
[٨ / الأنفال / ٩] .

فأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يُمدُّوا أبين منها في أنهم أمدوا . وذلك أنهم لو أمدوا ، لم يهزموا ، وينال منهم ما نيل منهم .
فالصواب فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذكره .

(هذا هو نص ابن جرير . صفحة ١٨٠ و ١٨١ من الجزء السابع (طبعة المعارف) .
فإن قلت : فما تصنع بحديث سعد بن أبي وقاص المروي في الصحيحين أنه قال ^(٣) : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعني جبريل وميكائيل ؟ قلت : إنما كان ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، لأنه صبر ولم يهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد - انتهى .
فائدة :

الإمداد ، لغة الإعانة . والمراد هنا إعانة الجيش . وهل إعانة الملائكة للجيش بالقتال معهم للحديث السابق . ولحديث عائشة في الصحيحين ^(٣) قالت : لما رجع رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ١٨ - باب إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، حديث ١٨٧٣ .
ومسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث ٤٦ و ٤٧ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٠ - باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم ، حديث ٣٠٨ .
ومسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ٦٥ (طبعتنا) .

من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أنه جبريل فقال : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه ، اخرج إليهم ! قال : فإلى أين ؟ قال : ههنا - وأشار إلى بني قريظة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم - أو هي بتكثير سواد المسلمين وتثبيت قلوبهم ، كما قال تعالى في الأنفال (١) : **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَمَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ . أَوْ بِهِمَا مَعًا . وَهُوَ الظَّاهِرُ . وَقد سئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة ، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه ، فأجاب بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبي وأصحابه ، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش ، رعاية لصورة الأسباب التي أجزاها الله تعالى في عبادته . والله فاعل الجميع - انتهى -**

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ

إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ » أى ما جعل الإمداد بالملائكة إلا لتستبشروا به فتزداد قوة قلوبكم وشجاعتكم ونجدتكم ونشاطكم « وَتَطْمَئِنَّ » أى تسكن « قُلُوبُكُم بِهِ » أى فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » وحده لا من الملائكة ولا من غيرهم ، فالأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير ، وفيه توثيق للمؤمنين ، وعدم إقنات من النصر عند فقدان أسبابه وأماراته « الْعَزِيزِ » أى الذى لا يغالب فى حكمه « الْحَكِيمِ » الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه حكمته الباهرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبْتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ)

« لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ليهلك وينقص طائفة منهم بالقتل والأسر ،

(١) [٨ / الأنفال / ١٢] ... فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ .

كما كان يوم بدر، مِنْ قَتْلِ سَبْعِينَ وَأَسْرَ سَبْعِينَ مِنْهُمْ ، واللام متعلقة ، إما بقوله تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ . وما بينهما تحقيق لحقيقته ، وبيان لكيفية وقوعه - وإما بما تعلق به الخبر في قوله تعالى : وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . من الثبوت والاستقرار « أَوْ يَكْبِتَهُمْ » أى يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة تقوية للمؤمنين « فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ » أى فيرجعوا منقطعى الآمال . وإنما أوقع بين المعطوف والمعطوف عليه فى أثناء الكلام قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » اعتراضاً لئلا يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم فىرى نفسه تأثيراً فى بعض هذه الأمور فيحتجب عن التوحيد ، أى ليس لك من أمرهم شيء ، كيفما كان ، ما أنت إلا بشر مأمور بالإنذار . إن عليك إلا البلاغ ، إنما أمرهم إلى الله - أفاده القاشانى - وفى الاعتراض تخفيف من حزنه لكفرهم ، وحرصه على هدايتهم ، كما قال : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وقوله تعالى : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم للإسلام بعد الضلالة « أَوْ يُعَذِّبُهُمْ » أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم « فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ » أى يستحقون ذلك لاستمرارهم على العناد .

روى البخارى^(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد، قَنَتَ بعد الركوع ، فربما قال ، إذا قال سمع الله لمن حمده: اللهم ! ربنا ولك الحمد : اللهم ! أنجب الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة ، اللهم ! اشدد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسنى يوسف ، يجر بذلك ،

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٩ - باب لَيْسَ لَكَ

مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، حديث ٤٨٣ .

وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر : اللهم العن فلاناً وفلاناً (لأحياء من العرب) حتى أنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... الآية .

وقد أسند ما علقه عن ابن عمر^(١) أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر ، يقول : اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً . بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده وربنا ولك الحمد . فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... الآية - ورواه الإمام أحمد عن ابن عمر أيضاً ولفظه : اللهم ! العن فلانا وفلانا . اللهم العن الحارث بن هشام . اللهم العن سهيل بن عمرو . اللهم العن صفوان بن أمية . فزلت هذه الآية : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... الآية ، فيتب عليهم كلهم .

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا هشيم حدثنا حميد عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه ، فقال : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل ، فأنزل الله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . الآية - انفرد به مسلم . ورواه البخارى تعليقا . وقد تقدم لنا في مقدمة التفسير تحقيق معنى سبب النزول ، وأن الآية قد تذكر استشهاداً في مقام ، لكونها مما تشمله . فيطلق الراوى عليها النزول فيه ، ولا يكون قصده أن هذا كان سبباً لنزولها . والحكمة في منعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم ظهرت من توبتهم أخيراً . والإلحاح في الدعاء مظنة الإجابة ، لا سيما من أشرف خلقه . فاقترضت حكمته تعالى إمهالهم إلى أن يتوبوا لسابق علمه فيهم . وفيه طلب التفويض في الأمور الملمة ، لما في طيها من الأسرار الإلهية .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٩ - باب لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، حديث ١٨٧٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

لطيفة :

قوله تعالى : أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . منصوب بإضمار (أن) في حكم اسم معطوف بـ (أَوْ) على (الأمر) أو على (شيء) ، أى ليس لك من أمرهم شيء ، أو من التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم ، أو ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم .
أقول : جَعَلَ « أَوْ يَتُوبَ » منصوباً بالعطف على (يكبتهم) - بعيد جداً . وإن قدمه بعض المفسرين على الوجه المتقدم . وذلك لأن قوله تعالى « لَيْسَ لَكَ » كلام مستأنف على ما صرحت به الروايات في سبب النزول . وهى المرجع في التأويل - والله أعلم . -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ،
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » تقرير لما قبله من قوله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، أى له ما فيها ملكاً وأمراً « يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ » فيحكم في خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » تذييل مقرر لمضمون قوله : يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ، مع زيادة . وفي تخصيص التذييل به دون قرينة ، من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى - أفاده أبو السعود . -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » هذا نهى عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه ، كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله يقول : إما أن تقضى حتى أوتربى وأزيد في الأجل . وفى ندائهم باسم (الإيمان) إشعار بأن من مقتضى الإيمان وتصديقه ترك الربا . وقد تقدم في البقرة من المبالغة في النهى عنه ما يروع من له أدنى تقوى . ويوجب ، لمن لم يتركه وما يقاربه ، الضمان بالخذلان في كل زمان : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^(١) . أولئك الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ^(٢) . وقوله « أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » أى زيادات متكررة ، وليس لتقييد النهى به ، لما هو معلوم من تحريمه على كل حال ، بل لمراعاة عاداتهم كما بينا . ومحله النصب على الحالية من الربا . وقرئ (مضعفة) « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فيما تنهون عنه « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » بإيفاء حقوقكم وصونكم عن أعدائكم ، كما صنتم حقوق الأشياء . ومما يعلم به حكمة نظم هذه الآية في سلك قصة أحد ، ما رواه أبو داود ^(٣) عن أبي هريرة أن عمرو بن أقيش رضى الله عنه كان له رباً في الجاهلية ، فكره أن يسلم حتى يأخذه ، فجاء يوم أحد ، فقال : أين بنو عمى ؟ قالوا بأحد . قال : أين فلان ؟ قالوا : بأحد . قال : فأين فلان ؟ قالوا :

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٩] ... وَإِنْ تَبُتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ

وَلَا تَظْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ٨٦] .

(٣) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٣٧ - باب فيمن يسلم ويقتل مكانه

في سبيل الله عز وجل ، حديث ٢٥٣٧ .

بأُحْد . فلبس لَأَمْتَهُ ، وركب فرسه ، ثم توجه قِبَلَهُمْ ، فلما رآه المسلمون قالوا : إليك عنا يا عمرو ! قال : إني قد آمنت ، فقاتل حتى جرح ، فحمل إلى أهله جريحاً ، فجاءه سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال لأخته : سليه : حمية لقومك وغضباً لهم أم غضباً لله عز وجل ؟ فقال : بل غضباً لله عز وجل ورسوله ﷺ ، فات ، فدخل الجنة ، وما صلى الله عز وجل صلاة .

قال الدينورى : وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : حدثونى عن رجل دخل الجنة لم يصل قط ! فيسكت الناس ، فيقول أبو هريرة : هو أخو بنى عبد الأشهل .

وعند ابن إسحق : فذكر لرسول الله ﷺ فقال : إنه لمن أهل الجنة - هذا ملخص ما أورده البقاعى رحمه الله تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)

« وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » بالتحرز عن متابعتهم فى الربا ونحوه . روى عن أبى حنيفة رضى الله عنه أنه كان يقول : هى أخوف آية فى القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ » أى فى ترك الربا ونحوه « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ » أى إلى ما يؤدى إليهما من الاستغفار

والتوبة والأعمال الصالحة . وقوله « عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » أى كعرضهما ، كما قال في سورة الحديد : سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ^(١) . وفي العرض وجهان :

الأول - أنه على حقيقته . وتخصيصه بالذكر تنبيهاً على اتساع طولها . فإن العرض في العادة أدنى من الطول ، كما قال تعالى في صفة فرش الجنة : بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ^(٢) . أى فما ظنك بظاهاها ؟ فكذا هنا .

والثاني - أنه مجاز عن السعة والبسطة . قال القفال : ليس المراد بالعرض ههنا ما هو خلاف الطول ، بل هو عبارة عن السعة ، كما تقول العرب : بلاد عريضة ، ويقال : هذه دعوى عريضة أى واسعة عظيمة . والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضيق وما ضاق عرضه دق ، فجعل العرض كناية عن السعة . وقال الزمخشري : المراد وصفها بالسعة والبسطة . فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه تعالى وأبسطة - والله أعلم - « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ » أى في حال الرخاء واليسر « وَالضَّرَّاءِ » أى في حال الضيقة والعسر . وإنما افتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شئ على النفس ، فمخالفتها فيه منقبة

(١) [٥٧ / الحديد / ٢١] . . . أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

(٢) [٥٥ / الرحمن / ٥٤] ونصها : مُتَكَيِّينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ .

شاحخة « وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ » أى المسكين عليه فى نفوسهم ، الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه ، اتقاء التعدى فيه إلى ما وراء حقه .

روى الإمام أحمد^(١) عن جارية بن قدامة السعدى أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لى قولاً ينفعنى وأقلل على لعلى أعيه ، فقال رسول الله ﷺ : لا تغضب . فأعاد عليه . حتى أعاد عليه مرارا . كل ذلك يقول : لا تغضب - انفرد به أحمد - وروى من طريق آخر أن رجلاً قال : يا رسول الله أوصنى ، قال : لا تغضب . قال الرجل : ففكرت حين قال النبى ﷺ صلى الله عليه وسلم ما قال ، فإذا الغضب يجمع الشر كله « وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ » أى ظلمهم لهم ، ولو كانوا قد قتلوا منهم ، فلا يؤاخذون أحداً بما يجنى عليهم ، ولا يبقى فى أنفسهم موجدة ، كما قال تعالى : وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ^(٢) . قال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى ماذم من فعل المشركين فى أكل الربا ، فهى المؤمنون عن ذلك ، وندبوا إلى العفو عن المعسرين . قال تعالى عقيب قصة الربا والتدابين : وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(٣) . ويحتمل أن يكون كما قال تعالى فى الآية : فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ^(٤) . إلى قوله : وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ . ويحتمل

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٨٤ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) [٤٢ / الشورى / ٣٧] ونصها : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٨٠] .

(٤) [٢ / البقرة / ١٧٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ، الْحَرْثُ بِالْحَرْثِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَا إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أن يكون هذا بسبب غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مثلوا بحمزة وقال : لأمثلنَّ بهم . فندب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والكف عن فعل ما ذكر أنه يفعله من المثلَّة ، فكان تركه فعل ذلك عفواً . قال تعالى في هذه القصة : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ^(١) - انتهى - وظاهر أن عموم الآية مما يشمل كل ما ذكر . إذ لا تعين « وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » اللام إما للجنس ، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً . وإما للعهد ، عبر عنهم بالمحسنين إيداناً بأن النعوت المحدودة من باب الإحسان الذى هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى . وقد فسرهُ صلى الله عليه وسلم بقوله^(٢) : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك . والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها - أفاده أبو السعود -

(١) [١٦ / النحل / ١٢٦] .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٣٧ - باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان . ونصه : عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس . فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث » قال : ما الإسلام ؟ قال « أن تعبد الله ولا تشرك به . وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : ما الإحسان ؟ قال « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : متى الساعة ؟ قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأُمّةُ رهباً . وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان . في خمس لا يعلمهن إلا الله » .

ثم تلا النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . . . الآية .

ثم أدبر . فقال « ردوه » فلم يروا شيئاً .

قال « هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً» من السيئات الكبار «أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» أى باى نوع من الذنوب «ذَكَرُوا اللَّهَ» أى تذكروا حقه وعهده فاستحيوه وخافوه «فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» أى لأجلها بالتوبة والإنابة إليه تعالى .

قال البقاعى: ولما كان هذا مفهوماً أنه يغفر لهم لأنه غفار لمن تاب ، أتبعه بتحقيق ذلك ، ونفى القدرة عليه عن غيره ، مرغبا فى الإقبال عليه بالاعتراض بين المتعاطفين بقوله « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ » أى يححو آثارها حتى لا تذكر ولا يجازى عليها « إِلَّا اللَّهُ » أى الملك الأعلى . وقال أبو السعود « مَنْ » استفهام إنكارى . أى لا يغفر الذنوب أحد إلا الله ، خلا أن دلالة الاستفهام على الانتفاء أقوى وأبلغ لإيدانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء ، فيسارع إلى الجواب به . والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة ، والجملة معترضة بين العطفين ، أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه ، والإشعار بالوعد بالقبول .

وقال الزمخشري: فى هذه الجملة وصف لذاته تعالى بسعة الرحمة ، وقرب المغفرة ، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفرع للمذنبين إلا فضله وكرمه ، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب ، لأن العبد إذا جاء فى الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه ، وجب العفو والتجاوز . وفيه تطيب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبعث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل ، وكرمه أعظم . والمعنى أنه وحده معه مصححات المغفرة - انتهى .

وفي مسند الإمام أحمد^(١) عن الأسود بن سريع رضى الله عنه أن النبي ﷺ أتى بأسير ، فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال النبي ﷺ : عرف الحق لأهله . وفيه أيضاً^(٢) : عن أبي سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم ! فقال الله : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى .

وفيه أيضاً^(٣) : عن على رضى الله عنه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله صلى عليه وسلم حديثاً نفعتنى الله بما شاء منه ، وإذا حدثنى عنه غيرى استحلقتة ، فإذا حلف لى صدقته ، وإن أبا بكر رضى الله عنه حدثنى ، وصدق أبو بكر ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال : ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له ، ورواه أهل السنن وابن حبان فى صحيحه وغيرهم - قال الترمذى : حديث حسن « وَلَمْ يُبْصِرُوا » أى لم يقيموا « عَلَى مَا فَعَلُوا » أى ما فعلوه من الذنوب من غير استغفار « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » حال من فاعل (بصروا) أى لم بصروا على ما فعلوا وهم عالمون بقبحه ، والنهى عنه ، والوعيد عليه . والتقيد بذلك ، لما أنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح . وقد روى أبو داود والترمذى^(٤) والبخارى وأبو يعلى عن مولى لأبى بكر الصديق رضى الله عنه عن أبى بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند رقم ٢ (طبعة المعارف) .

ورواه الترمذى فى : ٢ - كتاب الصلاة ، ١٨١ - باب ماجاء فى الصلاة عند التوبة .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٨ - كتاب الوتر ، ٢٦ - باب فى الاستغفار ، حديث ١٥١٤

والترمذى فى : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ١٠٦ - باب حدثنا حسين بن يزيد الكوفى .

وإسناده لا بأس به . قال ابن كثير : وقول علي بن المديني والترمذي : ليس إسناد هذا الحديث بذلك - فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر ، ولكن جهالة مثله لا تضر لأنه تابعي كبير ، ويكفيه نسبه إلى أبي بكر ، فهو حديث حسن - والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

«أُولَٰئِكَ» إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بأمور من الصفات الحميدة «جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ» أي ستر لذنوبهم «وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أي من أنواع المشروبات «خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» المخصوص بالمدح محذوف ، أي ذلك . يعني ما ذكر من المغفرة والجنت . ثم عاد التنزيل إلى تفصيل بقية قصة أحد ، بعد تمهيده مبادئ الرشد والصلاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)

«قَدْ خَلَتْ» أي مضت «مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ» أي وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» التي فيها ديارهم الخربة وآثار إهلاكهم «فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ» أي وقيسوا بهم عاقبة اللاحقين بهم في الهلاك والاستئصال . والأمر بالسير والنظر . لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثرًا في الاعتبار والروعة ، أقوى من أثر السماع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)

« هَذَا » أى القرآن أو ما تقدم من مؤاخذه المذكورين « بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ » أى تخويف نافع « لِّلْمُتَّقِينَ » ثم شجع قلوب المؤمنين وسلاهم عما أصابهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ، ولا تحزنوا على من قتل منكم ، والحال أنكم الأعْلَوْنَ الغالبون دون عدوكم ، فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من عاقبة أسلافهم ، فهو تصريح بالوعد بالنصر بعد الإشعار به فيما سبق ، وقوله « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » متعلق بالنهى أو بد(الأعلون) . وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه . أى إن كنتم مؤمنين ، فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإن الإيمان يوجب قوة القلب ، والثقة ب صنع الله تعالى ، وعدم المبالاة بأعدائه . أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعْلَوْنَ ، فإن الإيمان يقتضى العلو لا محالة - أفاده أبو السعود -

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ » بالفتح والضم قراءتان ، وهما لفتان ، كالضعف والضعف ، أى

إِنْ أَصَابَكُمْ يَوْمَ أَحَدٍ جَرَّاحٌ « قَدَّ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ » أَى يَوْمٍ بَدْرٍ وَلَمْ يَضَعِفُوا وَلَمْ يَجْبُنُوا فَأَنْتُمْ أَوَّلَى ، لِأَنْكُمْ مَوْعُودُونَ بِالنَّصْرِ دُونَهُمْ ، أَى قَدْ اسْتَوَيْتُمْ فِي الْأَلَمِ ، وَتَبَايَنْتُمْ فِي الرَّجَاءِ وَالثَّوَابِ ، كَمَا قَالَ : إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ^(١) . فَمَا بِالْكُمْ تَهْنُونَ وَتَضَعِفُونَ عِنْدَ الْقَرْحِ وَالْأَلَمِ ، قَدْ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ ، وَأَنْتُمْ أَصَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ . وَقِيلَ : كَلَّا الْمَسَيْنِ كَانَ يَوْمَ أَحَدٍ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ نَالُوا مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَخَالَفُوا أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ » أَى أَيَّامُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا « نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » أَى نَصَرَهَا بَيْنَهُمْ ، نَدِيلُ تَارَةٍ لِهَؤُلَاءِ ، وَتَارَةٍ لِهَؤُلَاءِ . فَهِيَ عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَقْسِمُهَا بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ . بِخِلَافِ الْآخِرَةِ ، فَإِنْ عَرَضَهَا وَنَصَرَهَا وَرَجَّاءُهَا خَالِصٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا .

قال ابن القيم قدس الله سره (في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد) :

ومنها أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى ، لكن تكون لهم العاقبة . فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المسلمون وغيرهم ، ولم يميز الصادق من غيره . ولو انتصر عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة . فاقترضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ل يتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به ، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة - انتهى -

وقوله تعالى : « وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » قال ابن القيم : حكمة أخرى وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه ، وذلك العلم

(١) [٤ / النساء / ١٠٤] ونصها : وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً .

الغيبى لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنما يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس .

لطيفة :

في الآية وجهان :

أحدهما : أن يكون الملل محذوفاً معناه : وليعلم .. الخ فعلنا ذلك .

الثانى : أن تكون العلة محذوفة وهذا عطف عليه معناه : وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت ، وليعلم الله . وإنما حذف للإيدان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ليسلهم عما جرى عليهم وليبصرهم أن العبد يسوؤه ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أن الله فى ذلك من المصالح ما هو غافل عنه - أفاده الزخشرى -

تنبيه :

فى هذه الآية بحث مشهور ، وذلك بأن ظاهرها مشعر بأنه تعالى إنما فعل ذلك ليكتسب هذا العلم ، ومعلوم أن ذلك محال على الله تعالى ، ونظيرها فى الإشكال قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ^(١) .. الخ وقوله : وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ^(٢) وقوله : لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى^(٣) .. الخ وقوله : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ^(٤) .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٤] ونصها : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .

(٢) [٢٩ / العنكبوت / ٣] .

(٣) [١٨ / الكهف / ١٢] ونصها : ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى

لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا .

(٤) [٤٧ / محمد ﷺ / ٣١] .

وقوله: إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ^(١) .

قال الرازى: وقد احتج هشام بن الحكم بظواهر هذه الآيات على أن الله تعالى لا يعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها فقال: كل هذه الآيات دالة على أنه تعالى إنما صار عالماً بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها .

ولما كانت الدلائل القطعية دالة على أزلية علمه جل اسمه ، أجاب عن ذلك العلماء بأجوبة : منها - أن هذا من باب التمثيل . فالتقدير فى هذه الآية : ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها - أن العلم فيها مجاز عن التمييز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم .

ومنها - أن العلم على حقيقته . إلا أنه معتبر من حيث تعلقه بالعلوم من حيث إنه واقع موجود بالفعل ، أى ليعلم الثابت واقعاً منهم كما كان يعلم أنه سيقع لأن المجازاة تقع على الواقع دون العلوم الذى لم يوجد ، وهذا ما اعتمده ابن القيم كما نقلناه أولاً .

ومنها - أن الكلام على حذف مضاف . أى ليعلم أولياء الله ، فأضاف إلى نفسه تفخيماً - والله أعلم .

ثم ذكر حكمة أخرى وهى اتخاذ سبحانه منهم شهداء بقوله « وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » أى وليكرم ناساً منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم فى تضحية النفس شهادة للحق ، وإسمائة دونه ، وإعلاء لكلمته ، وهو تعالى يحب الشهداء من عباده ، وقد أعد لهم أعلى

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] ونصها : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

النازل وأفضلها ، وقد اتخذهم لنفسه ، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة . وفي لفظ (الاتخاذ) النبيُّ عن الاصطفاء والتقريب ، من تشریفهم وتفضيم شأنهم ما لا يخفى وقوله « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » قال ابن القيم : تنبيه لطيف الموقع جدا على أن كراهته وبغضه للمنافقين الذين انحزلوا عن نبيه يوم أحد فلم يشهدوه ، ولم يتخذ منهم شهداء ، لأنه لم يحبهم ، فأركسهم وردهم ليحرمهم ماخص به المؤمنون في ذلك اليوم ، وما أعطاه من استشهاد منهم ، فقبض هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه - انتهى .

فالتعريض بالمناققين . ويحتمل أن يكون بالكفرة الذين أدبل لهم ، تنبيهاً على أن ذلك ليس بطريق النصر لهم ، بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين . ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

« وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لينقيهم ويخلصهم من الذنوب ومن آفات النفوس . وأيضاً فإنه خالصهم ومحصهم من المنافقين ، فتميزوا منهم . فحصل لهم تمحيصان : تمحيص من نفوسهم ، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدو . ثم ذكر حكمة أخرى وهى محق الكافرين بقوله « وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » أى يهلكهم ، فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا . فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ، إذ جرت سنة الله تعالى ، إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم ، قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقتهم . ومن أعظمها ، بعد كفرهم ، بغيتهم وطغيانهم في أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسليط عليهم . والحق ذهاب الشيء بالكية حتى لا يرى منه شيء ، وقد محق الله الذي حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وأصرّوا على الكفر جميعاً ، ثم أنكر تعالى عليهم حسابهم وظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر على أذى أعدائه ، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ

وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » أى ولما يقع ذلك منكم فيعلمه ، فإنه لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة ، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم ، لا على مجرد العلم ، فإن الله لا يجزى العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه - أفاده ابن القيم -

وفي الكشف « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ » بمعنى ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه ، لأنه منتف بانتفائه ، يقول الرجل : ما علم الله في فلان خيراً ، يريد ما فيه خير حتى يعلمه ، و (لما) بمعنى (لم) ، إلا أن فيها ضرباً من التوقع ، فدل على نفي الجهاد فيما مضى ، وعلى توقعه فيما يستقبل ، وتقول : وعدنى أن يفعل كذا ولما . تريد . ولما يفعل ، وأنا أتوقع فعله .

لطيفة :

قال أبو مسلم في (أَمْ حَسِبْتُمْ) : إنه نهى وقع بحرف الاستفهام الذى يأتى للتبكي . وتلخيصه : لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد ، وهو كقوله : أَمْ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ^(١) . وافتتح الكلام بذكر (أَمْ) التى هى أكثر ما تأتى في كلامهم واقعة بين ضربين ، يشك في أحدهما لابعينه . يقولون : أزيداً ضربت أماً عمراً ؟ مع تيقن وقوع الضرب بأحدهما . قال : وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام تأكيداً ، فلما قال « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا » كأنه قال : أفتعلمون أن ذلك كما تؤمرون به أَمْ تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير مجاهدة وصبر . وإنما استبعد هذا لأن الله تعالى أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة ، وأوجب الصبر على تحمل متاعها ، وبين وجوه المصالح فيها في الدين

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٠١] .

وفي الدنيا ، فلما كان كذلك ، فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنة مع إهمال هذه الطاعة - انتهى - .

ثم ويخبرهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)

« وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ » أى الحرب ، فإنها من مبادئه ، أو الموت على الشهادة « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ » أى تشاهدوه وتعرفوا هوله « فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ » أى ما تتمنونه من أسباب الموت ، أو الموت بمشاهدة أسبابه العادية ، أو قتل إخوانكم بين أيديكم « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » حال من ضمير المخاطبين . وفي إثارة الرؤية على الملاقاة ، وتقييدها بالنظر ، مبالغة في مشاهدتهم له .

قال ابن عباس : لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة ، رغبوا في الشهادة ، فتمنوا قتالاً يستشهدون فيه فيأحقون إخوانهم ، فأراهم الله ذلك يوم أحد ، وسببه لهم ، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم ، فأنزل الله تعالى « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ . . . » الآية - وقد ثبت في الصحيحين ^(١) أن رسول الله ﷺ قال : لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

(١) أخرجه البخارى في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١١٢ - باب كان النبي ﷺ إذا

لم يقاتل أول النهار ، أخر القتال حتى تزول الشمس . ونصه :

عن سالم أبي النضر ، مولى عمر بن عبيد الله ، وكان كاتباً له ، قال : كتب إليه عبد الله ابن أبي أوفى رضى الله عنهما ، فقرأته أن رسول الله ﷺ ، في بعض أيامه التي لقي فيها ، =

قال أهل المغازي: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، أقبل عبد الله بن قتيبة يريد قتل رسول الله ﷺ . فذب عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه ، وهو يومئذ صاحب رايته ، فقتله ابن قتيبة وهو يرى أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع فقال : قد قتلت محمداً وصرخ الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل . فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال . ففي ذلك أنزل الله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وََمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ » والرسول منهم من مات ، ومنهم من قتل ، فلا منافاة بين الرسالة والقتل والموت ، إذ « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » فسيخلو كما خلوا « أَفَإِنْ مَاتَ » أى أتؤمنون به في حال حياته فإن مات « أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ » أى ارتددتم « عَلَى أَعْقَابِكُمْ » أى بعد علمكم بخلو الرسول قبله ، وبقاء دينهم ، متمسكاً به « وََمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا » وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب « وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » بالنصر والغلبة في الدنيا ، والثواب والرضوان في الآخرة ، وهم الذين لم ينقلبوا ، بل قاموا بطاعته ، وقاتلوا على دينه ، واتبعوا رسوله حياً وميتاً . وسمّاهم (شاكرين) لأنهم شكروا

= انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام في الناس قال « أيها الناس ! لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية . فإذا لقيتموهم فاصبروا . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال « اللهم ! منزل الكتاب ، وجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم . »
ومسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ٢٠ (طبعتنا) .

نعمة الإسلام الذي هو أجل نعمة وأعز معروف . والمعنى أن من كان على يقين من دينه ، وبصيرة من ربه ، لا يرتد بموت الرسول وقتله ، ولا يَفْتَرُ عما كان عليه ، لأنه يجاهد لربه لا للرسول ، كأصحاب الأنبياء السالفين ، وكما قال أنس ^(١) (عم أنس بن مالك ، يوم أحد حين أُرْجِفَ بقتل رسول الله عليه السلام وشاع الخبر ، وانهزم المسلمون ، وبلغ إليه تقول بعضهم : ليت فلاناً يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان . وقول المنافقين : لو كان نبياً ما قتل) : يا قوم ! إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد حي لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال : اللهم ! إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه وقاتل حتى قُتل - أفاده القاشاني - .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٢ - باب قول الله تعالى : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدْلًا . ونصه :

عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عني أنس بن النضر عن قتال بدر . فقال : يا رسول الله ! غبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين ، لأن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع . فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون . قال : اللهم ! إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين) .

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : يا سعد بن معاذ ! الجنة ، ورب النضر ! إني لأجد ريحها من دون أُحُدٍ .

قال سعد : فما استطعت ، يا رسول الله ! ، ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ، ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم . ووجدناه قد قُتِلَ وقد مثَّلَ به المشركون . فما عرفه أحد إلا أخته بيناته .

قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ... الخ .

روى ابن أبي نجيح عن أبيه أن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه ، فقال له : يا فلان ! أشعرت أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان محمد قد قتل ، فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم ، فنزل « وَمَا مُحَمَّدٌ ... » الآية - رواه أبو بكر البيهقي في (دلائل النبوة) .

قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) : ومنها - أى من الغايات في هذه الغزوة - أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قتل . بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ، ويموتوا عليه ويُقتلوا ، فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حي لا يموت . فلو مات محمد أو قتل لاینبغى لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكل نفس ذائقة الموت ، وما بعث محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ليخلد ، لا هو ولا هم ، بل لموتوا على الإسلام والتوحيد ، فإن الموت لا بد منه ، فسواء مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بقى . ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان بأن محمداً قد قتل ، فقال : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... الآية - والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة ، فثبتوا عليها حتى ماتوا وقتلوا ، فظهر أثر هذا العتاب ، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد على عقبيه ، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله وأعزهم ، وأظفرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم - انتهى - .

وثبت في الصحيح^(١) أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه تلا هذه الآية يوم موت النبي ﷺ ، وتلاها منه الناس كلهم ، والحديث مشهور . ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلاً ، لا بد أن تستوفيه وتلحق به ، فيرد الناس كلهم حوض المنايا مورداً واحداً ، وإن تنوعت أسبابه ، ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، بقوله :

(١) أخرجه البخارى في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ،

٥ - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى بأمره وإرادته « كِتَابًا مُؤَجَّلًا » مصدر مؤكد لمضمون ما قبله ، أى كتب لكل نفس عمرها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر . وفى الآية تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » أى مانئاً أن نؤتيه ، ولم يكن له فى الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بمن حضر لطلب الغنائم « وَمَنْ يُرِدْ » أى بعمله « ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ » ونظير هذه الآية قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ^(١) . وقوله سبحانه : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ^(٢) .
واعلم أن الآية ، وإن كان سياقها فى الجهاد ولكنها عامة فى جميع الأعمال . وذلك لأن المؤثر فى جلب الثواب أو العقاب هو النيات والدواعى ، لا ظواهر الأعمال . ثم نفى عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالية ، عليهم السلام ، بقوله :

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٠] .

(٢) [١٧ / الإسراء / ١٨ و ١٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

« وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ » أى كم من الأنبياء قاتل معهم ، لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ، جماعتهم الأتقياء العباد «فَمَا وَهَنُوا» أى ضعفوا «لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» من الجراح وشهادة بعضهم لأن الذى أصابهم إنما هو فى سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ، ونصرة رسوله « وَمَا ضَعُفُوا » أى عن الجهاد أو العدو أو الدين « وَمَا اسْتَكَانُوا » للأعداء بل صبروا على قتالهم « وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » على قتال أعدائه .

تنبيهات

الأول - (كَأَيِّنْ) بمعنى (كم) الخبرية ، وفيها لغات ، قرئ منها فى السبع : كَأَنَّ ممدوداً مهموزاً لابن كثير . والباقون بالتشديد . وفيها كلام كثير فى معناها ولغاتها وقراءاتها المتواترة والشاذة وصلاً ووقفاً ، وفى رسمها . فانظر مواد ذلك .

الثانى - قرئ فى السبع « قُتِلَ » بالبناء للمجهول ونائب الفاعل « رييون » قطعاً . وأما احتمال أن يكون ضميراً لنبيٍّ ومعه رييون حال ، أو يكون على معنى التقسيم والتأخير ، أى وكأن من نبيٍّ معه رييون قتل - فتكلف ينبو عن سليم الأفهام . وتعسف يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله . وإن نقله القفال ، ونصره السهيليّ وبالغ فيه . فما كل سوداء تمرّة .

الثالث - (الرييون) بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقرئ بضمها وفتحها ، فافتح على القياس ، والكسر والضم من تغييرات النسب ، وهم الربانيون ، أى الذين يعبدون الرب تعالى . ثم أخبر سبحانه ، بعد بيان محاسنهم الفعلية ، بمحاسنهم القولية ، وهو ما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم ، وأن ينصرهم على عدوهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

« وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ » أى هؤلاء الربانيين، مثل قول المنافقين ولا المعجبيين . و « قولهم » بالنصب خبر لـ (كان) ، واسمها (أن) وما بعدها فى قوله تعالى « إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

قال ابن القيم : لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يسترلهم ويهزمهم بها . وأنها نوعان : تقصير فى حق ، أو تجاوز لحد . وأن النصر منوط بالطاعة ، قالوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا . ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى ، إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يقدرُوا على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم ، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم ، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم ، لم يثبتوا ولم ينتصروا . فَوَقَّوْا الْقَامِينَ حَقَّهُمَا : مقام المقتضى ، وهو التوحيد ، والالتجاء إليه سبحانه . ومقام إزالة المانع من النصر ، وهو الذنوب والإسراف - انتهى -

قال القاضى : وهذا تأديب من الله تعالى فى كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن ، سواء كان فى الجهاد أو غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

« فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا » من النصر والغنيمة ، وقهر العدو ، والثناء الجميل ، وانسراح الصدر بنور الإيمان ، وكفارة السيئات « وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ » وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم . وتخصيص وصف الحسن بثواب الآخرة للإيذان بفضله ومزيته ، وأنه المعتد به عنده تعالى ، بخلاف الدنيا لقلتها وامتزاجها بالمضار ، وكونها منقطعة زائلة

« وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » إشارة إلى أن ما حكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب الإحسان .

قال الرازي : فيه دققة لطيفة ، وهي أن هؤلاء لما اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا... الآية - سماهم الله محسنين كأن الله تعالى يقول لهم : إذا اعترفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيباً لنفسى حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز اه .

ثم حذرهم سبحانه ، إثر ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء المفضى لسعادة الدارين ، من طاعة عدوهم . وأخبر أنه إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة . وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أُحُد ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ » أى إلى الشرك . والارتداد على العقب علمٌ فى انتكاس الأمر ، ومَثَلٌ فى الحَوَر بعد الكَوَر « فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » لدين الإسلام ولحبة الله ورضوانه وثوابه الدنيوى والأخروى . فلا تعتقدوا أنهم يوالونكم كما توالونهم . قال بعض المفسرين : ثمرة الآية الدلالة على أن على المؤمنين أن لا ينزلوا على حكم الكفار ولا يطيعوهم ولا يقبلوا مشورتهم خشية أن يستزلوهم

عن دينهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ)

«بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ» فأطيعوه «وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ» ينصركم خيراً من نصرهم لو نصروكم ، وكيف لا يكون خير الناصرين وهو ينصركم بغير قتال ، كما وعد بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)

«سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» أى الذى يمنهم من الهجوم عليكم والإقدام على حرمكم «بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ» أى بكونه إلهاً أو متصفاً بصفاته أو مستحقاً للعبادة «سُلْطَانًا» أى حجة قاطعة ينبى عليها الاعتقادات «وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» هى . والمثوى : المقر والمأوى والمقام . من (ثوى يثوى) .

لطائف

الأولى :

أفادت الآية أن ذلك الرعب بسبب ما فى قلوبهم من الشرك بالله ، وعلى قدر الشرك يكون الرعب . قال القاشانى : جعل إلقاء الرعب فى قلوب الكفار مسبباً عن شركهم لأن الشجاعة وسائر الفضائل اعتدالات فى قوى النفس لتنورها بنور التوحيد ، فلا تكون تامة إلا للموحد الموقن فى توحيده . وأما المشرك فلا أنه محجوب عن منيع القدرة بما أشرك بالله من الموجود المشوب بالعدم الذى لم يكن له بحسب نفسه قوة ، ولم ينزل الله بوجوده حجة ، فليس له إلا العجز والجبن وجميع الرذائل .

وقال القفال رحمه الله : كأنه قيل : إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة فى يوم أحد

إلا أن الله تعالى سيلقى الرعب منكم بعد ذلك ، فى قلوب الكافرين ، حتى يقهر الكفار .
ويظهر دينكم على سائر الأديان ، وقد فعل الله ذلك ، حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع
الأديان والملل - انتهى -

وقد ثبت فى الصحيحين^(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض
مسجداً وطهوراً وأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبى
يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة .

الثانية :

فى ذكر عدم تنزيل الحجة مع استحالة تحقيقها فى نفسها ، إشعار بنفيها ونفى نزولها جميعاً .
لأن ما لم ينزل به سلطاناً ، لا سلطان له .

الثالثة :

قال أبو السعود : فى الآية إيدان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السامى ، دون الآراء
والأهواء الباطلة .

وقد سبقه إلى ذلك الرازى حيث قال : هذه الآية دالة على فساد التقليد . وذلك لأن
الآية دالة على أن الشرك لا دليل عليه ، فوجب أن يكون القول به باطلاً ، وهذا إنما يصح
إذا كان القول بإثبات ما لا دليل على ثبوته ، يكون باطلاً ، فيلزم فساد القول بالتقليد - انتهى -
ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده فى النصر على عدوه ، وهو الصادق الوعد ، وأنهم لو استمروا
على الطاعة ولزموا أمر الرسول لاستمرت نصرتهم ، ولكن انحلعوا عن الطاعة ، وفارقوا
مركزهم ففارقهم النصر ، فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء وتعريفاً لهم سوء عواقب
المعصية وحسن عاقبة الطاعة بقوله :

(١) أخرجه البخارى فى : ٨ - كتاب الصلاة ، ٥٦ - باب قول النبى صلى الله عليه وسلم
« جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ » في قوله : « وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ . » « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ » أى تقتلونهم قتلاً كثيراً . من (حسه) إذا أبطل حسه « بِإِذْنِهِ » أى بتيسيره وتوفيقه « حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ » أى ضعفتم وتراخيتم بالليل إلى الغنيمة « وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ » أى فى الإقامة بالمركز ، فقال أصحاب عبد الله ^(١) : الغنيمة . أى قوم ! الغنيمة . ظهر أحماءكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيب من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم ، فأقبلوا منهزمين - رواه الإمام أحمد -

و (الأمر) إما بمعنى الشأن والقصة ، وإما الذى يضاده (النهى) أى فيهم أمرتهم به من عدم البراح « وَعَصَيْتُمْ » أى أمر الرسول أن لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم ، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا ، فلا تعينونا - رواه البخارى - « مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ » أى من الظفر والغنيمة ، وانهزام العدو . روى البخارى ^(٢) عن البراء قال : لقينا المشركين

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ١٧ - باب غزوة أحد وقول الله

تعالى : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . . . الخ ، حديث ١٤٤٢ = وهذا نصه :

يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم - بلفظ ما تقدم - ثم قال البراء : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة .. الحديث « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا » أى الغنيمة فترك المركز « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » فثبت فيه وهم الذين نالوا شرف الشهادة ، ومنهم أنس بن النضر الأسد المقدام^(١) ، القائل وقتئذ : اللهم ! إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به

= عن البراء رضى الله عنه قال : لقد لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة وأمر عليهم عبد الله وقال « لا تبرحوا . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا . وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » .

فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، يرفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن . فأخذوا يقولون : الغنيمة ! الغنيمة ! فقال عبد الله : عهد إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا . فأبوا . فلما أبوا صرّف وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلا .

وأشرف أبو سفيان فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن أبي قحافة ؟ قال « لا تجيبوه » فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا . فلو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله ! أبقى الله عليك ما يخزيك . قال أبو سفيان : أعلّ هُبْل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أجيبوا » قالوا : ما نقول ؟ قال « قولوا : الله أعلى وأجل » .

قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال . وتجدون مثلة لم أمر بها ولم تسؤنى .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٩٨٧ .

المشركون ، فتقدم بسيفه ، فلقى سعد بن معاذ ، فقال أين ياسعد ؟ إني أجد ربح الجنة دون أحد ! ففضى فقتل ، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو بينانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم - هذا لفظ البخارى - وأخرجه مسلم بنحوه ، فرضى الله عنه وأرضاه وقدس روحه الزكية « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » أى كفكم عنهم حتى حالت الحال ، ودالت الدولة . وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى « لِيَبْتَلِيَكُمْ » أى ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله ، وترجعوا إليه ، وتستغفروه فيما خالفتكم فيه أمره ، وملتم إلى الغنيمة . ثم أعلمهم أنه تعالى قد عفا عنهم بقوله « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » أى تفضلاً عليكم لإيمانكم « وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أى فى الأحوال كلها ، إما بالنصرة وإما بالابتلاء ، فإن الابتلاء فضل ولطف خفى ، ليعلموا بالصبر على الشدائد ، والثبات فى المواطن ، ويتمكنوا فى اليقين ، ويجعلوه ملكة لهم ، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها ، ولا يذهلوا عن الحق ، وليكون عقوبة عاجلة للبعض ، فيتمحصوا عن ذنوبهم ، وينالوا درجة الشهادة ، فيلقوا الله ظاهرين - أفاده القاشانى - .

لطائف

الأولى :

(إذا) فى قوله تعالى « حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ » إما شرط ، أو ، لا . وعلى الأول فجوابها إما محذوف أو مذكور . فتقديره ، على كونه محذوفاً ، حتى إذا فشلت وتنازعت فى الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون ، منعكم الله نصره - لدلالة صدر الآية عليه - أو صرتم فريقين ، لأن قوله تعالى « مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ . . . » الخ يفيد فائدته ، ويؤدى معناه . وعلى كونه مذكوراً فهو إما (وعصيتم) والواو صلة . وحكى هذا عن الكوفيين والفراء ، قالوا : ونظيره قوله تعالى : فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ^(١) . والمعنى نادينه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٠٣ و ١٠٤] .

وبعض من نصر هذا الوجه زعم أن من مذهب العرب إدخال الواو في جواب (حتى إذا) بدليل قوله تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**^(١) . أى فتحت . وأجابوا عما أورد عليهم من لزوم تعليل الشيء بنفسه - إذ الفشل والتنازع معصية فكيف يكونان علة لها - بأن المراد من العصيان خروجهم عن ذلك المكان . ولا شك أن الفشل والتنازع هو الذى أوجب خروجهم عنه ، فلا لزوم . وإما قوله تعالى **« صَرَفَكُم عَنْهُمْ »** وكلمة (ثم) صلة - قاله أبو مسلم .

وعلى الثانى أعنى كونها ليست شرطاً فهى اسم و (حتى) حرف جر بمعنى إلى متعلقة بقوله تعالى **« صدقكم »** باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيل : لقد نصركم الله (إلى) وقت فشلكم وتنازعكم .

الثانية :

فائدة قوله تعالى **« مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ »** التنبيه على عظم المعصية ، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد ، كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها سلبوا ذلك الإكرام .

الثالثة :

ظاهر قوله تعالى : **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** . أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة ، لأنها لم تذكر ، فدل على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر .

الرابعة :

فى قوله تعالى : **وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** . دليل على أن صاحب الكبيرة مؤمن ، فإن الذنب فى الآية كان كبيرة - والله أعلم - .
ثم ذكرهم تعالى بحالهم وقت الفرار بقوله :

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] ونصها : **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٥٣] (إِذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تُلُونَا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِذْ تَصْعِدُونَ » متعلق بـ (صرفكم) أو بقوله (ليبتليكم) ، أو بمقدر . والإصعاد الإبعاد في الأرض . أى تبعدون في الفرار ، وقرئ : تَصْعِدُونَ . من الثلاثى ، أى فى الجبل « وَلَا تُلُونَا » أى لا تعطفون بالوقوف « عَلَىٰ أَحَدٍ » أى من قريب ولا بعيد ، من الدهش والروعة « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ » أى ساقطكم وجماعتكم الأخرى ، إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى العود والكره عليهم . وأنتم مدبرون وهو ثابت فى مكانه فى نحر العدو فى نفر يسير وثوقاً بوعده الله ومراقبة له .

قال السدى : لما اشتد الشركون على المسلمين بأحد ، فهزمهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها . فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : إلى عباد الله ! إلى عباد الله ! فذكر الله صعودهم إلى الجبل - ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم فقال : إذ تصعدون ... الخ - قال ابن كثير : وكذا قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد .

وفى حديث البراء رضى الله عنه فى مسند الإمام أحمد^(١) أنهم لما انهزموا لم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً . وروى مسلم^(٢) عن أنس أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٢٩٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ضمن

حديث طويل .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ١٠٠ (طبعنا) ونصه : =

الأنصار ورجلين من قريش : « فَأَتَا بَكُمُ » أى جازاكم بهذا الهرب والفرار « غَمًّا بَغْمٍ » أى غمًّا متصلًا بغم ، يعنى غم الهزيمة والكسرة ، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمدًا قتل . وقيل الباء بمعنى مع ، وقيل بمعنى على ، وهما قريبان من الأول . وقيل الباء للمقابلة والعوض ، أى أذاقكم غمًّا بمقابلة غم أذقتموه رسول الله ﷺ وهو عصيانكم أمره . قاله الزجاج . وقال الحسن : يريد غم يوم أحد للمسلمين بغم يوم بدر للمشركين ، وقيل : المعنى غمًّا بعد غم أى غمًّا مضاعفًا . ثم أشار إلى سر ذلك بقوله « لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أى لتتَمَرَّنوا بالصبر على الشدائد ، والثبات فيها ، وتعودوا رؤية الغلبة والظفر والغنيمة ، وجميع الأشياء من الله لا من أنفسكم ، فلا تحزنوا على ما فاتكم من الحظوظ والمنافع . وقوله : « وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » من الغموم والمضار .

قال العلامة ابن القيم في (زاد المعاد) : وقيل جازاكم غمًّا بما غمتم به رسوله بفراركم عنه ، وأسلمتموه إلى عدوه . فالغم الذى حصل لكم جزاءً على الغم الذى أوقعتموه بنبية . والقول الأول أظهر لوجوه :
أحدها :

أن قوله « لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ » تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم ، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر ، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح ، فنسوا بذلك السلب ، وهذا إنما يحصل بالغم الذى يعقبه غم آخر .

= عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش . فلما رهبوه قال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيق فى الجنة ؟ » . فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . ثم رهبوه أيضاً . فقال « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيق فى الجنة ؟ » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل . فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه « ما أنصفنا أصحابنا » .

الثاني :

أنه مطابق للواقع ، فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة ، ثم أعقبه غم الهزيمة ، ثم غم الجراح الذي أصابهم ، ثم غم القتل ثم غم سماعهم أن رسول الله ﷺ قد قتل ، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم . وليس المراد غمين اثنين خاصة ، بل غماً متتابعاً لتام الابتلاء والامتحان .

الثالث :

أن قوله (بغم) من تمام الثواب ، لا أنه سبب جزاء الثواب . والمعنى أننا بكم غماً متصلًا بغم ، جزاء على ما وقع منكم من الهرب ، وإسلامكم نبيه ﷺ وأصحابه ، وترك استجابتكم له وهو يدعوكم ، ومخالفتكم له في لزوم مراكزكم ، وتنسازكم في الأمر وفشلكم . وكل واحد من هذه الأمور يوجب غماً يخصه ، فترادفت عليهم الغموم ، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها . ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمراً آخر . ومن لطفه بهم ، ورأفته ورحمته ، أن هذه الأمور التي صدرت منهم كانت من أمور الطباع ، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة ، فقيض لهم بلطفه أسباباً أخرجهما من القوة إلى الفعل ، فيترتب عليها آثارها المكروهة ، فعلموا حينئذ أن التوبة منها ، والاحتراز من أمثالها ، ودفعها بأضدادها ، أمر متعين لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به ، فكانوا أشد حذراً بعدها ، ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها . وربما صحت الأجسام بالعلل .

لطيفة :

لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير ، ويجوز أيضاً استعماله في الشر ، لأنه مأخوذ من قولهم : ثاب إليه عقله ، أي رجع إليه . قال تعالى : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ^(١) . والمرأة تسمى (ثيباً) لأن الواطئ عائد إليها . وأصل الثواب كل ما يعود إلى (١) [٢ / البقرة / ١٢٥] ونصها : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

الفاعل من جزاء فعله ، سواء كان خيراً أو شراً ، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير . فإن حملنا لفظ الثواب ههنا على أصل اللفظة استقام الكلام ، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل التهكم ، كما يقال : تحيته الضرب وعتابه السيف ، أى جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب على حد : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ ^(١) - قاله الرازى - .

تنبيه :

قال المفضل : (لا) زائدة ، والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم وعلى ما أصابكم عقوبة لكم ، كقوله : أَنْ لَا تَسْجُدَ ^(٢) ، و : لَيْسَ يَعْلَمَ ^(٣) ، أى أن تسجد وليعلم .
وعندى أنه بعيد ، لاسيما مع تكرار (لا) فى المعطوف ، واستقامة المعنى الجيد على اعتبارها ، فالوجه ما سلف .

« وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » خيراً وشرّاً ، قادر على مجازاتكم ، وفيه أعظم زاجر عن
(١) [٣ / آل عمران / ٢١] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٩ / التوبة / ٣٤] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .
و [٨٤ / الانشقاق / ٢٢ - ٢٤] ونصها : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٢] ونصها : قَالَ مَا مَتَّعَكَ إِلَّا لَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ونصها : لَيْسَ يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَتَّقِدُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

الإقدام على المعصية . ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته ، وخفف عنهم ذلك الغم ، وغيبه عنهم بالنعاس الذى أنزله عليهم أمنا منه ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَشْفِى طَائِفَةً مِّنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُوتَيْكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً » أى أمناً . والأمانة (بتحريك الميم) مصدر، يقال : أمن أمناً وأماناً وأمناً وأمانة (محركتين) وفى حديث^(١) نزول عيسى عليه السلام ، إ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة ٤٠٦ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) ونصه : عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « الأنبياء إخوة لعلات . أمهاتهم شتى ودينهم واحد . وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم . لأنه لم يكن بينى وبينه نبى . وإنه نازل . فإذا رأيتموه فاعرفوه . رجلاً مربوعاً إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران . كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل . فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام . فيهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام . ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال . وتقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والتمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم . ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم . فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون .

وتقع الأمانة في الأرض ، أي الأمن . ومثله من المصادر العظيمة والغلبة ، وهو منصوب على المفعولية . وقوله تعالى « نَعَّاسًا » بدل من « أمانة » وقيل : هو المفعول ، و « أمانة » حال أو مفعول له « يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ » وهم المخلصون ، أهل اليقين والثبات والتوكل الصادق ، الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله . والنعاس في حال الحرب دليل على الأمان ، كما قال في سورة الأنفال : إِذْ يُغْشِيكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ . . . (١) الآية . وروى البخاري (٢) في التفسير عن أنس عن أبي طلحة قال : غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، قال : فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه . ورواه الترمذي والنسائي والحاكم . ولفظ الترمذي (٣) : قال أبو طلحة : رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر ، ومامنهم يومئذ أحد إلا يمد تحت حجبته من النعاس . فذلك قوله تعالى : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَّعَّاسًا . وقد ساق الرازي لذلك النعاس فوائد : منها أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدلّ الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم . وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ، ويورثهم مزيد الوثوق بوعده الله تعالى - انتهى - ثم أخبر تعالى أن من لم يصبه ذلك النعاس فهو ممن أهنته نفسه ، لادينه ولا نبيه ولا أصحابه ، بقوله « وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » أي ما بهم إلا هم أنفسهم

(١) [٨ / الأنفال / ١١] ونصها : إِذْ يُغْشِيكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١١ - باب أَمْنَةً نَّعَّاسًا .

(٣) أخرجه الترمذي في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٥ - حدثنا

عبد بن حميد .

وقصد خلاصها ، فلم يَعْشَهُمُ النعاس ، من القلق والجزع والخوف « يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ » أى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه « ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ » كما قال تعالى فى الآية الأخرى : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا^(١) ... الآية - وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الرب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة .

قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : وقد فسر هذا الظن الذى لا يليق بالله بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل . وفسر بأن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ، ولا حكمة له فيه . ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، ويظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى فى سورة الفتح ، حيث يقول : وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(٢) . وإنما كان هذا ظن السوء ، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل ، وظن غير الحق ، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وذاته البراءة من كل سوء . بخلاف ما يليق بحكمته وحمده ، وتفردة بالربوبية والإلهية ، وما يليق بوعد الصادق الذى لا يخلفه ، وكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم ، ولجندهم بأنهم هم الغالبون . فمن ظن به أنه لا ينصر رسله ، ولا يتم أمره ، ولا يؤيده ويؤيد جنده ، ويعليهم ويظهرهم بأعدائه ، ويظهرهم عليهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه يدل

- (١) [٤٨ / الفتح / ١٢] ونصها : بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوِّ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا .
(٢) [٤٨ / الفتح / ٦] .

الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق ، إدالةً مستقرة يضمنحل معها التوحيد والحق اضمحلًا لا يقوم بعده أبدًا - فقد ظن بالله سوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته . فإن عزته وحكمة إلهيته تأبى ذلك ، ويأبى أن يذل حزبه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به ، العادلين به - فن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ، ولا عرف صفاته وكأله . وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرفه ، ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته . وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة ، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فورها ، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب ، وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ، ولا أنشأها عبثًا ، ولا خلقها باطلاً : ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ^(١) . وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ، ظن سوء ، فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم . ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماء وصفاته ، وعرف موجب حمده وحكمته . فن قنط من رحمته ، وأيس من روحه ، فقد ظن به ظن سوء . ومن جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوى بينهم وبين أعدائه ، فقد ظن به ظن سوء . ومن ظن به أن يترك خلقه سدى معطلين من الأمر والنهي ، ولا يرسل إليهم رسله ، ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هملاً كالأنعام ، فقد ظن به ظن سوء . ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ويبين لخلقهم حقيقة ما اختلفوا فيه ، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين ، فقد ظن به ظن سوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنيع له فيه ، ولا اختيار له ، ولا قدرة ولا إرادة في حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن

أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداء الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ، يضلون بها عباده ، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته ، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين ، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين ، وكلا الأمرين في الحسن سواء عنده ، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بنحبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقتضى بقبح أحدهما وحسن الآخر - فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به ، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملفزة ، لم يصرح به ، وصرح دائماً بالتشبيه والتثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهه ، والتأويلات التي هي بالألفاظ والأحاجي ، أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحلهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم ، لا على كتابه ، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغى التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل ، فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان - فقد ظن به ظن السوء . فإنه إن قال إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه ، فقد ظن بقدرته العجز . وإن قال إنه قادر ولم يبين ، وعدل عن البيان ، وعن التصريح بالحق ، إلى ما يؤهم ، بل يقع في الباطل المحال ، والاعتقاد الفاسد - فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء . وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله . وإن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم . وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره والتشبيه والتثيل والضلال ، وظاهر كلام التهوكين الحيارى هو الهدى والحق ، وهذا من أسوأ الظن بالله . فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء . ومن الظانين به غير الحق ، ظن الجاهلية . ومن ظن به أن يكون في

ملكه ما يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه - فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد ، عن أن يفعل ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً - فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن به أنه ليس فوق سماواته على عرشه ، بائناً من خلقه ، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين ، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، ومن قال سبحان رب الأسفل ، كمن قال سبحان رب الأعلى - فقد ظن به أقبح الظن .

ثم قال : وبالجملۃ فن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسله ، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله - فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه ، ويتوسلون بهم إليه ، ويعملونهم وسائط بينهم وبينه ، فيدعونهم ويخافونهم ، ويرجونهم - فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ثم قال : ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرغبة وتضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه ، أنه يجيبه ولا يعطيه مأسأله - فقد ظن به ظن السوء . وظن به خلاف ما هو أهله . ثم قال : ومن ظن به أنه إن عصاه أو أسخطه وأوضع في معاصيه ، ثم اتخذ من دونه ولياً ، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً ، حياً أو ميتاً ، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ، ويخلصه من عذابه - فقد ظن به ظن السوء . وذلك زيادة في بعده من الله ، وفي عذابه . ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً في حياته وفي مماته ، وابتلاء بهم لا يفارقونه ، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيته ، وظلموا أهل بيته ، وسلبوهم حقهم ، وأذلّوهم ، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق ، وهو يرى قهرهم لهم ، وغصبهم إياهم حقهم ، وتبديلهم دين نبيهم ، وهو يقدر على نصر أوليائه ، وحزبه وجنده ، ولا ينصرهم ولا يديلهم ، بل يديل أعداءهم

عليهم أبداً ، أو أنه لا يقدر على ذلك ، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته ، ثم جعل أعداءه الذين بدلوا دينه مضاجعهم في حضرته ، تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت (كما تظنه الرافضة) - فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه ، سواء قالوا إنه قادر على أن ينصرهم ويجعل لهم الدولة والظفر ، أو أنه غير قادر على ذلك ، فهم قادحون في قدرته أو في حكمته وحمده ، وذلك من ظن السوء به . ولا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك ، غير محمود عندهم ، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك ، لكن رَفَوْا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه ، واستجاروا من الرمضاء بالنار ، فقالوا : لم يكن هذا بمشيئة الله ، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه ، فإنه لا يقدر على أفعال عباده ، ولا يدخل تحت قدرته ، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والثنية بربهم . وكل مبطل وكافر ومبتدع ومقهور مستدل ، فهو يظن بربه هذا الظن ، وإنه أولى بالنصر والظفر والعلو من خصومه . فأكثر الخلق ، بل كلهم ، إلا من شاء الله ، يظنون بالله غير الحق وظن السوء . فإن غالب بنى آدم يمتد أنه مبخوس الحق ، ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ، ولسان حاله يقول : ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه ، ونفسي تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ، ولا يتجاسر على التصريح به . ومن قتش نفسه ، وتغلغل في معرفة دفاتنها وطواياها ، رأى ذلك فيها كامناً كهون النار في الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك شرارُهُ عما في زناده ، ولو قتش من قشته ، لرأيت عنده تعباً على القدر ، وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر ، وقتش نفسك هل أنت سالم من ذلك :

فإن تنج منها تنج من ذى عزيمة وإلا فإنى لا إخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح نفسه بهذا الموضع ، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت ، من ظنه بربه ظن السوء . وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ، ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين ،

الغنى الحميد ، الذى له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن كل سوء ، فى ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه . فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك . وأفعاله كذلك ، كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل . وأسماءه كلها حسنى . والمقصود ماساقنا إلى هذا الكلام من قوله تعالى : وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ .

ثم أخبر عن الكلام الذى صدر عن ظنهم الباطل بقوله : « يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ » أى هل لنا من أمر التدبير والرأى من شىء ، استفهام على سبيل الإنكار . أى مالنا أمر يطاع . ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا : لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا^(١) . وذلك أن عبد الله بن أبى لما شاوره النبي ﷺ فى هذه الواقعة ، أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة ، ثم إن الصحابة ألحوا على النبي ﷺ فى أن يخرج إليهم ، كما تقدم : ولما رجع عبد الله بن أبى بمن معه ، وأخبر بكثرة القتلى من بنى الخزرج ، قال : هل لنا من الأمر شىء ؟ يعنى أن محمدًا ﷺ لم يقبل قولى حين أمرته بأن يبق فى المدينة ولا يخرج منها « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » أى التدبير كله لله ، فإنه تعالى قد دبر الأمر كما جرى فى سابق قضائه فلا مرد له .

قال الإمام ابن القيم قدس الله روحه : ليس مقصودهم بقولهم : هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ . وقولهم : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا . إثبات القدر ، ورد الأمر كله إلى الله . ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لما ذموا عليه ، ولما حسن الرد عليهم بقوله : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية . ولهذا قال غير واحد من المفسرين : إن ظنهم الباطل ههنا هو التكذيب بالقدر ، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم ، ويسمعون منهم ، لما أصابهم القتل ، ويكون النصر والظفر

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٨] ونصها : الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

لهم . فأ كذبهم الله عز وجل في هذا الظن الباطل ، الذى هو ظن الجاهلية ، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل ، الذين يزعمون ، بعد نفاذ القضاء والقدر الذى لم يكن بد من نفاذه ، أنهم كانوا قادرين على دفعه ، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء ، فأ كذبهم الله بقوله : **قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** . فلا يكون إلا ما سبق قضاؤه وقدره ، وجرى به علمه وكتابه السابق ، وما شاء الله كان ولا بد ، شاء الناس أم أبوا . وما لم يشأ لم يكن ، شاء الناس أم لم يشأوه . وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل ، فبأمره الكونى الذى لا سبيل إلى دفعه ، سواء كان لكم من الأمر شيء أو لم يكن ، وأنكم لو كنتم فى بيوتكم ، وقد كتب القتل على بعضكم ، لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بد . سواء أن يكون لهم من الأمر شيء أو لم يكن . وهذا من أظهر الأشياء إبطالا لقول القدرية النفاة ، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشأه الله ، وأن يشاء ما لا يقع - انتهى - **« يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ »** أى يضمرون فيها ، أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية **« مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ »** لكونه لا يرضاه الله تعالى . ثم بين ذلك بعد إجماله فقال **« يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ »** أى المسموع **« شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا »** أى ما غلبنا ، أو ما قتل من قتل منا ، لأننا كنا نمكث فى المدينة ولا نخرج إلى العدو . ولما أخبر تعالى بما أخفوه جهلا منهم ، ظنا أن الحذر يغنى عن القدر ، أمره تعالى بالرد عليهم بقوله **« قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ »** أى أجمع رأيكم على أن لا تبرحوا من منازلكم أنتم والمقتولون **« لَبَرَزَ »** أى خرج **« الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ »** فى اللوح المحفوظ **« إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ »** أى التى قدر الله قتلهم فيها ، ولم يثبتوا فى ديارهم ، لأنه يوقع فى قلوبهم الخروج إمضاء لقدره وحكمه المحتوم الذى لا يقع خلافه ولا يرد ، لقوله : **« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنْ دَلَّكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »** (١) . وفيه مبالغة فى رد مقالهم الباطلة ، حيث لم يقتصر على تحقيق

نفس القتل ، بل عين مكانه أيضاً . وفي التعبير بـ (مضاجعهم) من إجلالهم وتكريمهم ما لا يخفى على صاحب الذوق السليم . « وَلَيَبْتَغِيَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ » أى ليعاملكم معاملة المتجن ، ليستخرج ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ، ليجعله حجة عليكم ، فالؤمن لا يزداد بذلك إلا إيماناً وتسليماً ، والمنافق ومن فى قلبه مرض لا بد أن يظهر ما فى قلبه على جوارحه ولسانه ؛ وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية ، للإيدان بكثرتها . كأنه قيل : فعل ما فعل لمصالح حجة وليبتلى ... الخ ، أو لفعل مقدر بعدها ، أى : وللابتلاء المذكور فعل ما فعل ، لا لعدم العناية بأمر المؤمنين . وجعلها عللاً لـ « برز » يأباه الذوق السليم . فإن مقتضى المقام بيان حكمة ما وقع يومئذ من الشدة والهول ، لا بيان حكمة البروز المفروض - أفاده أبو السعود - ثم ذكر تعالى حكمة أخرى بقوله « وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أى يخلصه وينقيه ويهذبه ، فإن القلوب يخاطبها بغلبة الطوائع ، وميل النفوس ، وحكم العادة ، وتزيين الشيطان ، واستيلاء الغفلة - ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى . فلو تركت فى عافية دأمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ، ولم تتمحص منه . فاقترضت حكمة العزيز الرحيم أن يقضى لها من الحن والبلاء ، ما يكون كاللدواء الكريه لمن عرض له داء . إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده ، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك . فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة ، وقتل من قتل منهم ، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأيدهم وظفرهم بعدوهم . فله عليهم النعمة التامة فى هذا وهذا - أفاده ابن القيم .

وقال القاشانى : البلاء سوط من سياط الله ، يسوق به عباده إليهم بتصفيتهم عن صفات نفوسهم ، وإظهار ما فيهم من الكمالات ، وانقطاعهم من الخلق إلى الحق . ولهذا كان متوكِّلاً بالأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . وقال رسول الله ﷺ بياناً لفضله : ما أودى نبي مثل ما أوديت . كأنه قال : ما صفى نبي مثل ما صفيت . ولقد أحسن من قال :

لله در النائبات فإنها صدأ اللثام وصيقل الأحرار
إذ لا يظهر على كل منهم إلا ما في مكمن استعداده .
« وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى الضمائر الملازمة لها ، وعد ووعد . ثم أخبر تعالى
عن تولى من تولى من المؤمنين الصادقين فى ذلك اليوم ، وأنه بسبب كسبهم بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)
« إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ » أى عن القتال ومقارعة الأبطال « يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ »
أى جمع المسلمين وجمع المشركين « إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ » أى حملهم على الزلل بمكر منه .
مع وعد الله بالنصر « بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » أى بشؤم بعض ما اكتسبوه بهم من الذنوب ،
كترك المركز ، والميل إلى الغنيمة ، مع النهى عنه ، فمنعوا التأييد وقوة القلب . قال ابن
القيم : كانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوة . فإن الأعمال جند للعبد ، وجند عليه .
ولا بد للعبد فى كل وقت من سرية من نفسه تهزمه أو تنصره . فهو يمد عدوه بأعماله من
حيث يظن أنه يقاتل بها ، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه .
فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر . والعبد لا يشعر ، أو يشعر ويتعامى .
ففرار الإنسان من عدوه ، وهو يطيقه ، إنما هو بجند من عمله ، بعثه له الشيطان واستزله
به . ثم أخبر سبحانه أنه عفا عنهم بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » أى بالاعتذار والندم
لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ، ولا شك أنه كان عارضاً عفا الله عنه ، فمادت شجاعة
الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » أى يغفر الذنب ويحلم عن
خلقه ، ويتجاوز عنهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا» وهم المنافقون القائلون : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا. «وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ» أى سافروا فيها للتجارة فأصيبوا بغرق أو قتل «أَوْ كَانُوا» أى إخوانهم «غُزًى» جمع غاز فأصيبوا باصطدام أو قتل «لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا» أى مقيمين «مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا» قال أبو السعود : ليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق بهذا القول ، بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه .

أقول: بل الآية تفيد الأمرين. أعنى حفظ الاعتقاد المقصود أولاً وبالذات، وحفظ المنطق مما يوقع فى إضلال الناس، ويخل بالمقام الإلهى ، كما بينته السنة ، وسند كره فى التنبيه الآتى . وقوله «لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ» أى القول «حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ» متعلق بـ (قالوا) على أن اللام لام العاقبة ، مثلها فى ^(١) (لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِزْيَانٌ) أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم . والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما ، على ذلك أصلاً «وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ» رد لقولهم الباطل، إثر بيان غائلته . أى هو المؤثر فى الحياة والمات وحده ، من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل فى ذلك ، فإنه تعالى قد يحى المسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الخوف ، ويميت المقيم مع حيازته لأسباب السلامة . وعن خالد ابن الوليد رضى الله عنه أنه قال عند موته : ما فى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وهأنذا أموت كما يموت العير . فلا نامت أعين الجبناء! «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» تهديد للمؤمنين فى مماثلة من ذكر .

(١) [٢٨ / القصص / ٨] .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية أنه لا يجوز التشبه بالكفار . قال الحاكم : وقد يكون منه ما يكون كفراً . وفيها أيضاً دلالة على أنه لا يسقط وجوب الجهاد بخشية القتل .

تنبيه :

أشعرت الآية بوجوب حفظ المنطق مما يشاكل ألفاظ الشركين من الكلمات المنافية للعقيدة الإسلامية كما ذكرنا . وقد عقد الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) فصلاً في هديه ﷺ في حفظ النطق واختيار الألفاظ قال :

كان ﷺ يتخير في خطابه ، ويختار لأمره أحسن ألفاظ وأجملها وألطفها ، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش . إلى أن قال : ومن ذلك نهيه ﷺ^(١) عن قول القائل بعد فوات الأمر : لو أني فعلت كذا وكذا . وقال : إنها تفتح عمل الشيطان . وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة ، وهو أن يقول : قدر الله ، وما شاء فعل . وذلك لأن قوله : لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتني ما فاتني أو لم أقع فيما وقعت فيه ، كلام لا يجدي عليه فائدة البتة . فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره ، وغير مستقيل عثرته ب (لو) . وفي ضمن (لو) ادعاء أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه ، لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاء ، فإن ما وقع مما يمتنى خلافه ، إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشئته . فإذا قال : لو أني فعلت كذا لكان خلاف ما وقع ، فهو محال ، إذ خلاف المقدّر المقضي محال . فقد تضمن كلامه كذباً وجهلاً ومحالاً . وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله : لو أني فعلت لدفعت

(١) أخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث ٣٤ (طبعنا) ونصه :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفي كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله . ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل . فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » .

ماقدر علىّ. فإن قيل : ليس في هذا رد للقدر ولا جحد له ، إذ تلك الأسباب التي تمنّاها أيضاً من القدر ، فهو يقول : لو وقعت لهذا القدر لاندفع به عنى ذلك القدر ، فإن القدر يدفع بعضه ببعض ، كما يدفع قدر المرض بالدواء ، وقدر الذنوب بالتوبة ، وقدر العدو بالجهاد ، فكلاهما من القدر. قيل : هذا حق ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه . وأما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه ، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله : لو كنت فعلته ، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف ، ولا يتمنى مالا مطمع في وقوعه ، فإنه عجز محض ، والله يلوم على العجز ، ويحب الكيس ويأمر به . والكيس هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده ، فهذه تفتح عمل الخير والأمر ، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان . فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأمانى الباطلة بقوله : لو كان كذا وكذا ، ولو فعلت كذا ، يفتح عمل الشيطان ، فإن بابه العجز والكسل . ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما . وهو مفتاح كل شر ، ويصدر عنهما الهم والحزن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال . فمصدرها كلها عن العجز والكسل ، وعنوانها (لو) ، فلذلك قال النبي ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم : فإن (لو) تفتح عمل الشيطان ، فالتمنى من أعجز الناس وأفلسهم ، فإن المني رأس أموال المفاليس ، والعجز مفتاح كل شر ، وأصل المعاصي كلها العجز ، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات ، وعن الأسباب التي تعرضه عن المعاصي ، ويحول بينها وبينه ، فيقع في المعاصي . فجمع في هذا الحديث الشريف ، في استعاذته ﷺ أصول الشر وفروعه ومبادئه وغاياته وموارده ومصادره وهو مشتمل على ثمان خصال ، كل خصلتين منها قرينتان فقال : أعوذ بك من الهم والحزن ، وهما قرينان . فإن المكروه الوارد على القلب ينقسم باعتبار سببه إلى قسمين : فإنه إما أن يكون سببه أمراً ماضياً ، فهو يحدث الحزن ، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل ، فهو يحدث الهم ، وكلاهما من العجز . فإن ماضى لا يدفع بالحزن ، بل بالرضاء والحمد والصبر والإيمان بالقدر ، وقول العبد :

قدر الله وما شاء فعل . وما يستقبل لا يدفع أيضاً بالهم . بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه ، وإما أن لا تكون له حيلة في دفعه ، فلا يجزع منه ، ولبس له لباسه ، ويأخذ له عدته ، ويتأهب له أهبطه اللاتمة ، ويستجن بجنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى ، والاستسلام له ، والرضا به رباً في كل شيء ، ولا يرضى به رباً فيما يحبّ دون ما يكره . فإذا كان هكذا لم يرض به رباً على الإطلاق ، فلا يرضاه الرب له عبداً على الإطلاق . فالهم والحزن لا ينفعان العبد ألبتة ، بل مضرتهما أكثر من منفعتهما ، فإنهما يضعفان العزم ، ويوهنان القلب ، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه ، ويقطعان عليه طريق السير ، أو ينكسانه إلى وراء أو يعوقانه ويقفانه أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه ، وجدّ في سيره ، فهما حمل ثقيل على ظهو السائر ، بل إن عاقبه الهم والحزن عن شهواته وإرادته التي تضره في معاشه ومعاده ، انتفع به من هذا الوجه ، وهذا من حكمة العزيز الحكيم ، أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه ، الفارغة من محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والأنس به ، والفرار إليه ، والانقطاع إليه ، ليردها بما يبتليها به من الهموم والغموم والأحزان ، والآلام القلبية ، عن كثير من معاصيها وشهواتها المردية . وهذه القلوب في سجن من الجحيم في هذه الدار . وإن أريد بها الخير ، كان حظها من سجن الجحيم في معادها ، ولا تزال في هذا السجن ، حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله ، والأنس به ، وجعل محبته في محل ديب خواطر القلب ووساوسه ، بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره ، هو المستولى على القلب الغالب عليه ، الذي متى فقدته ، فقد قوّته ، الذي لا قوام له إلا به ، ولا بقاء له بدونه ، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه ، وأفسدها له ، إلا بذلك ، ولا بلاغ إلا بالله وحده ، فإنه لا يوصل إليه إلا هو ، ولا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يصرف السيئات إلا هو ، ولا يدل عليه إلا هو ، وإذا أراد عبده لأمر هياً له ،

فنه الإيجاد ومنه الإعداد ومنه الإمداد . وإذا أقامه في مقام ، أى مقام كان ، فبحمده أقامه فيه ، وحكمته أقامته فيه ، ولا يليق به غيره ، ولا يصلح له سواء ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا يمنع عبده حقاً هو للعبد ، فيكون بمنعه ظالماً ، بل منعه ليتوسل إليه بحجابه ليعطيه ، وليتضرع إليه ويتذلل بين يديه ، ويتملقه ويعطى فقره إليه حقه . بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه ، على تعاقب الأنفاس . وهذا هو الواقع في نفس الأمر وإن لم يشهده . فلم يمنع عبده ما العبد محتاج إليه ، بخلاً منه ولا نقصان من خزائنه ولا استثنائاً عليه بما هو حق للعبد . بل منعه ليرده إليه وليعزّه بالتذلل له ، وليغنيه بالافتقار إليه ، وليجبره بالانكسار بين يديه ، وليذيقه بمرارة المنع ، حلاوة الخضوع ولذة الفقر . وليلبسه خلعة العبودية ، ويوليه بعزله أشرف الولايات ، وليشده حكمته في قدرته ، ورحمته في عزته ، وبره ولطفه في قهره . وأن منعه عطاء وعزله تولية وعقوبته تأديب وامتحانه محبة وعطية وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه إليه . وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه . وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذى لا يليق به سواء ولا يحسن أن يتخطاه ، انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن الموت في سبيل الله ليس مما يوجب الحسرة حتى يحذر منه . بل هو مما يوجب الفرح والسرور ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

« وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ » أى فيه من غير قتال « لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ »

أى لذنوبكم تنالكم « وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » أى الكفرة من منافع الدنيا وطيبتها الفانية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ)

« وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ » على أى وجه كان حسب القضاء السابق « لَإِلَى اللَّهِ » أى الذى هو متوفيكم لا غيره « تَحْشَرُونَ » فيجزىكم بأعمالكم .

لطائف :

الأولى : أطال نحاة المفسرين فى قوله تعالى « وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا » الخ . من الوجوه النحوية فى (إذا) هنا ، وإنه ربما يتبادر أن الموقع ل (إذ) لالهـا حيث إن متعلقها وهو (قالوا) ماض . و(إذا) ظرف لما يستقبل . فن قائل بأن (إذا) لحكاية الحال الماضية ، ومن قائل بأنها للاستمرار . وقيل : إن (كفروا) و (قالوا) مراد بهما المستقبل . وفى كل مناقشات وتعسفات . والحق أنها تكون للمضى أيضا . قال المجد الفيروزبادى : وتجيء (إذا) للماضى كقوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْمًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا . فلا إشكال . ونقل الرازى عن قطرب : أن كلمة (إذ) و (إذا) يجوز إقامة كل واحدة منهما مقام الأخرى . قال الرازى : وهذا الذى قاله قطرب كلام حسن ، وذلك لأننا إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول منقول عن قائل مجهول ، فلأن يجوز إثباتها بالقرآن العظيم أولى . ثم قال : وكثيرا أرى النحويين يتحيزون فى تقرير الألفاظ الواردة فى القرآن ، فإذا استشهدوا فى تقريره ببيت مجهول فرحوا به . وأنا شديد التعجب منهم . فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وقفه دليلا على صحته ، فلأن يجعلوا ورود القرآن به دليلا على صحته كان أولى ، انتهى .

الثانية : المجهول على ضم الميم فى قوله تعالى : أَوْ مُتُّمْ . وهو الأصل لأن الفعل منه يموت . ويقرأ بالكسر وهو لغة طائية . يقال مات يمات مثل خاف يخاف فكما تقول خفت تقول ميت .

الثالثة : قدم القتل على الموت فى الأولى لأنه أكثر ثوابا وأعظم عند الله . فترتب المغفرة والرحمة عليه أقوى . وقدم الموت فى الثانية لأنه أكثر . وهما مستويان فى الحشر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ » أى للذين تولوا عنك حين عادوا إليك بعد الانهزام، وللمؤمنين عموماً كما قال تعالى : بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ^(١) . و (ما) مزيدة للتوكيد أو نكرة . و (رحمة) بدل منها مبيّن لإيهامها . والتنوين للتفخيم ، أى ما لنت هذا اللين الخارق للعادة ، مع ما سبّب فعلهم من الغضب الموجب للعنف والسطوة ، سيما مع اعتراض من اعترض على ما أشار به ، إلا بسبب رحمة عظيمة « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا » أى سيء الخلق خشن الكلام « غَلِيظَ الْقَلْبِ » أى قاسيه وشديده . تعاملهم بالعنف والجفا « لَا نَفْضُوا » أى تفرقوا « مِنْ حَوْلِكَ » فلم يسكنوا إليك فلا تتم دعوتك . ولكن الله جعلك سهلاً سمحاً طلقاً ليناً لطيفاً بارئاً رءوفاً رحيماً . « فَاعْفُ عَنْهُمْ » أى فيما فرطوا في حقك كما عفا الله عنهم « وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ » إتماماً للشفقة عليهم « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » أى أمر الحرب وغيره تودداً إليهم وتطيّباً لنفوسهم واستظهاراً بآرائهم وتمهيداً لسنة المشاورة في الأمة . وقد ساق العلامة الرازى وجوهاً أخرى في فائدة أمره تعالى له عليه الصلاة والسلام بمشاورتهم . منها : أنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن كان أكل الناس عقلاً ، إلا أن علوم الخلق متناهية . فلا يبعد أن يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر بباله . لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا . فإنه ﷺ قال^(٢) : أنتم أعرف

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] ونصها : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ .

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ١٦ - كتاب الرهون ، ١٥ - باب تلقيح النخل ، حديث

==

٢٤٧٠ (طبعتنا) ونصه :

بأمور دنياكم. ومنها : أن الأمر بمشاورتهم لا لأجل أنه ﷺ محتاج إليهم ، ولكن لأجل أنه إذا شاورهم في الأمر اجتهد كل واحد منهم في استخراج الوجه الأصح في تلك الواقعة فتصير الأرواح متطابقة متوافقة على تحصيل أصح الوجوه فيها ، وتطابق الأرواح الطاهرة على الشيء الواحد مما يعين على حصوله . وهذا هو السر عند الاجتماع في الصلوات ، وهو السر في أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المنفرد . انتهى .

وقد ثبت مشاورته ﷺ لأصحابه في عدة أمور: منها أنه شاورهم في يوم بدر^(١) في الذهاب

= عن طلحة بن عبيد الله قال : مررت مع رسول الله ﷺ في نخل . فرأى قوماً يلحقون النخل . فقال « ما يصنع هؤلاء ؟ » قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى . قال « ما أظن ذلك يغني شيئاً » فبلغهم فتركوه . فنزلوا عنها . فبلغ النبي ﷺ فقال « إنما هو الظن إن كان يغني شيئاً فاصنعوه . فإنما أنا بشر . وإن الظن يخطئ ويصيب . ولكن ما قلت لكم : قال الله - فلي أ كذب على الله » .

وحدیث ٢٤٧١ (طبعتنا) ونصه :

عن عائشة أن النبي ﷺ سمع أصواتاً ، فقال « ما هذا الصوت ؟ » قالوا : النخل يؤبرونها . فقال « لو لم يفعلوا لصلح » فلم يؤبروا عامئذ ، فصار شيصاً . فذكروا للنبي ﷺ فقال « إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشانكم به . وإن كان من أمور دينكم ، فإلى » .

(١) أخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث ٨٣ (طبعتنا) ونصه :

عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور ، حين بلغه إقبال أبي سفيان . قال فتكلم أبو بكر فأعرض عنه . ثم تكلم عمر فأعرض عنه . فقام سعد بن عباد فقال : إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذي نفس بيده ! لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا . فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرأ ووردت عليهم روايا قريش ... الخ .

إلى العير . فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغنادر لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى ^(١) : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكن نقول : اذهب ففحن معك وبين يديك ، وعن يمينك وشمالك مقاتلون . وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم ، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو . فأشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج إليهم . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ . فأبى ذلك عليه السعدان : سعد بن معاذ وسعد بن عباد فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين فقال له الصديق : إنا لم نجى لقتال أحد ، وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال .

وقال ﷺ في قصة الإفك ^(٢) : أشيروا عليّ ، معشر المسلمين ، في قوم أبناو أهلي

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٤٣٤ (طبعة جونتجن ، بألمانيا) وصفحة ٢٦٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

والبخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٤ - باب قول الله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ ... الآية ونصه :

عن ابن مسعود قال : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً ، لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به . أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين . فقال : لا نقول كما قال قوم موسى . اذهب أنت وربك فقاتلا . ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلقك . فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرّه . يعني قوله .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٣٤ - باب حديث الإفك .

وهو حديث جليل القدر . وفيه نزلة براءة سيدتنا أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها من السماء . وسنسرده بطوله في تفسير سورة النور ، إن شاء الله تعالى .

ورمواهم . وإيم الله ما علمت على أهلى من سوء . وأبنوهم بمن ، والله ، ما علمت عليه إلا خيرا . واستشار عليا وأسامة فى فراق عائشة رضى الله عنها . فكان ﷺ يشاورهم فى الحروب ونحوها . أفاده الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى .

قال الخفاجى : فى الآية إرشاد إلى الاجتهاد وجوازه بحضرة ﷺ . وقال الرازى : دلت على أنه ﷺ كان مأمورا بالاجتهاد إذا لم ينزل عليه الوحي . والاجتهاد يتقوى بالمناظرة والمباحثة ، فلهذا كان مأمورا بالمشاورة ، انتهى .

وقال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب التمسك بمكارم الأخلاق وخصوصا لمن يدعو إلى الله تعالى ويأمر بالمعروف . « فَإِذَا عَزَمْتَ » أى بعد المشاورة على أمر واطمأنت به نفسك « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » فى الإعانة على إمضاء ما عزمته ، لا على المشورة وأصحابها . قال الرازى : دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه ، كما يقول بعض الجهال . وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل ، بل التوكل هو أن راعى الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحق « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] (إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

« إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ » كما نصركم يوم بدر « فَلَا غَالِبَ لَكُمْ » وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ « كما فعل يوم أُحُد » فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ « استفهام إنكارى مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة . وهذا تنبيه على أن الأمر كله لله ، وترغيب فى الطاعة ، وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد . وتحذير من المعصية ، ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان . كذا فى الكشف . « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أى وليخص

المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه ، لعلمهم أنه لا ناصر سواه ، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه - كذا في الكشف - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦١] (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلَّ » قرئ بالبناء للمعلوم ، أى ماصح وما تأتى لنبي من الأنبياء أن يخون في المنعم ، بعد مقام النبوة وعصمة الأنبياء عن جميع الرذائل ، وعن تأثير دواعي النفس والشيطان فيهم ؛ وبالبناء للمجهول ، أى ما صح أن ينسب إلى الغلول ويخون .

روى أبو داود والترمذى^(١) عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ما كان لنبي أن يغل ، في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر ، فقال بعض الناس : لعل رسول الله أخذها ، فأنزل الله « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية . قال الترمذى : حسن غريب . ورواه ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً ، ولفظه : اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشيء فُقد ، فأنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... » الآية - وهذا تنزيه لقامه ﷺ الرفيع وتنبيه على عصمته . ثم أشار إلى وعيد الغلول بقوله « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى بعينه ، حاملاً له على ظهره ، ليفتضح في المحشر ، كما روى الشيخان^(٢) عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال : لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبغثت -

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٧ -

حدثنا قتيبة .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٢٤ (طبعنا) .

لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حممة فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكم - لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثناء يقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكم - لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكم - لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تحفق فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكم - لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت - لفظ مسلم . وروى البخاري^(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان على ثقل رسول الله ﷺ رجل يقال له (كركرة) فمات ، فقال رسول الله ﷺ : هو في النار ، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها - وعن زيد بن خالد الجهني أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صلوا على صاحبكم ، فتغيرت وجوه الناس لذلك ، فقال : إن صاحبكم غلّ في سبيل الله ، ففتشنا متاعه ، فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين - أخرجه أبو داود^(٢) والنسائي - وروى عبد الله بن الإمام أحمد^(٣) عن عباد بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الوبرة من جنب البعير من الغنم فيقول : مالى فيه إلا مثل ما لأحدكم منه . إياكم والغلول ، فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمحيط وما فوق ذلك . وجهدوا في سبيل الله القريب والبعيد في الحضر والسفر . فإن الجهاد باب من أبواب الجنة . إنه لينجى الله تبارك وتعالى به من الهم والغم . وأقيموا حدود الله في

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٩٠ - باب القليل من الغلول .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٣٣ - باب في تعظيم الغلول ،

حديث ٢٧١٠ .

(٣) أخرجه في السند بالصفحة ٣٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

القريب والبعيد ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم . وروى ابن ماجة بعضه . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر ، أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا : فلان شهيد . فلان شهيد . حتى أتوا على رجل فقالوا : فلان شهيد . فقال رسول الله ﷺ : كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة . ثم قال رسول الله ﷺ : يا ابن الخطاب ! اذهب فنناد في الناس إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون قال فخرجت فناديت : ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . وكذا رواه مسلم ^(١) والترمذي . وروى أبو داود ^(٢) عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا غم غنيمه أمر بلالاً فينادي في الناس فيجوزوا بغنائمهم فيخمسه ويقسمه ، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمه . فقال : أسمعت بلالاً ينادي ثلاثاً ؟ قال : نعم . قال : فما منعك أن تجيء ؟ فاعتذر . فقال : كن أنت تجيء به يوم القيامة . فلن أقبله منك .

تنبيه :

من المفسرين من جعل الإتيان بالغلول يوم القيامة مجازاً عن الإتيان بإثمه تعبيراً بما غلّ عما لزمه من الإثم مجازاً . قال أبو مسلم : المراد أن الله تعالى يحفظ عليه هذا الغلول ويعززه عليه يوم القيامة ويجازيه لأنه لا يخفى عليه خافية . وقال أبو القاسم الكعبي : المراد أنه يشتهر بذلك ، مثل اشتها من يحمل ذلك الشيء . وناقشهما الرازي بأن هذا التأويل يحتمل ، إلا أن الأصل المعتبر في علم القرآن أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة ، إلا إذا قام دليل يمنع منه ، وههنا لا مانع من الظاهر ، فوجب إثباته - انتهى . ومما يؤيده قوله ﷺ « له رغاء ، له حممة ... » الخ الظاهر في الحقيقة زيادة في النكال .

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٨٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٣٤ - باب

في الغلول إذا كان يسيراً يتركه الإمام ولا يحرق رحله ، حديث ٢٧١٢ ، بهذا النص .

وأخرجه في المسند أيضاً عن عبد الله بن عمرو ، حديث ٦٩٩٦ (طبعة المعارف) .

« ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ » تعطى جزاء ما كسبت وافيًا ، وإنما عمم الحكم ولم يقل : ثم يوفى ما كسب ، ليكون كالبرهان على المقصود ، والمبالغة فيه ، فإنه إذا كان كل كاسب مجزيًا بعمله ، فالغالب ، مع عظم جرمه بذلك أولى « وَهُمْ » أى الناس المدلول عليهم بكل نفس « لَا يُظْلَمُونَ » فلا ينقص ثواب مطيعهم ، ولا يزداد في عقاب عاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ » بالطاعة « كَمَنْ بَاءَ » رجع « بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ » بسبب المعاصى كالغالب ومن شاكلة « وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ » أى طبقات متفاوتة ، تشبيه بليغ ، ووجه ما بينهم من تباين الأحوال فى الثواب والعقاب ، كالدرجات فى تفاوتها علوًا وسفلاً .

قال القاشانى : أى كل من أهل الرضا وأهل السخط ذوو درجات متفاوتات ، أو هم مختلفون اختلاف الدرجات .

« وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ » أى بأعمالهم ، فيجازيهم على حسبها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ » أى أنعم « عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى من جنسهم ، عربياً مثلهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته ، والانتفاع به . ولما لم ينتفع بهذا الإنعام إلا أهل الإسلام خُصوا بالذكر ، وإلا فبعثته صلى الله عليه وسلم إحسان إلى العالمين ، كما قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ^(١) . « يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ » يعنى القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية ، لم يطرق أسماعهم شئ من الوحي « وَيُزَكِّيهِمْ » أى يطهرهم من الذنوب والشرك بدعوته « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ » أى القرآن « وَالْحِكْمَةَ » أى السنة « وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ » أى من قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وتزكيتهم « لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى ظاهر من عبادة الأوثان ، وأكل الخبائث ، وعدوان بعضهم على بعض ، وسواها ، فقتلوا ببعثته ﷺ من الظلمات إلى النور ، وصاروا أفضل الأمم في العلم والزهد والعبادة ، فعظمت المنّة لله تعالى عليهم بذلك . قال الرازى : وفى قوله تعالى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وجه آخر من المنّة ، وذلك لأنه صار شرفاً للعرب ، ونخراً لهم ، كما قال سبحانه : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ^(٢) . وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركاً فيه بين اليهود والنصارى والعرب ، ثم إن الأولين كانوا يفتخرون بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل . فساكن للعرب ما يقابل ذلك . فلما بعث الله محمداً ، وأنزل عليه القرآن ، صار شرف العرب بذلك زائداً على شرف جميع الأمم اه .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٤٤] .

ثم كرر عليهم سبحانه أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم وبسبب أعمالهم فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

«أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا» الهمزة للتقريع والتقريع ، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أخذ ، أو على محذوف مثل : أفعلتم كذا وقلم . و « لما » ظرفه المضاف إلى أصابتكم ، أى حين أصابتكم مصيبة ، وهى قتل سبعين منكم يوم أُحُد ، والحال أنكم نلتهم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين : من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر « قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ » أى مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز ، فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والطاوعة . قال ابن القيم : وذكر سبحانه هذا يعينه فيما هو أعم من ذلك فى السورة المكية فقال : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ^(١) . وقال : وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ^(٢) فالحسنة والسيئة ههنا النعمة والمصيبة ، فالنعمة من الله من بها عليك ، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك ، فالأول فضله ، والثانى عدله ، والعبد يتقلب بين فضله وعدله ، جارٍ عليه فضله ، ماضٍ فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه . وختم الآية الأولى بقوله « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » بعد قوله : قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ . إعلالاً لهم بعموم قدرته مع عدله ، وأنه عادل قادر ، وفى ذلك إثبات القدر والسبب . فذكر السبب وأضافه إلى نفوسهم ، وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه ، فالأول

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] . . . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

ينفي الجبر ، والثاني ينفي القول بإبطال القدر ، فهو شا كل قوله : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(١) وفي ذكر قدرته ههنا نسكتة لطيفة ، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته ، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم ، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره ، ولا تتكلموا على سواء . وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَيِّ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنِ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ)

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَيِّ الْجَمْعَانِ « جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد » فَيَاذَنِ اللَّهُ « أى فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار ، فلا إذن هنا هو الإذن الكونى القدرى ، لا الشرعى الدينى » ، كقوله فى السحر : وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ^(٢) . ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير بقوله : وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) [٨١ / التكوير / ٢٨ و ٢٩] .

(٢) [٢ / البقرة / ١٠٢] ونصها : وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)

« وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا » أى ليعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحداً الفريقين من الآخر تميزاً ظاهراً « وَقِيلَ لَهُمْ » عطف على (نافقوا) داخل معه في حيز الصلة. أو كلام مبتدأ « تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا » يعنى إن لم تقاتلوا لوجه الله تعالى فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأموالكم « قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ » أى لكنه ليس إلا إلقاء النفس في التهلكة « هُمْ » أى بهذا القول « لِلْكَفْرِ » في الظاهر « يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ » في الظاهر مع أنه لا إيمان لهم في الباطن أصلاً .

فائدتان :

الأولى - قال ابن كثير : استدلوا به على أن الشخص قد تنقلب به الأحوال ، فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان .

الثانية - قال الواحدى : هذه الآية دليل على أن من أتى بكلمة التوحيد لم يكفر، ولم يطلق القول بتكفيره . لأنه تعالى لم يطلق القول بكفرهم ، مع أنهم كانوا كافرين ، لإظهارهم القول بلا إله إلا الله محمد رسول الله - انتهى .

« يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » أى يظهرون خلاف ما يضمرون ، لا تواطىء قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ، وقوله « بِأَفْوَهِهِمْ » تأكيد على حد : وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ^(٢) . « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » .

(١) [٦ / الأنعام / ٣٨] ونصها : وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ » أى من أجل أقاربهم من قتلى أحد « وَقَعَدُوا » أى والحال قد قعدوا عنهم خذلاناً لهم « لَوْ أَطَاعُونَا » أى فى الرجوع « مَا قُتِلُوا » كما لم تقتل « قُلْ » كأنكم تزعمون ادعاء القدرة على دفع الموت « فَادْرَءُوا » أى ادفءوا « عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ » أى فإنها أقرب إليكم من أنفسهم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أن الموت يغنى منه حذر ، والمعنى أن عدم قتلهم كان بسبب أنه لم يكن مكتوباً عليكم ، لا بسبب أنكم دفعتموه بالعود ، مع كتابته عليكم ، فإن ذلك مما لا سبيل إليه .

قال ابن القيم : وكان من الحكمة تقديره تعالى فى هذه الواقعة تكلم المنافقين بما فى نفوسهم ، فسمعه المؤمنون ، وسمعوا رد الله عليهم ، وجوابه لهم ، وعرفوا موادّ النفاق ، وما يؤول إليه ، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة ، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة . فله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغة ، ونعمة على المؤمنين سابغة ، وكم فيها من تحذير وتحذير ، وإرشاد وتنبيه ، وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا » كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ويحذرون الناس منه ، ليس مما يحذر ، بل هو من أجل المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون ، إثر بيان أن الحذر لا يجدى ولا يغنى ، أى لا تحسبنهم أَمْوَاتًا تعطلت أرواحهم « بَلْ » هم « أَحْيَاءٌ » فوق أحياء الدنيا لأنهم مقربون « عِنْدَ رَبِّهِمْ »

إذ بذلوا له أرواحهم ، لا بمعنى بقاء أرواحهم ورجوعها إليه ، لمشاركة أرواح غيرهم في ذلك ، بل بمعنى أنهم « يُرْزَقُونَ » رزق الأحياء ، لا رزقاً معنوياً ، بل حقيقياً . كما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ^(١) : لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش . فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن منقلبهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهّدوا في الجهاد ، ولا ينكسروا عن الحرب . فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ... » الخ . هكذا رواه الإمام أحمد ؛ ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه . وأخرج مسلم ^(٢) عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ... » الخ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم أطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب ! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

وروى الإمام أحمد ^(٣) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشهداء على بارق - نهر بباب الجنة - فيه قبة خضراء ، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية - تفرد به أحمد - ورواه ابن جريج بإسناد جيد .

قال ابن كثير : وكان الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ، ومنهم

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٢١ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

من يكون على هذا النهر بباب الجنة . وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغدى عليهم برزقهم هناك وراح - والله أعلم - ثم قال : وقد روينا في مسند الإمام أحمد^(١) حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه . قوله : يعلق أى يأكل . وفي هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة ، وأما أرواح الشهداء ، فكما تقدم ، في حواصل طير خضر ، فهي كاللكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان ، أن يعطينا على الإيمان - انتهى - .

تنبيه :

قال الواحدى : الأصح في حياة الشهداء ، ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من أن أرواحهم في أجواف طير خضر ، وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون . وقال البيضاوى : الآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس ، بل هو جوهر مدرك بذاته ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتأمله والتذاده ، ويؤيد ذلك قوله سبحانه وتعالى : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا .. الآية^(٢) . - . وحديث : أرواح الشهداء في أجواف طير .. الخ .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٤٥٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) [٤٠ / غافر / ٤٦] ونصها : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

قال الشهاب : يعنى ليس الإنسان مجرد البدن بدون النفس المجردة ، بل هو فى الحقيقة النفس المجردة ، وإطلاقه على البدن لشدة التعلق بها ، وهى جوهر مدرك لذاته ، أى من غير احتياج إلى هذا البدن ، لوصفه بعد مفارقتها بالتنعم ونحوه - انتهى .

وقال أبو السعود : فى الآية دلالة على أن روح الإنسان جسم لطيف ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتأمله والتذاه . ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول : المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيوراً خضراً أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكر - انتهى .

وقد أسلفنا فى سورة البقرة ، فى مثل هذه الآية ، زيادة على ذلك . فتذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

«فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» يعنى بما أعطاهم من الثواب والكرامة والإحسان الذين لا يغم فيه بسلبه «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ» أى بإخوانهم المجاهدين الذين «لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ» لم يقتلوا فيلحقوا بهم «مِنْ خَلْفِهِمْ» متعلق بـ «يَلْحَقُوا» والمعنى : أنهم بقوا من بعدهم وهم قد تقدموهم . أو لم يلحقوا بهم : لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم «أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» بدل من (الذين) ، بدل اشتمال مبين أن استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم ، والمعنى : ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين . وهؤلاءهم يبعثون آمنين يوم القيامة ، بشرهم الله بذلك ، فهم مستبشرون به . وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على الجد فى الجهاد ، والرغبة فى نيل منازل الشهداء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧١] (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)

« يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » أى يسرون

بما أنعم الله عليهم ، وما تفضل عليهم من زيادة السكرامة ، وتوفير أجرهم عليهم .

قال أبو السعود : كرّر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن ،

بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة ، لا يقادر قدرها ، وهى ثواب أعمالهم . ثم قال : والمراد

بالمؤمنين : إما الشهداء ، والتعير عنهم بالمؤمنين للإيذان بسمو رتبة الإيمان ، وكونه مناطاً

لما نالوه من السعادة . وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ، ذكرت توفية أجورهم

على إيمانهم ، وعدت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة فى الدين - انتهى - .

وقال ابن القيم : إن الله تعالى عزّى نبيه وأوليائه عن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية

والطفها وأدعاهما إلى الرضا بما قضاه لهم بقوله : وَلَا تَحْسَبَنَّ... الآيات - فجمع لهم إلى الحياة

الدائمة ، منزلة القرب منه ، وأنهم عنده ، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم

من فضله ، وهو فوق الرضا ، بل هو كمال الرضا ، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم

يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته ، وذكرهم

سبحانه فى أثناء هذه المحنة بما هو أعظم مننه ، ونعمه عليهم ، التى قابلوا بها كل محنة تناههم

وبلية تلاشت فى جنب هذه المنة والنعمة ، ولم يبق لها أثر البتة ، وهى منتّه عليهم بإرسال

رسول من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وينقذهم من الضلال ،

الذى كانوا فيه قبل إرساله ، إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى الفلاح ، ومن الظلمة إلى النور ،

ومن الجهل إلى العلم . فكل بلية ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له ، أمر

يسير جداً فى جنب الخير الكثير . كما ينال الناس بأذى المطر ، فى جنب ما يحصل لهم به

من الخير . وأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ، ليحذروا ، وأنها بقضائه

وقدره ليوحده ويتكلموا عليه ، ولا يخافوا غيره . وأخبرهم بماله فيها من الحكم ، لئلا يتهموا في قضائه وقدره ، وليتعرف إليهم بأنواع صفاته وأسمائه . وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدراً وأعظم خطراً مما فاتهم من النصر والغنيمة ، وغزاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته ، لينافسوا فيه ، ولا يحزنوا عليهم ، فله الحمد كما هو أهله ، وكما ينبغي لكرم وجهه ، وعز جلاله .

ثم قال ابن القيم : ولما انقضت الحرب ، انكفأ المشركون ، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذراري والأموال ، فشق ذلك عليهم ، فقال النبي ﷺ لعل بن أبي طالب : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فإن هم جنبوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن كانوا ركبو الخيل ، وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة ، فوالذي نفسي بيده ! لئن أرادوها لأسيرن إليهم ، ثم لأنجزهم فيها . قال علي : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ، ووجهوا مكة . ولما عزموا على الرجوع إلى مكة ، أشرف على المسلمين أبو سفيان ، ثم ناداهم : موعدكم الموسم بيدر . فقال النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : قولوا نعم قد فعلنا . قال أبو سفيان : فذاك الموعد . ثم انصرف هو وأصحابه . فلما كان في بعض الطريق ، تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ! أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنأدى في الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم ، وقال : لا يخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبي : أركب معك ، قال : لا . فاستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد والخوف ، وقالوا : سمعاً وطاعة . واستأذنه جابر بن عبد الله وقال : يا رسول الله ! إني أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفني أبي على بناته فأذن لي أسير معك ، فأذن له ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ، وأقبل

معبدين أبي معبد الخزاعيّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم . فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذه ، فلققه بالروحاء - ولم يعلم بإسلامه - فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال : محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم ، وخرجوا في جمع لم يخرجوا مثله ، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم . فقال : ما تقول ؟ فقال : ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة ، فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم ، قال : فلا تفعل ، فإني لك ناصح . فرجعوا على أعقابهم إلى مكة - انتهى - وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٢] (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » أى دعوة الله ورسوله إلى الخروج في طلب أبي سفيان إرهاباً له « مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » بأحد « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ » بطاعته « وَاتَّقُوا » مخالفته « أَجْرٌ عَظِيمٌ » روى البخارى^(١) عن عائشة رضى الله عنها في هذه الآية قالت لعروة : يا ابن أختي ! كان أبواك منهم : الزبير وأبو بكر رضى الله عنهما . لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصابه يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا فقال : من يذهب في أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير ، قال ابن هشام^(٢) : ولما ثنى معبد أبا سفيان ومن معه ، كما تقدم ، مرّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس ، فقال : أين تريدون ؟

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٢٥ - باب الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ .

(٢) السيرة الصفحة ١٠٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) و صفحة ٥٩٠ (طبعة جوتنجن) .

قالوا : نريد المدينة ؛ قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غداً زيبياً بمكاظ إذا وافيتونا ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فرّ الركب برسول الله صلى عليه وسلم وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأنزل الله تعالى فى ذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

«الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» أى الركب المستقبل لهم «إِنَّ النَّاسَ» أى أبا سفيان وأصحابه «قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ» أى الجموع ليستأصلوكم «فَاخْشَوْهُمْ» ولا تأتوهم «فَزَادَهُمْ» أى ذلك القول «إِيمَانًا» أى تصديقاً بالله وبقيناً . والمعنى : أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا ، بل ثبت به عزمهم على طاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمر به وينهى عنه . وفى الآية دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادة ونقصاناً ، فإن ازدياد اليقين بتناصر الحجج ، وكثرة التأمل ، مما لا ريب فيه «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ» أى كافينا أمرهم من غير عدة لنا ولا عدد «وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» أى الموكل إليه والمفوض إليه الأمر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (فَاتَّقَلَّبُوا نِيعَةً مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)

«فَاتَّقَلَّبُوا» أى رجعوا من حمراء الأسد «نِيعَةً مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ» يعنى : العافية وكمال الشجاعة وزيادة الإيمان والتصلب فى الدين «لَمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ» أى لم يصبهم قتل

ولا جراح « وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ » أى فى طاعة رسوله بخروجهم وجراءتهم « وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » حيث تفضل عليهم بالعافية وما ذكر معها ، وبالحفظ عن كل ما يسوؤهم . وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به .

فائدة :

قال السيوطى فى (الإكليل) : فى قوله تعالى « وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » استحباب هذه الكلمة عند الغم والأمور العظيمة .

تنبيه :

حمل الآية على غزوة حراء الأسد ، هو ما قاله الحسن وقتادة وعكرمة وغير واحد . وروى أنها نزلت فى غزوة بدر الصغرى . قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : فى قوله تعالى « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ . . . » الآية - أن أباسفيان قال ، لما انصرف من أحد : موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا ! فقال النبي ﷺ : عسى ! فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدرأ ، فوافقوا السوق فيها ، فابتاعوا ، فذلك قوله تعالى « فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ . . . » الآية - قال : وهى غزوة بدر الصغرى - رواه ابن جرير - وأخرج أيضاً عن ابن جريج قال : لما عهد رسول الله ﷺ لموعد أبى سفيان ، فجعلوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش ، فيقولون : قد جمعوا لكم (يكيدونهم بذلك ، يريدون أن يربوهم) فيقول المؤمنون « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » حتى قدموا بدرأ ، فوجدوا أسواقها عافية ، لم ينازعهم فيها أحد .

وروى البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله « فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ » قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن غيراً مرت فى أيام الموسم ، فاشترأها رسول الله ﷺ فربح فيها مالاً ، فقسمه بين أصحابه .

قال ابن القيم فى (الهدى) : إن أباسفيان قال عند انصرافه من أحد : موعدكم وإيانا العام القابل بيدر ، فلما كان شعبان ، وقيل ذو القعدة من العام القابل ، خرج رسول الله

صلى الله عليه وسلم لموعده في ألف وخمسمائة ، وكانت الخليل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على ابن أبي طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة ، فانتهى إلى بدر ، فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين ، وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكة ، وهم ألفان ، ومعهم خمسون فرساً ، فلما انتهوا إلى مر الظهران ، مرحلة من مكة ، قال لهم أبو سفيان : إن العام عام جذب ، وقد رأيت أن أرجع بكم . فانصرفوا راجعين ، وأخلفوا الموعد ، فسميت هذه بدر الموعد ، وتسمى بدر الثانية - انتهى - .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية نزلت في شأن غزوة حمراء الأسد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ)

« إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ » أى قول الشيطان « يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ » أى يخوفكم بقوله أوليائه الكفار ، حينئذ فأوليائه ثانى مفعولى يخوف ، والأول محذوف ، أى يخوفكم أوليائه ، كما قرئ كذلك ، وقيل : لا حذف فيه ، والمعنى يخوف من يتبعه ، فأما من توكل على الله فلا يخافه « فَلَا تَخَافُوهُمْ » أى أوليائه « وَخَافُونِ » فى مخالفة أمرى ورسولى « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله تعالى على خوف غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ،

يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

« وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » أى لا تهتم ولا تبال بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومضرة أهله . وقرئ فى السبع « يُحْزِنُكَ » بضم الياء وكسر الزاى

« إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا » قال عطاء : يريد أولياء الله . نقله الرازي . قال أبو السعود : تعليل للنهي ، وتكميل للتسلية بتحقيق نفي ضررهم أبداً ، أى لن يضرُوا بذلك أولياء الله البتة . وتعليق نفي الضرر به تعالى لتشريفهم والإيدان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه ، وفيه مزيد مبالغة في التسلية .

وقال المهابي : أى لن يضرُوا أولياء الله ، لأنهم يحميهم الله ، فلو أضروهم لأضروا الله بتعجزهم إياه عن حمايتهم ، ولا يمكنهم أن يعجزوه شيئاً بل « يُرِيدُ اللَّهُ » أن يضرهم الضرر الكلى وهو « أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ » أى نصيباً من الثواب في الآخرة « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » قال بعض المفسرين : ثمرة هذه الآية أنه لا يجب الاغتم من معصية العاصين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا » أى استبدلوا « الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا » فيه تعريض ظاهر باقتصار الضرر عليهم ، كأنه قيل : وإنما يضرّون أنفسهم . فإن جعل الموصول عبارة عن المسارعين المهودين بأن يراد باشتراء الكفر بالإيمان إيثاره عليه ، إما بأخذه بدلاً من الإيمان الحاصل بالفعل ، كما هو حال المرتدين ، أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله في التوراة ، كما هو شأن اليهود ومناققيهم . فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيد ، ببيان علته ، بتغيير عنوان الموضوع ، فإن ما ذكر في حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح في لحوق ضرره بأنفسهم ، وعدم تعديه إلى غيرهم أصلاً ، كيف وهو علم في الخسران الكلى ، والحرمان الأبدي ، دال على كمال سخافة عقولهم ، وركاكة آرائهم ، فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ، ورزانة الرأي ، ورسالة

التدبير ، من مضارة حزب الله تعالى ، وهى أعز من الأبلق الفرد ، وأمنع من عقاب الجو . وإن أجرى الموصول على عموميه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الإيمان من الاستعداد القريب له ، الحاصل بمشاهدة الوحي الناطق ، وملاحظة الدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس ، كما هو دأب جميع الكفرة ، فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقريرا للقواعد الكلية ، لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام - أفاده أبو السعود - ثم قال : وقوله تعالى « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم ، بذكر غاية إيلامه ، بعد ذكر نهاية عظمه ، قيل : لما جرت العادة باغتراب المشتري بما اشتراه ، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة ، وتأمله عند كونها خاسرة ، وصف عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك - انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمْ تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمْ تُمْلِي لَهُمْ » أى بتطويل أعمارهم وإمهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرًا طويلا « خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ » بل هو سبب مزيد عذابهم ، لأنه « إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » بكثرة المعاصى فيزدادوا عذابا . « وَلَهُمْ » أى فى الآخرة « عَذَابٌ مُّهِينٌ » ذو إهانة فى أسفل دركات النار .

لطائف

الأولى :

فى (ما) - من قوله تعالى « إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ » الأولى - وجهان : أن تكون مصدرية أو موصولة ، حذف عائدها . أى إملاؤنا لهم أو الذى نمليه لهم .

الثانية :

كان حق (ما) في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة ، ولكنها وقعت في الإمام متصلة ، فلا يخالف ، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف .

الثالثة :

(ما) الثانية في « إِنَّمَا نُمَلِّى » الخ متصلة لأنها كافة .

الرابعة :

في قوله تعالى « مُهِينٌ » سر لطيف ، وهو أنه لما تضمن الإماماء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها ، وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر ، وصف عذابهم بالإهانة ، ليكون جزاؤهم جزاءً وفاقاً .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد ، وهو أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب . فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ، وطار لهم الصيت ، دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطناً ، فاقترضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق ، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة ، وتكلموا بما كانوا يكتُمونه ، وظهر نخباتهم ، وعاد تلويحهم صريحاً ، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا ، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا في نفس دورهم ، وهم معهم لا يفارقونهم ، فاستعدوا لهم ، وتحرزوا منهم فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)
« مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ » أى يترك « الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ » من الالتباس

بالمُنافقين ، بل لا يزال يبتليكم «حَتَّى يَمِيزَ» المنافق «الْخَبِيثَ مِنَ» المؤمن «الطَّيِّبِ وَ» لا يميز إلا بهذا الابتلاء لأنه «مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ» أى الذى يميز به ما فى قلوب الخلق من الإيمان والكفر «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ» باطلاعه على الغيب ، كما أوحى إلى النبي ﷺ بما ظهر منهم من الأقوال والأفعال ، حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، فيفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويخلصكم من سوء جوارهم . قال ابن القيم : هذا استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب ، كما قال (١) «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» فخطكم أنتم وسعادتكم فى الإيمان بالغيب الذى يطالع عليه رسله ، فإن آمنتم به واتقيتم كان لكم أعظم الأجر والكرامة ، كما قال تعالى «فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ» الذين اجتباهم للاقتداء بهم فى الاعتقادات والأعمال «وَإِنْ تَوَمَّنُوا» فتصححوا الاعتقادات «وَتَتَّقُوا» فتصلحوا الأعمال «فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» وههنا :

لطائف

الأولى :

فى التعبير عن المؤمن والمنافق بالطيب والخبيث تسجيل على كل منهما ، بما يليق به ، وإشعار بعلّة الحكم .

الثانية :

إفراد الخبيث والطيب مع تعدد ما أريد بكل منهما وتكرره لاسيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع ، للإيدان بأن مدار إفراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادهما ، كما فى مثل قوله تعالى «ذَلِكَ أَدْنَىٰ»

(١) [٧٢ / الجن / ٢٦ و ٢٧] ... فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا .

أَلَّا تَعُولُوا»^(١) ونظيره قوله تعالى « تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ »^(٢) حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم .

الثالثة :

تعليق الميز بالخبيث العبر به عن المنافق ، مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقه بهم وإفرازهم عن المنافقين ، لما أن الميز الواقع بين الفريقين إنما هو بالتصرف في المنافقين وتغييرهم من حال إلى حال مغايرة للأولى ، مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان ، وإن ظهر مزيد إخلاصهم ، لا بالتصرف فيهم ، وتغييرهم من حال إلى حال أخرى ، مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ، ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير إليه في قوله تعالى « وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ »^(٣) .

الرابعة :

إنما لم ينسب عدم الترك إليهم ، لما أنه مشعر بالاعتناء بشأن من نسب إليه ، فإن المتبادر منه عدم الترك على حالة غير ملائمة ، كما يشهد به الذوق السليم .

(١) [٤ / النساء / ٣] ونصها : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

(٢) [٢٢ / الحج / ٢] ونصها : يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٢٠] ونصها : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الخامسة :

التعرض للاجتناء في قوله « يَجْتَنِي مِنْ رُسُلِهِ ... » الخ للإيدان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية، لا يتأتى إلا ممن رشحهم الله تعالى لمنصب جليل، تقاصرت عنه همم الأمم، واصطفاه على الجماهير لإرشادهم ، وتعميم الاجتناء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب أمر متين ، له أصل أصيل ، جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل عليهم السلام .

السادسة :

تعميم الأمر في قوله تعالى « فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » مع أن سوق النظم الكريم للإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ، لإيجاب الإيمان به بالطريق البرهانيّ، والإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل ، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام، فيدخل فيه تصديقه فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولاً أولياً .

هذا ما اقتبسناه من تفسير العلامة أبي السعود رحمه الله . وقد استقرب حمل هذه الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة في إملائه تعالى للكفرة إثر بيان شريته لهم . فالعنى : ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبداً كما تركهم كذلك إلى الآن ، لسر يقتضيه ، بل يفرز عنهم المنافقين ، ولذلك فعله يومئذ ، حيث خلى الكفرة وشأنهم ، فأبرز لهم صورة الغلبة ، فأظهر من في قلوبهم مرض ، ما فيها من الخبائث واقتضحوا على رؤوس الأشهاد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ » اعلم أنه تعالى لما بالغ في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات المتقدمة ، شرع ههنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله ، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل ببذله فيه ، وإيراد ما بخلوا به بعنوان (إيتاء الله تعالى إياه من فضله) للمبالغة في بيان سوء صنيعهم ، فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله كما في قوله تعالى : « وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ^(١) » . « بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ » لاستجلاب العقاب عليهم ، والتنصيص على شرئته لهم ، مع انقضاءها من نفي خيرئته ، للمبالغة في ذلك . والتنوين للتفخيم « سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » بيان لكيفية شرية مآل ما بخلوا به . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا الوعيد على طريق التمثيل ، أى سيلزمون وبالمثل ما بخلوا به لزوم الطوق . وذهب آخرون إلى أنه على ظاهره ، وأنه نوع من العذاب الأخرى المحسوس . وأيدوه بما روى البخارى ^(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شقيقه - ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا هذه الآية « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ... » إلى آخرها .

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] ونصها : ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٣ - باب إثم مانع الزكاة ، حديث ٧٤٦ .

وروى الإمام أحمد^(١) والنسائي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : إن الذى لا يؤدى زكاة ماله يمثل الله عز وجل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع ، له زيبتان ، ثم يلزمه بطوقه . يقول : أنا كنزك ، أنا كنزك .

وروى الإمام أحمد^(٢) والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : لا يمنع عبد زكاة ماله إلا جعل له شجاع أقرع يتبعه ، يفر منه وهو يتبعه ، فيقول : أنا كنزك . ثم قرأ عبد الله مصداقه فى كتاب الله : سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قال الترمذي : حسن صحيح .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ثوبان عن النبي ﷺ قال : من ترك بعده كنزاً مثل له شجاعاً أقرع ، له زيبتان ، يتبعه . فيقول : من أنت ويلك؟ فيقول : أنا كنزك الذى خلفت بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلتمه يده فيقضمها ، ثم يتبع سائر جسده . قال الحافظ ابن كثير : إسناده جيد قوى ، ولم يخرجوه ، وقد رواه الطبراني عن جرير بن عبد الله البجلي . ورواه ابن جرير^(٣) والحافظ ابن مردويه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يأتي رجل مولاة فيسأله من فضل مال عنده ، فيمنعه إياه ، إلا دُعِيَ له يوم القيامة شجاعٌ يتلمظ فضله الذى منع .

وروى ابن جرير^(٤) مرفوعاً : ما من ذى رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده ، فيبخل به عليه ، إلا أخرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه . ورواه أيضاً موقوفاً ومرسلاً .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٩٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٣٧٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٣) تفسير الطبرى ، الأثر ٨٢٨٤ .

(٤) تفسير الطبرى ، الأثر ٨٢٨٢ .

والشجاع (كغراب وكتاب): الحية مطلقاً ، أو الذكر منها ، أو ضرب منها دقيق ، وهو أجروها - كذا في القاموس وشرحه - .

ثم أشار تعالى إلى أنهم ، وإن لم ينفقوا أموالهم في سبيله ، فهي راجعة إليه بقوله « وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى ما يتوارثه أهلها من مال وغيره ، فلهم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه في سبيله . ونظيره قوله تعالى : وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ^(١) فلميراث على هذا على حقيقته ، أو المعنى : أنه يفنى أهل السموات والأرض ويصير أملاك أهلها بعد فنائهم إلى خالص ملكه ، كما يصير مال الورث ملك الوارث ، فجرى ما هنا مجرى الورثة ، إذ كان الخلق يدعون الأملاك ظاهراً ، وإلا فالكل له ، وعلى هذا فهو مجاز .
قال الزجاج رحمه الله : أى أن الله تعالى يفنى أهلها ، فيفنيان بما فيهما ، فليس لأحد فيهما ملك ، فخطبوا بما يعلمون ، لأنهم يجعلون ، ما يرجع إلى الإنسان ميراثاً ، ملكاً له « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى فيجازيكم على المنع والبخل .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٨١] (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ

مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

« لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ » روى الحفاظ

ابن مردويه وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً^(٢) . قالت اليهود : يا محمد ! افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله هذه الآية .

(١) [٥٧ / الحديد / ٧] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٤٥] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ

لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

وروى محمد بن إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال^(١) : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس ، فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فنحاص) وكان من علمائهم وأخبارهم ، ومعه جبر يقال له (أشيع) فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ، ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر رضي الله عنه ، فضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسى بيده ! لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! أبصر ما صنع بي صاحبك . فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً . يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه . فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ . . . »^(٢) الآية - ولما كان مثل هذا القول ، سواء كان عن اعتقاد ، أو استهزاء بالقرآن والرسول - وهو الظاهر - لا يصدر إلا عن تمرد

= و [٥٧ / الحديد / ١١] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة ٢٠٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

(٢) [٣ / آل عمران / ١٨١] ونصها : لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

عظيم لكونه في غاية العظم والهول ، أشار إلى وعيده الشديد بقوله « سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا »
 أى ما قالوه من هذه العظيمة الشنء في صحائف الحفظة « وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ »
 إنما نظم مع ما قبله إيذاناً بسوابقهم القبيحة ، وأنه ليس أول جريمة ارتكبوها ، وأن من
 اجتراً على قتل الأنبياء لم يستبعد منه هذا الكلام « وَتَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى يقال لهم ذلك تقريباً
 وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، بسبب هتكهم حرمة الله ، وحرمة كلامه وأنبيائه المبلغين له .

لطائف

الأولى :

إيراد صيغة الجمع في الآية مع كون القائل واحداً ، كما روى ، لرضا الباقيين بذلك ،
 ونظائره في التنزيل كثيرة .

الثانية :

إضافة عذاب الحريق ببيانية . أى العذاب الذى هو الحريق .

الثالثة :

الدوق إدراك الطعوم ، ثم اتسع فيه لإدراك سائر المحسوسات والحالات ، وذكره ههنا
 لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل ، والتهالك على المال ، وغالب حاجة الإنسان
 إليه لتحصيل المطاعم ، ومعظم بخله به للخوف من فقدانه ، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال
 - أفاده البيضاوى - .

الرابعة :

تقديم الأيدى عملها ، لأن من يعمل شيئاً يقدمه ، والتعبير بالأيدى عن النفس من حيث

أن عامة أفاعيلها إنما تزاوّل بهنّ ، فهو من قبيل التعبير عن الكل بالجزء الذى مدار جلّ العمل عليه .

الخامسة :

إن قيل « ظلام » صيغة مبالغة من الظلم ، تفيد الكثير ، ولا يلزم من نفي الظلم الكثير نفي الظلم القليل ، فلو قيل : بظالم ، لكان أدل على نفي الظلم قليله وكثيره . فالجواب عنه من أوجه :

أحدها - أن الصيغة للنسب من قبيل (بزّاز) و (عطار) لا للمبالغة ، والمعنى لا ينسب إلى الظلم .

الثانى - أن (فعّالا) قد جاء . لا يراد به الكثرة ، كقول طرفة ^(١) :

ولستُ بحلال التّلاعِ مخافةً ولكن متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أُرْفِدِ

لا يريد ههنا أنه قد يحلّ التلاع قليلاً ، لأن ذلك يدفعه قوله : متى يسترفد القوم أرفد . وهذا يدل على نفي البخل فى كل حال ، ولأن تمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة .

والثالث - أن المبالغة لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده ، وظلام لعبيده ، فالصيغة للمبالغة كمّا لا كيفاً .

(١) من معلقة طرفة بن العبد التى مطلعها :

لخولة أطلال بيرة شهيد تلوح كباق الوشم فى ظاهر اليد

قال التبريزى : التلاع مجارى الماء من رؤوس الجبال إلى الأودية . والمعنى : إني لست ممن يستتر فى القلاع . أى لا أنزلها مخافة فتواربنى من الناس حتى لا يرانى ابن السبيل والضيف . ولكن أنزل الفضاء وأرفد من يسترفدنى وأعين من استعاننى . والرّفد العطية . والرّفد المعونة .

و (مخافة) ينتصب على أنه مفعول له ، أو على المصدر .

الرابع - أنه إذا نفى الظلم الكثير اتفى الظلم القليل ضرورة . لأن الذى يظلم إنما يظلم لا تنفاعة بالظلم ، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضرر ، كان للظلم القليل المنفعة أترك .

الخامس :

إن المبالغة لتأكيد معنى بديع ، وذلك لأن جملة : وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ - اعتراض تذييل مقرر لمضمون ما قبلها ، أى والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم . والتعبير عن ذلك بنفى الظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم ، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها . وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« الَّذِينَ قَالُوا » نصب بتقدير (أعنى) أو رفع على الذم بتقدير (هم الذين قالوا) : « إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا » أى أمرنا « أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ » أى تبكيئاً لهم ، وإظهاراً لكذبهم « قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ » أى المعجزات الواضحة « وَبِالَّذِي قُلْتُمْ » بعينه من تشريع القران الذى تأكله النار « فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ » أى فلم قابلتهم بالكذب والمخالفة والمعاندة وقتلتهم « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فى أنكم تبعون الحق وتنقادون للرسول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ

وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ » أى بعد بطلان عذرهم المذكور « فَقَدْ كُذِّبَ » أى فلا تحزن وتسلك فقد كذب « رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ » جمع زبور أى الكتب الموحاة منه تعالى « وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ » أى الواضح الجلى . والزبور والكتاب : واحد فى الأصل ، وإنما ذكرنا لاختلاف الوصفين . فالزبور فيه حكم زاجرة ، والكتاب المنير هو المشتغل على جميع الشريعة .

فائدة

فى قربان أهل الكتاب وتشريعه عندهم

اعلم أن القربان (بضم القاف) معناه ، لغةً ، ما يتقرب به إلى الله تعالى وسيلةً لمرضاته . قال فى مرشد الطالبين : كانت ذبائح العبرانيين عديدة جداً ، وكان المستعمل لهذه الذبيحة ، بتعيين الله ، الثيران والنعاج والمز والحمام واليمام . وكانت الذبائح نوعين عامين : إحداها كانت تقرب لتكفير الخطايا ، والأخرى شكراً لله على مراحمه وبركاته .

ثم قال : فالذبيحة اليومية كانت مشهورة جداً ، وهى خروف بلا عيب ، يقدم وقوداً لله كفارة للخطايا ، وذلك مرتان صباحاً ومساءً ، طول مدة السنة ، فالتى فى الصباح تقدم عن خطايا الشعب ليلاً ، والتى فى المساء عن خطاياهم نهائياً . وقبل فعل الذبيحة تعترف كل الشعوب بخطاياها فوق الحيوان المراد ذبحه على يد الكاهن الخادم ، وبهذا كان ينقل الإثم إليه بواسطة وضع وكلاء الشعب أيديهم على رأسه ، ثم يذبح ويقرب وقوداً . وفى غضون ذلك تسجد الجماعة فى الدار ، وتبخر الكهنة على المذابح الذهبية ، ويقدمون الطلبات لله عن الشعب . وأما فى يوم السبت ، فكانت تتضاعف الذبيحة ، ويقرب فى كل دفعه خروفان .

ثم قال : يوم الكفارة كان ممتازاً بالذبيحة السنوية ، وهي أنه بعد أن يقرب الكاهن ثوراً كفارة لخطايا عائلته يقرب ما عزان كفارة لخطايا الشعب - انتهى - .

وقد أشير لكيفية ذبح القربان وحرقة في مواضع من التوراة. منها سفر الخروج في الفصل التاسع والعشرين ، ومنها في الفصل الأول من سفر الأخبار المسمين باللاويين ونصه : ودعا الرب موسى وخطبه من خباء المحضر قائلاً : خاطب بني إسرائيل وقل لهم : أى إنسان منكم قرب قرباناً للرب من البهائم فمن البقر والغنم يقربون قرايئهم إن كان قربانه محرقة من البقر ، فذكرها صحيحاً يقربه عند باب خباء المحضر يقربه للرضوان عنه ، ويضع يده على رأس المحرقة ، ويتبرضى به ليفغره ، ثم يذبح الثور ويقرب الكهنة بنو هرون الدم وينضحون الدم على المذبح ، وما أحاط به في باب قبة الشهادة - يعنى التابوت الذى كان فيه لوحا التوراة المسماة شهادة - ثم يسلخون المحرقة ، ويقطعونها قطعاً ، ثم يوقدون ناراً على المذبح ، وينضدون الحطب على النار ، ثم يعملون الأعضاء المقطعة الرأس والشحم على الحطب الذى على النار على المذبح ، ويفسلون أكارعه وجوفه بالماء ، ثم يصعده الكاهن ويجعله على المذبح وقوداً وقرباناً لرضا الرب ... الخ .

وفي الفصل السادس من سفر الأخبار : وكلم الرب موسى قائلاً : مُرْ هرون وبنيه ، وقل لهم : هذه شريعة المحرقة ، تكون المحرقة على وقيدة المذبح طول الليل إلى الغداة ، ونار المذبح متقدة عليه ، ويلبس الكاهن قيصه من الكتان ، وسراويلات من الكتان على بدنه ، ويرفع الرماد الذى آلت إليه نار المحرقة على المذبح ، ويجعله إلى جانب المذبح ، ثم يخلع ثيابه ويلبس ثياباً آخر ، ويخرج الرماد إلى خارج المحلة إلى موضع طاهر ، وتبقى النار على المذبح متقدة لا تطفأ ، ويضع عليها الكاهن حطباً في كل غداة ... الخ .

قال بعضهم : زعم الربانيون أن النار التى كانت في هيكل سليمان ، والتي أمر اليهود بحفظها دون أن تطفأ البتة ، كان أصلها من النار التى نزلت من السماء بعد مقدمة هرون وأبنائه المحرقات ، وأنها بقيت إلى أيام خراب الهيكل على يد بختنصر ، إلا أنه ليس في التوراة ما يصرح بذلك - انتهى -

وهذه النار التي نزلت من السماء جاء ذكرها في الفصل التاسع من سفر الأحبار وملخصه:
أن موسى أمر هرون عليهما السلام أن يذبح قرباناً ، فذبح عجلًا وأحرق لحمه وجلده خارج
المحلة ، وأما شحمه وكليته وزيادته كبده فقترها على المذبح ، ثم قرب تيساً وثوراً وكبشاً
بكيفية خاصة ، ثم دخل موسى وهرون خباء المحضر ، فخرجت نار من عند الرب ، فأكلت
المحرقة والشحوم التي على المذبح ، فنظر جميع الشعب وهتفوا مسبحين وسجدوا - انتهى -
إذا علمت ذلك ، فقوله تعالى « تَأْكُلُهُ النَّارُ » بمعنى أنه يذبح على الكيفية المعروفة ،
ثم تنزل نار من السماء فتأكله ، وتكون معجزة وآية كما حصل في عهد موسى وهرون من
نزول النار وأكلها المحرقة ، كما ذكرنا . وفي عهد سليمان أيضاً . فقد جاء في الفصل التاسع
من سفر أخبار الأيام الثاني : أن سليمان لما أتم الدعاء هبطت النار من السماء وأكلت المحرقة
والذبايح ، وكان جميع بني إسرائيل يعاينون هبوط النار - انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ
زُجِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)
« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » كقوله : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ
ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ^(١) . وفي هذه الآية تعزية لجميع الناس ، ووعد ووعد للمصدق
والكذب « وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أي تعطون جزاء أعمالكم وافيًا يوم
القيامة ، إن خيرا نخير ، وإن شرا فشر . قال الزخشرى : فإن قلت : فهذا يوم نبي ما يروى
أن القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ! ^(٢) قلت : كلمة التوفية تزيل هذا

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦ و ٢٧] .

(٢) أخرجه الترمذى في ٣٥ - كتاب القيامة ، ٢٦ - ياب حدثنا محمد بن أحمد بن مديويه =

الوهم ، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور .

وقال الرازى : بين تعالى أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة ، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف في الدنيا فهي مكفرة بالعموم والهموم ، وبخوف الانقطاع والزوال ، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة ، لأن هناك يحصل السرور بلا غم ، والأمن بلا خوف ، واللذة بلا ألم ، والسعادة بلا خوف الانقطاع .

= ونصه : عن أبي سعيد قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناساً كأنهم يكشرون . قال « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى الموت . فأكثرُوا ذكر هادم اللذات ، الموت . فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه . فيقول : أنا بيت الغربة وأنا بيت الوحدة وأنا بيت التراب وأنا بيت الدود .

فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا وأهلا . أما إن كنتَ لأحبَّ من يمشى على ظهرى إلى . فإذا وليتكَ اليومَ وصرتَ إلىّ ، فسترى صنيعى بك .

قال : فيتسع له مد بصره ويفتح له باب إلى الجنة .

وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر فقال له القبر : لا مرحبا ولا أهلا . أما إن كنتَ

لأبغض من يمشى على ظهرى إلىّ . فإذا وليتكَ اليومَ وصرتَ إلىّ ، فسترى صنيعى بك .

قال : فيلتئم عليه حتى تلتقى عليه وتختلف أضلاعه .

قال : قال رسول الله ﷺ بأصابه . فأدخل بعضها في جوف بعض .

قال : ويقيض الله له سبعين تنينا ، لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبت شيئاً

ما بقيت الدنيا .

فينهشونه ويخدشونه حتى يفضى به إلى الحساب .

قال : قال رسول الله ﷺ « إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

وكذا القول في العقاب ، فإنه لا يحصل في الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة ، بل يمتزج به راحت وتخفيفات ، وإنما الألم التام الخالص الباقي هو الذي يكون يوم القيامة ، نعوذ بالله منه . « فَمَنْ زُحِرِحَ » أى أبعد « عَنْ النَّارِ » التى هى مجمع الآفات والشور « وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ » الجامعة للذات والشور « فَقَدْ فَازَ » أى حصل الفوز العظيم ، وهو الظفر بالبغية ، أعنى النجاة من سخط الله والعذاب السرمذ ، ونيل رضوان الله والنعيم الخلد . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال ^(١) : قال رسول الله ﷺ : من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه . وأخرجه مسلم أيضا « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى لذاتها « إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » المتاع : ما يتمتع وينتفع به ، والغرور (بضم الغين) مصدر غره أى خدعه وأطمعه بالباطل ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١٦١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) . ونصه : عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : انتهيت إلى عبد الله بن عمرو بن العاص وهو جالس فى ظل الكعبة . فسمعتة يقول : بينا نحن مع رسول الله ﷺ فى سفر ، إذ نزل منزلا . فمنا من يضرب خباءه ومنا من هو فى جشيره ومنا من ينتضل ، إذ نادى مناديه : الصلاة جامعة . قال فاجتمعنا . قال فقام رسول الله ﷺ فخطبنا فقال « إنه لم يكن نبى قبلى إلا دل أمتة على ما يعلمه خيرا لهم ، ويحذرهم ما يعلمه شرا لهم . وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها فى أولها . وإن آخرها سيصيبهم بلاء شديد وأمور تنكرونها . تبحى فتن يرقق بعضها لبعض . تبحى الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتى . ثم تنكشف . ثم تبحى الفتنة فيقول المؤمن : هذه ، ثم تنكشف . فمن سره منكم أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة فلتدركه موته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر . وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه . ومن بايع إماما فأعطاها صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع . فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنقه الآخر » .

وإنما وصف عيش الدنيا بذلك لما تمنّيه لذاتها من طول البقاء ، وأمل الدوام ، فتخدعه ثم تصرعه . قال بعض السلف : الدنيا متاع متروك يوشك أن يضمحل ويذول . فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« لَتُبْلَوْنَ » أى لتختبرن « فِي أَمْوَالِكُمْ » بما يصيبها من الآفات « وَأَنفُسِكُمْ » بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والخاوف والشدائد . وهذا كقوله تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ... إلى آخر الآيتين ^(١) - أى لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده . أو أهله . وفي الحديث ^(٢) : يبتلى المرء على قدر دينه . فإن كان في دينه صلابة ، زيد في البلاء . « وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى

(١) [٢ / البقرة / ١٥٥ و ١٥٦] ... ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(٢) أخرجه الترمذى في : ٣٤ - كتاب الزهد ، ٥٧ - باب ما جاء في الصبر على البلاء ونصه : عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ! أى الناس أشد بلاءً ؟ قال « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان دينه صلاباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ، ما عليه خطيئة .

كثيراً « بالقول والفعل « وَإِنْ تَصَبَّرُوا » على ذلك « وَتَتَّقُوا » أى مخالفة أمره تعالى « فَإِنَّ ذَلِكَ » أى الصبر والتقوى « مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أى من معزومات الأمور التى يتنافس فيها المتنافسون . أى مما يجب أن يعزم عليه كل أحد ، لما فيه من كمال الزية والشرف . أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه . يعنى : أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى ، لا بد أن تصبروا وتتقوا . وفى إبراز الأمر بالصبر والتقوى فى صورة الشرطية، من إظهار كمال اللطف بالعباد، ما لا يخفى - أفاده أبو السعود .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب الصبر . وأن الجهاد لا يسقط مع سماع ما يؤذى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » وهم علماء اليهود والنصارى « لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ » أى لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها أمر نبوته ﷺ . وفى قوله تعالى « وَلَا تَكْتُمُونَهُ » من النهى عن الكتمان، بعد الأمر بالبيان، مبالغة فى إيجاب المأمور به « فَنَبَذُوهُ » أى الميثاق « وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » أى طرحوه ولم يراعوه . ونبذ الشيء وراء الظهر مثل فى الاستهانة به ، والإعراض عنه بالسكينة . كما أن جعله نصب العين علم فى كمال العناية به « وَاشْتَرَوْا بِهِ » أى استبدلوا به « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى شيئاً حقيراً من حطام الدنيا « فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ » بتغيير كلام الله ونبذ ميثاقه .

قال بعض المفسرين : ثمرة الآية وجوب إظهار الحق ، وتحريم كتمانها ، فيدخل فيه بيان الدين والأحكام والفتاوى والشهادات وغير ذلك مما يجب إظهاره . وقد تقدم هذا ، وإن المراد بذلك إذا لم يؤد إلى مفسدة . ويدخل فى الكتم منع الكتب النطوية على علم الدين حيث تعذر الأخذ إلا منها .

وقال العلامة الزمخشريّ عليه الرحمة : كفى بهذه الآية دليلاً على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطبيب لنفوسهم ، واستجلاب لمساوهم ، أو لجر منفعة وحطام الدنيا ، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمانة ، أو لبخل بالعلم ، وغيره أن ينسب إليه غيرهم - انتهى - .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من سئل عن علم ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار - أخرجه الترمذى^(١) - ولأبي داود^(٢) : من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء . ثم تلا : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ ... الآية .

لطيفة :

قال العلامة أبو السعود : في تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة ، لا سيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة في المأخوذ ، والإعراض عن المعطى ، والتعبير عن المشتري الذي هو العمدة في العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة إليه ، وجعل الكتاب الذي حقه أن يتنافس فيه المتنافسون ، مصحوباً بـ (الباء) الداخلة على الآلات والوسائل - من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الدنيء الحقير ، على الشريف الخطير ، وتعكيسهم بمجملهم المقصد الأصلي وسيلة ، والوسيلة مقصداً - ما لا يخفى جلالة شأنه ورفعته مكانه - انتهى -

ثم أشار تعالى أنهم لا يرون قبح ذلك بل يفرحون به فقال :

- (١) أخرجه الترمذى في : ٣٩ - كتاب العلم ، ٣ - باب ما جاء في كتمان العلم .
(٢) أخرجه أبو داود في : ٢٤ - كتاب العلم ، ٩ - باب كراهية منع العلم ، حديث

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا

فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا » أى بما فعلوا من اشتراء الثمن القليل بتغيير كلام الله تعالى « وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » من وفاء الميثاق من غير تغيير ولا كتمان « فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ » أى بمنجاة « مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بكفرهم وتدليسهم .

روى الإمام أحمد^(١) عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، أن مروان قال : اذهب يا رافع (لبوابه) إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل ، لنعذبن أجمعون . فقال ابن عباس مالسكم وهذه ، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب - إلى قوله : وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وقال ابن عباس : سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتبتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتابهم إياه مأسألهم عنه . وهكذا رواه البخارى في التفسير ، ومسلم والترمذى والنسائى في تفسيريهما ، وابن أبى حاتم وابن خزيمة والحاكم في مستدركه ، وابن مردويه بنحوه . ورواه البخارى^(٢) أيضاً عن علقمة بن وقاص ، أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس - فذكره - وروى البخارى^(٣) عن أبى سعيد الخدرى أن رجلاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ

(١) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٩٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٦ - باب

لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٨ .

(٣) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٦ - باب

لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، حديث ١٩٨٧ .

إلى الغزو وتحلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت « وَلَا تَحْسَبَنَّ ... » الآية - وكذا رواه مسلم بنحوه .

ولا منافاة بين الروایتين لأن الآية عامة في جميع ما ذكر ، ومعنى نزول الآية في ذلك وقوعها بعد ذلك ، لا أن أحد الأمرين كان سبباً لنزولها . كما حققناه غير مرة .

تنبيه :

هذه الآية ، وإن كانت محمولة على الكفار لما تقدم ، ففيها ترهيب للمؤمنين عما ذم عليه أهلها من الإصرار على القبائح والفرح بها ومحبة المدح بما عرا عنه من الفضائل . ويدخل في ذلك المراءون المتكثرون بما لم يعطوا ، كما جاء في الصحيحين ^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم : من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة . وفي الصحيحين ^(٢) أيضاً : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور . فليحذر من يأتي بما لا ينبغي ويفرح به ثم يتوقع من الناس أن يصفوه بسداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والإقبال على الله تعالى .

فائدة :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني ، وفاعل الأول (الذين يفرحون) . وأما مفعولاه فمحدوفان اكتفاء بمفعولى « تَحْسَبَنَّاهُمْ » لأن الفاعل

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ١٧٦ (طبعتنا) ونصه : عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال « ليس على رجل نذر فيما لا يملك . ولعن المؤمن كقتله . ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة . ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة . ومن حلف على يمين صبر فاجرة » .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٧ - كتاب النكاح ، ١٠٦ - باب المتشبع بما لم ينل . ومسلم في : ٣٧ - كتاب اللباس ، حديث ١٢٦ و١٢٧ (طبعتنا) .

فيهما واحد . فالفاعل الثاني تأكيد للأول، وحسن لما طال الكلام المتصل بالأول . والفاء زائدة ، إذ ليست للعطف ولا للجواب ، وثمت وجوه أخرى .

لطيفة :

تصدير الوعيد بنهيهم عن الحساب المذكور، للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة ، وقطع أطعاهم الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة ، كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية ، وعليه كان مبنى فرحهم . وأما نهيه صلى الله عليه وسلم فللتعريض بحسابانهم المذكور ، لا لاحتمال وقوع الحساب من جهته عليه الصلاة والسلام - أفاده أبو السعود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فهو قادر على عقابهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ

لِأُولَى الْأَلْبَابِ)

« إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى في إيجادها على ما هما عليه من الأمور

الدهشة ، تلك في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثواب وبحار ، وجبال وقفار وأشجار، ونبات وزروع ، وثمار وحيوان ، ومعادن ومنافع ، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص « وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى في تعاقبهما ، وكون كل منهما خليفة للآخر ، بحسب طلوع الشمس وغروبها ، أو في تفاوتهما بزيادة كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه

بازدياده « لَا يَاتِ » أى : لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته ، وباهر حكيمته . والتفكير
للتفخيم كمّا وكيفاً ، أى كثرة عظيمة « لِأُولَى الْأَلْبَابِ » أى لدوى العقول المجلوة بالتزكية
والتصفية بملازمة الذكر دائماً كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)
«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ» أى فلا يخلو حال من أحوالهم
عن ذكر الله المفيد صفاء الظاهر المؤثر فى تصفية الباطن . فالمراد تعميم الذكر للأوقات ،
وعدم الغفلة عنه تعالى . وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ، ليس لتخصيص الذكر
بها ، بل لأنها الأحوال المعهودة التى لا يخلو عنها الإنسان غالباً « وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فى إنشائهما بهذه الأجرام العظام ، وما فيهما من عجائب
المصنوعات ، وغرائب المبتدعات ، ليدلّهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ، فيعلموا
أن لهما خالقاً قادراً مدبراً حكيماً ، لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها تعالى .
كما قيل :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

روى ابن أبى الدنيا فى (كتاب التوكل والاعتبار) عن الصوفى الجليل الشيخ أبى سليمان
الدارانى قدس الله سره أنه قال : إني لأخرج من منزلى ، فما يقع بصرى على شيء إلا رأيت
الله على فيه نعمة ، ولى فيه عبرة . وإنما خصص التفكير بالخلق ، للنهى عن التفكير فى الخالق
لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته .

خرج ابن أبى حاتم من حديث عبد الله بن سلام : لا تفكروا فى الله ، ولكن تفكروا
فىما خلق ، وله شواهد كثيرة .

قال الرازى : دلائل التوحيد محصورة في قسمين : دلائل الآفاق ، ودلائل الأنفس ، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم ، كما قال تعالى : لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (١) . ولما كان الأمر كذلك ، لا جرم أمر في هذه الآية بالفكر في خلق السموات والأرض ، لأن دلائلها أعجب ، وشواهدا أعظم ، وكيف لا نقول ذلك ، ولو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى في تلك الورقة عرقاً واحداً ممتداً في وسطها ، ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين ، ثم يتشعب منها عروق دقيقة ، ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق آخر ، حتى تصير في الدقة بحيث لا يراها البصر ، وعند هذا يعلم أن للخالق في تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكماً بالغة ، وأسراراً عجيبة ، وأن الله تعالى أودع فيها قوى جاذبة لغذائها من قعر الأرض ، ثم إن ذلك الغذاء يجري في تلك العروق ، حتى يتوزع على كل جزء من أجزاء تلك الورقة ، جزءاً من أجزاء ذلك الغذاء بتقدير العزيز العليم . ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة ، وكيفية التدبير في إيجادها ، وإيداع القوى الغذائية والنامية فيها ، لعجز عنه . فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة ، فحينئذ يقيس تلك الورقة إلى السموات ، مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم . وإلى الأرض مع ما فيها من البحار والجبال والمعادن والنبات والحيوان . عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء ، كالعدم . فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير ، عرف أنه لا سبيل له البتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله في خلق السموات والأرض ، وإذا عرف بهذا البرهان النير قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام ، لم يبق معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواسفين ومعارف العارفين . بل يسلم أن كل ما خلقه ففیه حکم بالغة ، وأسرار عظيمة ، وإن كان لا سبيل إلى معرفتها ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا » على إرادة

(١) [٤٠ / غافر / ٥٧] ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

القول ، بمعنى يتفكرون قائلين ذلك . وكلمة «هذا» متضمنة لضرب من التعظيم ، أى ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثاً ، عارياً عن الحكمة ، خالياً عن المصلحة ، بل منتظماً لحكم جليلة ، ومصالح عظيمة . من جملتها أن يكون دلالة على معرفتك ، ووجوب طاعتك ، واجتناب معصيتك ، وأن يكون مداراً لمعيش العباد ، ومناراً يرشدكم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد .

لطيفة :

قال أبو البقاء : (باطلاً) مفعول من أجله . والباطل ، هنا ، فاعل بمعنى المصدر ، مثل العاقبة والعافية . والمعنى : ما خلقتكما عبثاً . ويجوز أن يكون حالاً . تقديره : ما خلقت هذا خالياً عن حكمة . ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، أى خلقاً باطلاً - انتهى - . وقوله «سُبْحَانَكَ» أى تنزيهاً لك من العبث ، وأن تخلق شيئاً بغير حكمة «فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» قال السيوطى : فيه استحباب هذا الذكر عند النظر إلى السماء . ذكره النووى فى (الأذكار) اهـ . وفيه تعليم العباد كيفية الدعاء ، وهو تقديم الثناء على الله تعالى أولاً ، كما دل عليه قوله «سُبْحَانَكَ» ثم بعد الثناء يأتى الدعاء ، كما دل عليه «فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» . وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو فى صلاته ، لم يمجّد الله تعالى ، ولم يصل على النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : عجل هذا ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه ، والثناء عليه ، ثم يصل على النبى ﷺ ، ثم يدعو بعد بما شاء - رواه أبو داود^(١) والترمذى وقال : حديث صحيح . واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى ، وأبدانهم فى طاعة الله ، وقلوبهم فى التفكير فى دلائل عظمة الله ، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله أن يقيهم عذاب النار ، ثم أتبعوا ذلك بما يدل على عظم ذلك العقاب وشدته وهو الخزى ، بقولهم :

(١) أخرجه أبو داود فى : ٨ - كتاب الوتر ، ٢٣ - باب الدعاء ، حديث ١٤٨١ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)
 « رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ » أى أهنته وأظهرت فضيخته لأهل الموقف .
 وسر هذا الإتيان عظم موقع السؤال ، لأن من سأل ربه حاجة ، إذا شرح عظمها وقوتها ،
 كانت داعيته في ذلك الدعاء أكمل ، وإخلاصه في طلبه أشد ، والدعاء لا يتصل بالإجابة ،
 إلا إذا كان مقروناً بالإخلاص ، وهذا أيضاً تعليم من الله تعالى فناً آخر من آداب الدعاء
 « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالهم ، ببيان خلود عذابهم ،
 بفقدان من ينصرهم ، ويقوم بتخليصهم . وغرضهم تأكيد الاستدعاء . ووضع (الظالمين)
 موضع ضمير المدخلين ، لدمهم ، والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم ، ووضعهم الأشياء
 في غير مواضعها . وجمع (الأنصار) بالنظر إلى جمع الظالمين ، أى ما لظالم من الظالمين نصير
 من الأنصار . والمراد به من ينصر بالمداخلة والقهر . فليس في الآية دلالة على نفى الشفاعة ،
 على أن المراد بالظالمين هم الكفار - أفاده أبو السعود - .
 وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ،
 رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)

« رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا » حكاية لدعاء آخر لهم ، وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لإظهار
 كمال الضراعة ، والابتهاال . والتأكيـد للإيذان بصـدور المـقال عنهم بوفور الرغبة ، وكمال
 النشاط . والمراد بالمنادى الرسول ﷺ ، والتنوين للتفخيم ، وهذا كقوله تعالى : وَدَاعِيَا
 إِلَى اللَّهِ ^(١) . وفي وصفه ﷺ بـ (المنادى) دلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوى وتبليغها إلى

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٦] ونصها : وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا .

الدانى والقاصى ، لما فيه من الإيذان برفع الصوت « يُنَادِ لِلْإِيمَانِ » أى لأجل الإيمان بالله . فإن قلت : فأى فائدة فى الجمع بين (المنادى) و (ينادى) ؟ قلت : ذكر النداء مطلقاً ، ثم مقيداً بالإيمان ، تفخيماً لشأن المنادى ، لأنه لا منادى أعظم من منادٍ ينادى للإيمان . ونحوه قولك : مررت بهادٍ يهذى للإسلام ، وذلك أن المنادى إذا أطلق ، ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب أو لإطفاء النائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع . وكذلك الهادى قد يطلق على من يهذى للطريق ، ويهذى لسداد الرأى ، وغير ذلك . فإذا قلت : ينادى للإيمان ، ويهذى للإسلام فقد رفعت من شأن المنادى والهادى ، ونخمته . ويقال : دعاه لكذا وإلى كذا ، وندبه له وإليه ، وناداه له وإليه ، ونحوه : هداه للطريق وإليه . وذلك أن معنى انتهاء الغاية ، ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً - أفاده الزخشرى - .

« أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا » أى فامتثلنا أمره ، وأجبنا نداءه ، و« أَنْ » إِمَاتِيسِيرِيَّةٌ ، أى آمَنُوا ، أو مصدرية ، أى : بَأْنِ آمَنُوا « رَبَّنَا » تَكَرِيرٌ لِلتَّضَرُّعِ ، وإِظْهَارٌ لِكَمَالِ الْخُضُوعِ « فَآغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا » أى اسْتِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَلَا تَفْضَحْنَا بِهَا ، وَأَذْهَبْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا بِتَبْدِيلِهَا حَسَنَاتٍ « وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ » أى مَعْدُودِينَ فِي جَمْلَتِهِمْ حَتَّى نَكُونَ فِي دَرَجَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَالْأَبْرَارُ جَمْعُ بَارٍّ أَوْ بَرٍّ وَهُوَ كَثِيرُ الْبِرِّ (بِالْكَسْرِ) أى الطَّاعَةِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

« رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » أى على تصديق رسلك والإيمان بهم . أو على ألسنة رسلك . وهو الثواب . وهذا حكاية لدعاء آخر لهم ، معطوف على ما قبله . وتكرير

النداء لما مرَّ « وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ » قصدوا بذلك تذكير وعدمه تعالى بقوله : يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ^(١) . بإظهار أنهم ممن آمن معه.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي » أى بأتى « لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » بيان لـ (عامل) وتأكيد لعمومه « بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » أى الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر ، كلكم بنو آدم . وهذه جملة معترضة مبينة سبب شركة النساء مع الرجال ، فيما وعد الله عباده العاملين . وروى الحافظ سعيد بن منصور فى سننه عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشيء ، فأنزل الله تعالى « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... » الآية - وقالت الأنصار : هى أول طعينة قدمت علينا - ورواه الترمذى^(٢) ،

(١) [٦٦ / التحريم / ٨] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَغَفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

(٢) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٩ - حدثنا

ابن أبى عمر . ونصه : عن أم سلمة قالت : يا رسول الله ! لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة ، فأنزل الله تعالى : أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ .

والحاكم في (مستدرکه) وقال : صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه . وروى ابن مردويه عن مجاهد عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ... » إلى آخرها . وعن جعفر الصادق رضي الله عنه : من حَزَبَهُ أمر فقال : خمس مرات (رَبَّنَا) أنجاه الله مما يخاف ، وأعطاه ما أراد . وقرأ الآيات .

« فَالَّذِينَ هَاجَرُوا » مبتدأ ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم ، كأنه قال : فالذين عملوا هذه الأعمال السنية وهي الهجرة عن أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم من دار الفتنة « وَأَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ » أي التي ولدوا فيها ونشأوا « وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي » أي من أجله وبسببه ، يريد سبيل الإيمان بالله وحده ، وهو متناول لكل أذى نالهم من المشركين « وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا » أي غزوا المشركين واستشهدوا « لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » جملة قسمية ، خبر المبتدأ الذي هو الموصول ، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه ، بعد ما وعد ذلك عموماً « وَلَا دُخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أي من تحت قصورها الأنهار ، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر « ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » في موضع المصدر المؤكد لما قبله ، فإن تكفير السيئات وإدخال الجنة ، في معنى الإثابة . وأضافه إليه تعالى ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزيلًا كثيرًا . كما قيل (١) :

إِنْ يِعَاقِبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يَهْطِلْ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يَبَالِي

«وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» أي حسن الجزاء لمن عمل صالحًا . ثم بين تعالى قبح ما أوتى الكفرة من حظوظ الدنيا ، وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها ، إثر بيان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب ، بقوله :

(١) قائله الأعشى ، من قصيدة مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي . فهل تردّ سؤالي

الغرام : الشر الدائم . ومنه قوله تعالى : إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . أي هلاكًا ولزامًا لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (لَا يَغْرِبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)

« لَا يَغْرِبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ » أى تصرفهم فيها بالتاجر والمكاسب ،
أى لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق ودرك العاجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« مَتَاعٌ قَلِيلٌ » أى هو متاع قليل ، لقصر مدته ، وكونه بُلغَةً فانية ، ونعمة زائلة ،
فلا قدر له في جنب ما أعد الله للمؤمنين .

وفي صحيح مسلم^(١) عن النبي ﷺ : والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجمل أحدكم
إصبعه في اليم ، فليُنظر بم يرجع ؟

« ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » أى مصيرهم الذى إليه يأوون « وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى الفراش هى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)

فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ)

« لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » بيان لكمال حسن حال المؤمنين ، غيب بيان وتكريره له ، إثر تقرير ،
مع زيادة خلودهم فى الجنات ليستم بذلك سرورهم ، ويزداد تبجحهم ، ويتكامل به سوء حال
الكفرة . والنزل (بضمتين ، وضم فسكون) المنزل ، وما هـى للزئيل أن ينزل عليه « وَمَا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ،

حديث ٥٥ (طبعنا) عن المستورد ، أخى بنى فهر .

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ « أَى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل . والتعبير عنهم بـ (الأبرار) للإشعار بأن الصفات المحدودة من أعمال البر ، كما أنها من قبيل التقوى .
 روى الشيخان ^(١) - واللفظ للبخارى - عن عمر بن الخطاب قال: جئت رسول الله ﷺ ، فإذا هو فى مشربة ، وإنه لملئ حصير ما بينه وبينه شئ ، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوه ليف ، وعند رجله قرظ مصبور ، وعند رأسه أهب معلقة ، فرأيت أثر الحصير فى جنبه ،

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٦٦ - سورة التحريم ، ٢ - باب : تَبَتَّغَى مَرْضَاةً أَرْوَاجَكَ ، حديث ٧٦ . وها كوه بنصه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله ، هيبة له . حتى خرج حاجا فخرجت معه . فلما رجعت وكنا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له . فوقف له حتى فرغ . ثم سرت معه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة . قال فقلت : والله ! إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك . قال : فلا تفعل . ما ظننت أن عندى من علم فأسألى . فإن كان لى علم خبرتك به .

قال ثم قال عمر : إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . قال : فبينما أنا فى أمر أتأمره إذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا . قال فقلت لها : مالك ولما ههنا ، فيما تكلفك فى أمر أريده؟ فقالت لى : محباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها : يا بنية ! إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة : والله ! إنا لتراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ . يا بنية ! لا تغرنك هذه التى أعجبها حسنُها حب رسول الله ﷺ إياها (يريد عائشة) .

فبكيت ! فقال : ما يبكيك ؟ قلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هم فيه ، وأنت رسول الله ! فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ؟

وروى ابن أبي حاتم وعبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من نفس برة ولا فاجرة ، إلا الموت خير لها . لئن كان برًّا ، لقد قال الله تعالى « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ »

= قال : ثم خرجتُ حتى دخلتُ على أم سلمة ، لقرايتي منها . فكلمتها . فقالت أم سلمة : عجباً لك يا ابن الخطاب ! دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ؟

فأخذتني ، والله ! ، أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد . فخرجت من عندها . وكان لي صاحب من الأنصار ، إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر . ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا . فقد امتلأت صدورنا منه . فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب . فقال : افتح ، افتح . فقلت : جاء الغساني ؟ فقال : بل أشد من ذلك . اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه . فقلت : رغم أنف حفصة وعائشة . فأخذت ثوبي ، فأخرج حتى جئت فإذا رسول الله ﷺ في مشربة له يرقى عليها بعجلة . وغلّام لرسول الله ﷺ ، أسود ، على رأس الدرجة . فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب . فأذن لي .

قال عمر : فقصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث . فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لعلّ حصير ، ما بينه وبينه شيء . وتحت رأسه وسادة من أديم حشوها ليف . وإن عند رجليه قرطاً مصبوباً . وعند رأسه أهبٌ معلقة . فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت . فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : يا رسول الله ! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ؟ فقال « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ » وأخرجه مسلم في : ١٨ - كتاب الطلاق ، حديث ٣١٩٣٠ (طبعتنا) .

وَقَرَأْ : وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُنَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُنَمِّلِي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ^(١).

وروى ابن جرير عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقني فإن الله يقول « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » ويقول « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُنَمِّلِي لَهُمْ ... » الآية - وأخرج نحوه رزين عن ابن عباس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »
جملة مسأفة سقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حُكِيتَ هَنَاتِهِمْ من نبذ الميثاق ، وتحريف الكتاب وغير ذلك . بل منهم طائفة يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على النبي ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله ، أى مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا ، أى لا يكتُمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ . وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، سواء كانوا هودًا أو نصارى ، وقد قال تعالى في سورة القصص : « الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا

(١) [٣ / آل عمران / ١٧٨] .

مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا^(١) . الآية، وقال تعالى
وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ^(٢) وقال تعالى : لَيْسُوا سَوَاءً ،
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ^(٣) . وهذه
الصفات توجد في اليهود ، ولكن قليلاً ، كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من
أحبار اليهود ، ولم يبلغوا عشرة أنفس . وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق ،
كما قال تعالى : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ،
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيحِينَ
وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ
مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا
لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ *
فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْمُحْسِنِينَ^(٤) .

وهكذا قال هنا « أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » .

وقد ثبت في الحديث^(٥) أن جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه لما قرأ سورة (كهيعص)

(١) [٢٨ / القصص / ٥٢-٥٤] . . . وَيَدْرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ .

(٢) [٧ / الأعراف / ١٥٩] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١١٣] .

(٤) [٥ / المائدة / ٨٢-٨٥] .

(٥) هو جزء من حديث الهجرة إلى الحبشة أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم ١٧٤٠

(طبعة المعارف) وصفحة ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) فلا يفتك نصه الطويل

فإنه حديث جليل من الوجهة التاريخية .

بمحضرة النجاشي ملك الحبشة ، وعنده البطارقة والقساوسة ، بكى وبكوا معه ، حتى أخضبوا لحامه .

وثبت في الصحيحين ^(١) أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه ، وقال : إن أخاكم بالحبشة قدمات فصلوا عليه ، نخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه .
وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك قال : لما توفي النجاشي ، قال رسول الله ﷺ : استغفروا لأخيكم . فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر للعج مات بأرض الحبشة؟! فنزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية - ورواه عبيد بن حميد أيضاً مسلاً ^(٢) . ورواه ابن جرير عن جابر ، وفيه : فقال المنافقون : يصلى على عالج مات بأرض الحبشة؟! فنزلت .

وروى الحاكم في (مستدركه) عن عبد الله بن الزبير قال : نزل بالنجاشي عدو من أرضهم ، فجاء المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا ، فقال : لَدَا بَنَصْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، خير من دواء بنصرة الناس . قال وفيه نزلت : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية - ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : وإن من أهل الكتاب ، يعنى مسلمة أهل الكتاب .
وقال عباد بن منصور : سألت الحسن البصري عن قول الله : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ،

(١) أخرجه البخاري في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٤ - باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه ، حديث ٦٦٨ ، عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١١ - كتاب الجنائز ، حديث ٦٢ و ٦٣ عن أبي هريرة ، وحديث ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ عن جابر ، وحديث ٦٧ عن عمران بن حصين (طبعنا) .

(٢) الأثر ٨٣٧٦ و ٨٣٧٧ .

الآية - قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ ، فاتبعوه وعرفوا الإسلام ، فأعطاهم الله أجر اثنين : للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ ، واتباعهم محمدًا ﷺ - رواه ابن أبي حاتم - .

وقد ثبت في الصحيحين^(١) عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين ، فذكر منهم رجلًا من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي - أفاده ابن كثير - .

ثم إن الإخبار ، في آخر الآية ، بكونه تعالى : سَرِيعُ الْحِسَابِ . كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق ، وأنه يوفّيها كل عامل على ما ينبغي ، وقدر ما ينبغي . ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر لكونه من لوازمها . ولكونه من لوازمها أشبه التأكيد ، فلذا لم يعطف عليه - والله أعلم - .

(١) أخرجه البخاريّ في : ٣ - كتاب العلم ، ٣١ - باب تعليم الرجل أمته وأهله ،

حديث ٨٢ ونصه :

عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه . ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فزوجه ، فله أجران » .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٤١ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا » أى على مشاق الطاعات وما يمسكم من الكارم والشدائد « وَصَابِرُوا » أى غالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الجهاد . لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً . والمصابرة باب من الصبر . ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه ، تخصيصاً ، لشدته وصعوبته - كذا فى الكشف - « وَرَابِطُوا » أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدو بالترصد والاستعداد لحربهم ، وارتباط الخيل . قال الله تعالى : وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ^(١) ، والرباط فى الأصل أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغره ، وكل معد لصاحبه ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً . وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً ، وقد يتجاوز بالرباط عن الملازمة والمواظبة على الأمر ، فتسمى رباطاً ومرابطة .

قال الفارسى : هو ثمان من لزوم الثغر ، ولزوم الثغر ثمان من رباط الخيل . وقد وردت الأخبار بالترغيب فى الرباط ، وكثرة أجره . فنها ما رواه البخارى ^(٢) فى صحيحه عن سهل

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] ونصها : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٧٣ - باب فضل رباط يوم

فى سبيل الله .

ابن سعد الساعديّ أن رسول الله ﷺ قال : رباط يوم في سبيل الله ، خير من الدنيا وما عليها .

وروى مسلم^(١) عن سلمان الفارسيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعملهُ ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله ، فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر . وهكذا رواه أبو داود والترمذيّ وقال : حسن صحيح . وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً . وبقيت أحاديث أخر ساقها الحافظ ابن كثير في تفسيره .

هذا ومن الوجوه في قوله تعالى « رَابِطُوا » أن يكون معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة . فقد روى مسلم^(٣) والنسائيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط . فشبهه ﷺ ما ذكر من الأفعال الصالحة بالرباط . وروى الحاكم في (مستدرکه) والحافظ ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال :

(١) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ١٦٣ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة العشرين من الجزء السادس (طبعة الحلبيّ) .

ورواه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٥ - باب في فضل الرباط ، حديث ٢٥٠٠ .

والترمذيّ في : ٢٠ - كتاب فضائل الجهاد ، ٢ - باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً .

(٣) أخرجه مسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث ٤١ (طبعتنا) .

أقبل على أبو هريرة يوماً فقال : أتدرى، يا ابن أخي ! فيم نزلت هذه الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ؟ » قلت : لا ! قال : أما إنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت في قوم يعمرن المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها ، ثم يذكرون الله فيها . فعليهم أنزلت « اصْبِرُوا » أى على الصلوات الخمس ، « وَصَابِرُوا » أنفسكم وهواكم ورابطوا فى مساجدكم . « وَاتَّقُوا اللَّهَ » فيما عليكم « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تفوزون بما يفتبط به . و (لعل) لتغيب المال . لئلا يتسككوا على الآمال .

خاتمة

فيما ورد في الآيات الأواخر من هذه السورة ، وفي فضل هذه السورة بتمامها قال الحافظ ابن كثير : قد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل تهجد .

روى البخاري^(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر ، قعد فنظر إلى السماء ، فقال « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » ثم قام فتوضأ ، واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلال ، فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى بالناس الصبح - وهكذا رواه مسلم - ورواه البخاري^(٢) من طريق أخرى بلفظ : حتى إذا انتصف الليل ، أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل ، استيقظ رسول الله ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ... الحديث - وهكذا أخرجه الجماعة من طرق .

وروى ابن مردويه بسنده عن عمدة الله بن عباس رضى الله عنهما قال : أمرني العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ . وأحفظ صلاته . قال : فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الأخيرة ، حتى إذا لم يبق في المسجد أحد غيري ، قام فمرّ بي فقال : من هذا ؟ عبد الله ؟ قلت : نعم ! قال : فبه ؟ قلت : أمرني العباس أن أبيت بكم الليلة ، قال : فالحق ، الحق .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ١٧ - باب إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

(٢) في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣ - سورة آل عمران ، ٢٠ - باب : رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ .

فلما دخل قال : افرش . عبد الله ! فأتى بوسادة من مسوح ، قال : فنام رسول الله ﷺ عليها حتى سمعت غطيطة ، ثم استوى على فراشه قاعداً ، قال : فرفع رأسه إلى السماء فقال : سبحان الملك القدوس (ثلاث مرات) ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها . وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه حديثاً في ذلك أيضاً .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعد ما مضى ليل ، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة ، ثم قال : اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، ومن بين يدي نوراً ، ومن خلفي نوراً ، ومن فوق نوراً ، ومن تحتي نوراً ، وأعظم لي نوراً يوم القيامة^(١) . وهذا الدعاء ثابت في بعض طرق الصحيح من رواية كريب عن ابن عباس رضى الله عنه .

وروى ابن مردويه وعبد بن حميد حديثاً عن عائشة ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إلى قوله « فَقَدْ عَذَابُ النَّارِ » ثم قال : ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها .

وماورد في فضل هذه السورة ما أخرجه مسلم^(٢) والترمذي من حديث النواس بن سمعان : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران . وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ، ما نسيتهن بعد ، قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان ، بينهما شَرْقٌ (أى ضياء ونور) ، أو كأنهما حِرْقان من طير صوافٍ تُحَاجَّانِ عن صاحبهما . والله سبحانه الموفق .

(١) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٨١ و ١٨٧ و ١٨٩ و ١٩١ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ٢٥٣ (طبعتنا) .

تمّ تفسير هذه السورة صباح الجمعة في ١١ ذى القعدة الحرام
سنة (١٣١٨) وذلك في حرم جامع السنانية
في الشباك القبليّ من السدة اليمنى العليا
بيد جامعه الفقير محمد
جمال الدين القاسميّ
الدمشقيّ غفرله
ولوالديه
والمؤمنين
آمين

(ويليه الجزء الخامس وفيه تفسير سورة النساء)

ملاحظة : يتضح من الأصل أن المؤلف رحمه الله ، أعاد النظر على هذا الجزء بعد عام ١٣٢٩
وإن لم يشر إلى ذلك ، لأن طريقة التصويب والتصحيح والشطب والتحشية، التي
لوحظت في الأصل، مطابقة لما ورد في الجزء الثاني .

ظافر القاسميّ

استدراك الجزء الثالث من « محاسن التأويل »

بقلم حضرة صاحب الفضيلة عالم الشام الأواحد السيد محمد بهجة البيطار

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٥٣	١٩	فِي الْآخِرَةِ	« فِي الْآخِرَةِ »
٣٦٥	٣	بَقِيعَةً	« بَقِيعَةً »
٣٨٧	٩	عَلَى الْبِرِّ	« الْبِرِّ »
٣٩٧	٩	لَمْ يَرْضَوْا	لَمْ يَرْضَوْا
٤١٦	١١	كَمَا كُتِبَ	« كُتِبَ »
٤٢٣	١٥	فَلِيطْعَمَانِ	كَذَا فِي الْيُونَنِيَّةِ (بِالْلام) وَسَقَطَتْ مِنْ الْفَرْعِ كَغَيْرِهِ (شَارِح)
٤٢٨	١٩	لِيَكُونَ	« لِيَكُونَ »
٤٣٠	٥	اسْتَحْبَاهُ	اسْتَحْبَاهُ
٤٣٢	٢١	أَزْوَاجًا	« أَزْوَاجًا »
٤٤٢	١٤	لَأَنْهَا	لَا أَنْهَا
٤٥٠	٣	عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَمْرٍو	عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو
٤٥١	١٧	مِنْ نَفْسٍ	« مِنْ نَفْسٍ »
٤٦٦	١١	إِلَى الْحُكَّامِ	« إِلَى الْحُكَّامِ »
٤٧٢	١٣	وَأَنْ بَعْدَ	وَأَنْ يَعْدَ
٤٧٨	١	حَتَّى لَا تَكُونَ	« حَتَّى لَا تَكُونَ »
٤٨٣	٧	وَالْعُمَرَةَ	« وَالْعُمَرَةَ »
٤٩١	١١	لَمْ يَسْقَ	لَمْ يَسْقَ

تصويب أخطاء الجزء الثالث

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٠٨	١٥	لِيُفْسِدَ	« لِيُفْسِدَ »
٥٩٩	٦	إِنَّ وَأَنَّ	وَأَنَّ
٥١٣	١٨	فَإِنَّمَا	ف : إِنَّمَا
٥١٤	١	وَأِنَّمَا	و : إِنَّمَا
٥١٧	١٦	وما في والأرض	« وما في الأرض »
٥١٧	١٩	في إيمانها	في إيمانها
٥١٨	٢١	صفات الخلقين	الخلقين
٥٢٤	١٣	إلى بكم	« إِلَى رَبِّكُمْ »
٥٢٥	٢٠	من الكفار	« مِنَ الْكُفَّارِ »
٥٢٧	١١	فيها ما تشتهي الأنفس	« وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ »
٥٢٨	٩	أتحرفوا	أتحرفوا
٥٥٨	٩	والمُحْصَنَاتِ	« وَالْمُحْصَنَاتُ »
٥٦٩	١٣	والنساء	« وَالنِّسَاءُ »
٥٨٣	١	إِبْطِلَالًا	إِبْطَالًا
٥٨٥	١٠	أبو بكر ابن شيبه	بن أبي شيبه
٥٨٥	١٨	بما فضل الله به بعضهم	« بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ »
٦٠٤	١١	ثلاث معانٍ	ثلاثة
٦٠٦	٧	أحدهما	أحدها
٦٠٦	٨	ثلاث قُرُوء	ثلاثة قُرُوء
٦٠٦	١٦	تطلقتين	تطلقتين
٦١٠	٢٠	تَرْضَاهُ	تَرْضَاهُ
٦١١	٣	« وَلَا مَوْلُودٌ »	« وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ »

تصويب أخطاء الجزء الثالث

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٢٧	٩	قَانَتَيْنِ	« قَانَتَيْنِ »
٦٤١	٦	أَتَبِعَهُ جَمَلَهُ	جَمَلَهُ
٦٤١	٧	أَيُّ يَضِيقُ عَلَى	أَيُّ يَضِيقُ عَلَى
٦٤٧	٢٠	كَثِيرَةً	« كَثِيرَةً »
٦٧٨	١	هَذِ الْآيَةِ	هَذِهِ الْآيَةِ
٦٨٣	١٠	سِيَمَا	لَاسِيَمَا
٦٨٤	١٦	سِيَمَا	لَاسِيَمَا
٦٨٩	٤	فِي الْأَرْضِ	« فِي الْأَرْضِ »
٦٨٩	١٩	لَأَرِينَا كِهْمُ	« لَأَرِينَا كِهْمُ »
٦٩١	٢	وَلَا شَفِيعٌ	وَلَا شَفِيعٍ
٦٩١	١٦	لَا يَسْأَلُونَ	« لَا يَسْأَلُونَ »
٦٩٤	٢	ثَلَاثَ مَعَانِي	ثَلَاثَةٌ
٧٠٠	٣	مَنْ خَلَاطُهُ	مَنْ خَالَطَهُ
٧٠٢	١١	فِي الْهَوَاءِ	فِي الْهَوَاءِ
٧٢٥	١٢	الْأَصْفَانِي	الْأَصْفَهَانِي
٧٣٣	١٢	لِهَذِهِ الْمَعْنَى	لِهَذَا